ساطع اليزن

وحي الغرق

وحي الغرق

ساطع اليزن

INSPIRED DROWNING

Satee Al Yazan

الطبعة الأولى: 2018

إصدار دار سطور للنشر والتوزيع
العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
ص. ب 74090
الرمز البريدي 12114
هاتف: 07711002790 - 07700492576 email: bal - alame@yahoo. com

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للدار وللمؤلف ساطع اليزن، حسب قوانين الملكية الفكرية للعام 1988، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الطرفين.

First Published by Dar Sotour For Publishing and Distribution
Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jadeed Hasan Basha Entry
Revised copyright © Dar Sotour And Satee Al Yazan ،The right of the Author of this work has been asserted in accordance with the Copyright ،Designs and Patents Act 1988.

هام: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، أو محررها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 430 - 5

رواية

ساطع اليزن

وحي الغرق

سطور
النشر و التوزيع

«من يعرج إلى السماء يغرق ومن يرتل الماء يخلد».

بلقيس

«آه ... كثيراً ما تحدثت السماء عن السلام، ولكن إله الحرب ابتسم أخيراً».

عادل

تيامات

كشف تحقيق صحفي نشر في صحيفة التغيير، في عددها ما قبل الاخير في صفحة تحقيقات، تحت عنوان ملفت للنظر (وحي الغرق) عن تقرير رفع من قبل مديرية الشرطة النهرية في بابل، الى وزارة الداخلية/ الامن العامة تحت عنوان (كائنات مائية معادية)، وكانت صفة التقرير (سري) إذ نصَّ كاتبه على وجود كائنات مائية تستوطن نهر الفرات؛ غريبة الشكل والأطوار؛ إذ لها القدرة على الخروج على ضفاف النهر والحديث مع الشباب والتأثير على انتماءاتهم، وهي تدعوهم إلى أفكار غريبة عن مجتمعنا، وتغريهم لتصديقها عن طريق بعض المعجزات التي تقوم بها، ويدعو التقرير إلى الحذر من احتمال وجود شبكات مماثلة لهذه الكائنات تمتد على طول نهر الفرات، بل ولا يستبعد وجودها في نهر دجلة والبحيرات الأخرى المتصلة فيهما، ويتهم صاحب التقرير اسرائيل باسم (الكيان الصهيوني) بأنه وراء انتشار مثل هكذا مظاهر معادية في مياه قطرنا الحبيب ـ على حد قوله ـ ويحتوى التقرير على الكثير من التفاصيل والاحداث الموثقة بالأقوال والحكايات التي حدثت قرب شط الحلة، وذكر التحقيق ان العراقيين جابهوا هذا التقرير بشيء من السخرية والاستنكار، اذ اعتبروه نوع من الخرافة والسذاجة

البدائية، في حين اشار التحقيق الى ان الاستخبارات العسكرية الامريكية نظرت للموضوع نظرة جدية، وارسلت نسخة منه باسم (تيامات)[1] الى معهد ديوك المختص بدراسة الخرافة والظواهر غير المألوفة وذكر التحقيق ان العراقيين انشغلوا بعد تغيير النظام بالاطلاع على التقارير والوثائق السرية للنظام السابق والتي تسربت وانتشرت في كل مكان، واخذت الصحف اليومية تتسابق في نشرها.

(1)الهة المحيط في ديانات حضارات ما بين النهرين القديمة، تصور بهيئة امرأة تمثل الانوثة والجمال بشكل متلألئ، لكنها تتحول على شكل ثعبان كبير او تنين كتجسيد وحشي للفوضى البدائية بعد مقتل زوجها الاله آبسو .

فوق الغرق

القسم الاول

مياهٌ نقيةٌ، مياهٌ مشرقةٌ

مياه نهري دجلة والفرات،

سبع مرات، سبع مرات،

أحدهم قد رُشَ بالماء، أحدهم قد تطهّر، احدهم قد تنقّى.

يا مردوخ، عسى أن تكون كلمة الحياة مواتية

يا مردوخ، عسى أن تكون أوامرك ملائمة

وراءك مصدر مياه إنكي، رب أريدو، عسى أن يكون ما وراءك مناسباً

إلى جانبك، يا مردوخ، مياه البحر، البحار الواسعة

ولكن عليك أن تتطهّر بالمياه النقية لدجلة والفرات.

(مياه آبسو/ نص بابلي/ ترجمة: د. عبد الأمير الحمداني)

(1)

«هذا جناه أبي عليَّ، وما جنيتُ على أحد»

المعري

تحمل دمي وجسدي وجلدي وشعري ورائحتي وذكرياتي، وكل حب فيَّ، وبعضاً من كرهي في حقيبة حاضرك التي صنعها التاريخ، تاريخ يجبر الحقيبة أن تتقيأ لترفض أحشاؤها كل قاذوراتنا العفنة، والدك الذي ركض بعنفوان الشباب خلف حقائق مزورة، ووهم أيدولوجيات، وتمرد صبياني مراهقي، وغراب ينعق خلف شعاراتٍ جمّلتها البلاغاتُ والألوان الكاذبة، حتى أكلنا التبن، ومسحنا أفواهنا بأردن الذل والجوع والحرمان، أي ردنٍ وأي رداءٍ وأي ألوانٍ تليق بنا؟ وحتى دماؤنا صار لونها كاكياً، أسرفنا العمر نصنَعُ لأحلامنا خنادق تحفرها سواعدنا، لا تحمي أجسادنا إلّا من شمس الوهم، فمرة يدفننا الأعداء، ومرةً يدفننا الأصدقاء.

تاريخ من الرصاص والبارود والدخان والدموع والدماء والتوابيت، ما أن تتيبس حرب حتى تنبتُ أُخرى، فكأنها حين تختفي تنثر خلفها بذورها في أرض خصبة، يشهد التاريخ على خصوبتها للصراعات، نحن في وطن لا ينام إلّا على وسادة حرب، فالسلام يصيبه بالأرق.

واليوم نحن في حرب الرغيف والرزق والتسابق مع الزمن في ماراثون الجوع والترقيع والمعاد وملابس البالات وترميم الأحذية، إلى أين يذهب بنا قارب الوجود الذي تحول إلى زنزانة تغرق في لا مبالاة البحر؟ وماذا يريد منا هذا الوجود الذي ابتدعنا وجداً ليكمل بنا قوانينه التي لا تكتمل إلّا بالتضاد؟ فما زلنا حاضراً بلا فعل، وفعلاً بلا مستقبل، فأي بَطِرٍ يفكر في غده؟ كلنا نفكر بيومنا فقط، فالمستقبل بالنسبة لنا حدث سيء او حدث رياضي بحت يؤدي بالنهاية الى شيء واحد.

انظر لِأمّكَ تصنع لنا الضوء وتعيشُ في العتمة، لا تملك غير الدموع تذرفها منذ ولادتك في يوم وحدها تذكر تفاصيله، أما أنا فكنت فيه قريباً من الموت، بعيدا عنك وعن الحياة، فليس من مسافة بين الحياة والموت إلّا انت، تصور لم أكن اعرف بقدومك إلّا بعد ستة اشهر حين عدتُ محملاً برائحة الموت والدم والدخان والبارود والبسطال، تفاجأت كثيرا حين استقبلتني جدتك: (أهلا أبو عادل)، لأني منذ سنوات وانا اكنى (أبو خليل)، خليل هذا أخوك الاكبر والابن الذي انجبتهُ من مضاجعة سواتر الموت ومناكحة خنادق الحرب، زرعتُ روحه في رحم الحروب فولد أول لحظة لبست فيها لباساً كاكيّا يفوضني لحصد أرواح من جهة، ويضع روحي بين معاول تلك الأرواح من جهة أخرى، فالحرب ليست اكثر من حصاد للأرواح من جميع الجهات.

كادت أمّك تموت حزناً حين فقدتَ حبيبتك وهي تضمحل قهراً أمام انكماش روحك شيئا فشيئاً، لا أريد قلب مواجعك وشجونك، لكنك ذاهبٌ إلى العاصمة ومازلنا نراك طفلاً ودوداً وديعاً، مزق قلبك حبك

البكر ومزق جسدك العوز والفقر، لا تفجع قلبينا بخيبة فقد اكتفينا بمائدة الدهر، احمل حقيبتك بعد أن تفرغها مني ومنها.

سمع عادل وصية والده، هو جالس بينه وبين والدته امام شاشة التلفاز.

(2)

« ستضيع في لوحة... اللوحة تغرق... بدون مياه»

دخلت والدته لتجده يغرق، يفوج في فراشه:

ـ عادل انهض عندك سفر.

نهض يتصبب عرقا، ولازال صدى العبارات الثلاثة يرن في داخله «ستضيع في اللوحة... اللوحة تغرق... بدون مياه» ثم توقف عند الباب يتمطى ويتثاءب، فاغرا فمه مثل كهف، وتذكر ملامح الفتاة التي شاهدها في الحلم.

لم ترقد مشاعره وأشياؤه بأمان، لكنه هيّأَ حقيبته بعد أن رتب ملابسه داخلها، مع بعض الكعك المحلّى الذي عجنته أمُّهُ ببساطتها وحبها، وأغدقت عليه كثيراً من حنانها، حزم أحلامه للانتظام في أول أيام الدوام لمعهد الفنون الجميلة.

وضع باطن كفه على قلبه، يقف منحنيَ الجسد مثل نخلةٍ عجوز، عيناه تكفلتا بالكلام، وهو يودع بيته بنظرة غريبة، كأنه ينظر إلى لوحة في معرض للرسم، فعينه وقعت بدهشة لأول مرة على هذه الصورة، بيت قديم بطلاء تركوازي مثل قبب الأضرحة، تنمقه الأسلاك مثل خطوطٍ في كف الزمن، وتزينه التشققات كأنها أنهارٌ على خرائط كتب الجغرافية، حول نظرهُ إلى الباب الذي اختفى طلاؤهُ، وأصبح لا يميز بين لونه ولون

أرضية الرصيف التَرِب، يفتح نصفه ليظهر نصف أمّهِ، تضع روحَها في كفها وترشقها خلف خطوات ابنها:

(طبع اليودع البيت نشمر ورا ماي

بس آني أذب الروح من يطلع هواي)

لوّح لامّهِ مودعاً، ثم أدار جسده رافعاً بيده اليمنى محملَ حقيبته، يرفعها إلى ظهره، شعر ان كل شيء قد اصبح ثقيلا عليه، وان الاشياء اصبحت ثقيلة على كل شيء، يمشي بخطوات مُتَّئدةٍ واضعاً يده في جيبه، تذكر وصية أبيه، لم يكن ممن يحبون النصائح والوصايا، لكنه مقتنع بكلامه، فهو يختزل تاريخاً قريباً لبلده، ويختلف معه في جزئياته، فالوطن بالنسبة له لا يمثل علماً وحدوداً وأفراداً، هو يعتقد أن وطنه الحقيقي بيته، ومادام خرج منه فهو يهجر وطنه ليكون قريباً من منفاه الجديد، وبعيداً عن جراحاته، اعتقد أن ما تُسمى أوطاناً هي مجرد مصطلحات صنعناها لنزيفَ المعنى، وشعر ان عليه ربط الحياة بحدود انسانية معينة، كي يرتقي بها ظاهريا الى غير المحدد، فالحدود الانسانية لا تشكل عقبات للحياة، بل هي شروط الحياة.

نظر إلى الدور التي تمكث على طابور زقاق بيته، الذي يمثل جزء من (حي المحاربين)، الذي تمكنت الحروب من اسمه، الواقع على شارع الستين، شعر أن البيوت تجثم على أرصفة الدهر، كما يجثم الناس امام الظلم بكل خنوع، وكأنهم يسجدون سجدة طويلة للخوف دون أن يرفعوا رأساً أو يحركَوا قدماً، كم شتاءٍ وصيفٍ وبردٍ ومطرٍ وهم جاثمون بين ركبتي الخوف، وقف قليلا بشكل لا ارادي، فكّر في الذهاب ليرى

بيت شهد، قبل إكمال مسيرهِ إلى شارع الستين الذي لا يبعد كثيرا عن بيته، لكنهُ تجنب ذلك خوفاً من أن يراه احدٌ، جفت كل أزمنته أمام الطرق التي تقود الى باب بيتها الموصود أمام رياح مناجاته، عدل من فكرة الذهاب، وسار يسرح شعرَهُ، بينما اصابعُ اليد الأخرى تحتضنُ سيجارة أخرجها من الجورب، فقد تعود إخفاءها عن والده، الذي يدخن وبشراهة جعلته لا يشم رائحة السجائر فيه، خلاف الوالدة المساعدة في الحصول عليها.

أخذ يرسم بدخانها على جدار الوهم وجوهاً واشكالاً لأشخاص وأشياء تسير معه، وكأن له اكثر من ظل داخل روحه، وشعر أن قوة غريبة جعلت الوجود بين كفين، واختارت أن يكون لعشرة أصابع، في حين أن الناس أصابع كثيرة بلا كف، تمنى أن تنبت الأصابع في الرأس مثل فاكهة الرمان كي يستطيعوا الهرب من فكرة إلى أخرى.

لمْ يركب الباص الذي كان شبه ملأى بالركاب، انتظر الذي بعدها، ليصعد باحثاً عن مقعد في الجزء الامامي منها، جلس مجاوراً للنافذة واضعاً حقيبته فوق المقعد الذي بجانبه، منتظراً قدوم فتاة لِتمنحه دفأً من جسدها، وهمس في سره: كل شيء في داخلنا وحولنا يحترق ومازلنا نبحث عن الدفء.

توافد الركاب إلى الباص الذي أشعرهُ لونه الازبري وزجاجه المظلل باللون الأسود بالراحة لكنه انزعج من الستارة الامامية المزركشة باللون الذهبي وهي تضيّق مساحة النظر أمامه، التفت خلفه ليحصي عدد المقاعد الاربعين الموزعة على الجانبين متسائلاً: كيف يمكن لمساحة صغيرة احتضان أنفاس أربعينَ شخصاً لمدة ليست بالقصيرة؟

ومع اقترابها من الامتلاء، صعد رجل أعمى يتأبط امرأة مسنة تمد كفّها المقعِّرة نحو الركاب، تناجي السماء، ممتدةً متوسلةً وداعيةً لهم، وعند نزولاهما صعد شاب يتصنع العجز، يلف رأسه بكوفيه خضراء، ويطوق خصره بحزام من القماش الأخضر، يحمل بيده كتيباً صغيراً وهو يقرأ بصوت حزين، لم يحب عادل كلامه، وشعر وهو ينظر لعينيه أنه دجال أو احد رجال الامن، ثم صعد طفل أسمر حليقُ الرأس يحمل بيده عذق موز ينادي: موز...موز... موز بربع، لحق به شاب متوسط العمر يعلق في رقبته صندوق خشبي يمتد ليستقر على صدره وهو ينادي: حب... جكاير...علج، وهذا ما يبحث عنه عادل ليبتاع ثلاثة سجائر ڤايسوري مفردة، حتى فاجأه صوتٌ خشنٌ:

ـ السلام عليكم.

رفع عينيه فاذا بجندي متسخ الملابس، اثار في داخله الاشمئزاز والانزعاج، ليفتح فمه الدبق بأسنان صفر، أشار إلى المقعد الذي جنبه مستفسراً:

ـ محجوز؟

لم ينبس ببنت شفة إلّا أنه أومأ إليه بالجلوس بعد أن سحب حقيبته وحشرها بين رجليه، وهو يشعر بالقرف من رائحة بسطاله الذي خلعه عند جلوسه مباشرةً، أراد فتح النافذة تعبيرا عن سخطه إلّا أن محاولاته أمام فتح نافذة السيارة باءت بالفشل، فأحتج يناجي السماء وهو ينظر إليها: كل شيء اغلقته في وجهي حتى هذه النافذة الصغيرة، جمع جسده وكوره بين المقعد الذي أمامه ومقعده، مسنداً رأسه إلى الخلف، مستعداً

للنوم، وعينه تقرأ ما كتبه ركاب سابقون عبثا على ظهر المقعد الذي أمامه من خربشات.

***

قبل اسبوع عاد والده من بغداد ليزف له خبر قبوله في المعهد بعد اجتيازه الاختبار في المقابلة الخاصة أثناء التقديم، حين ذهب معه إلى المعهد في العاصمة بغداد، قبل خبر قبوله بأكثر من ثلاثة اسابيع، لم تكن تلك المرة الاولى التي يذهب فيها إلى بغداد، فقد زارها كثيراً برفقة أسرته، وتمنى العيش فيها، فكل مرةٍ يعود منها يستلقي على فراشه، ويتذكر البنايات الجميلة والاماكن الترفيهية الواسعة ووجوه الفتيات الباسمة.

تحرك الباص صوب العاصمة بغداد، فكر في شهد التي سافرت روحا معه، هي حاضرة بظلالها بعطرها بابتسامتها، أحَبَّها كثيرا، وتذكر ذلك اليوم الذي كان واقفاً فيه مع صديقه (يعرُب) في إحدى زوايا المرآب الصغير لمدينه الحلة، ما اكثر الرسائل الصباحية التي كانت تتبادلها العيون في هذه الاماكن، ما اكثر الابتسامات، وما ابلغ لغة الجسد، لم ينسَ حين رمتهما شهد بابتسامة، الصديقان ردا الابتسامة بمثلها أو بأحسن منها، حتى راهن أحدهما الاخر بأن الابتسامة كانت له، ما جعلته يردد تلك الليلة اغنية:

«فاتت جنبنا أنا وهو.. وضحكت لنـا أنا وهـو»

وبمرور الايام اتفقَ الصديقان على استباقها إلى الباص والجلوس بشكل منفرد بجانب مقعد فارغ، ليتركا لها الخيار، فاختارت الجلوس

جنب عادل الذي التفت إلى صديقه، يبعث له ابتسامة انتصار وكأنه يقول له:

«وجاني الرد جاني ولقيتها بتستناني.. وقالت لي أنا من الأول بضحك لك يا اسمراني»

مما اثار حفيظة يعرُب، الذي بيَّتَ لها ولصديقه الحقد والكراهية، وقرر في ذاته رد اعتباره، عظمت العلاقة بينها وبين عادل، وكثرت لقاءاتهما ليتفقا على الزواج، فرحت والدتُهُ حين أخبرها بنيته للزواج منها بعد أن حدثها عن علاقته بها.

يعرُب الذي تميزه وحمة ولادية في جبينه، يحاول اخفاءها بمقدمه شعره المجعد الذي لا يطاوعه، لكن عزاءه في بشرته السمراء الطاغية، حتى أن عادل دائما ما يلقبه بـ(تايسون)بسبب لونه، ولشفتيه الغليظتين وضخامة جسده، كان الابن الوحيد لمحسن شلغم، ابرز رجال حزب البعث في المحافظة، وبمكيدة لم تخطر ببال عادل استطاع مفاجأة الاثنين وهزيمتهما، أو كسر قلبيهما لرد اعتباره، لتصبح شهد خطيبته، ومن يستطيع رفض ابن محسن شلغم؟ فتمت الموافقة دون اخذ رأي شهد، واتفق الاهل على تزويجهما بعد التخرج من الثانوية، ظلَّ عادل صامتا وهو يسمع شهد تحدثه عبر سماعة الهاتف، صدمته ببكائها وهي تستغيثه وتستنجد به لينقذها من أهلها، لأنهم يرومون تزويجها من يعرُب دون الرجوع لرأيها، أو التفكير في قرارها، وحين التجأ عادل إلى والده متوسلا، رفض رجاءه وحذره الاقتراب من الرفيق محسن شلغم، فكيف يمكن لوالده الوقوف بوجه والد يعرُب، فقد حُكم عليه سابقا بالسجن

خمس سنوات كاملة، وفصل وزوجته من الوظيفة بتهمة الانتماء إلى حزب محظور في وقت كانت السلطة تحظر الانتماء إلى اي نشاط حزبي أو سياسي غير حزب البعث الحاكم، واكمل ما تبقى من عمره في جبهات القتال، أثناء ما كانت الحرب العراقية الايرانية تأكل الاجساد والارواح، على عكس والد يعرب الذي يُعد من بطانة السلطة، حينها خاطبه والده محذرا: لاتضع يدك بجحر لدغ منه والدك، فما زلت بعمر الورد، ثلاث كلمات فقط كفيلة بأن تجعلك ذكرى، لذا عش مع ذكرى شهد افضل من أن نعيش أنا ووالدتك ما تبقى لنا من العمر على ذكراك، هكذا بقيت لكلمات والده صدى مؤلم في راسه وهو يرمق الهاتف الاسود المركون في زاوية الصالة، متذكراً كلمات والدته وتشاؤمها من لونه ومطالباتها المستمرة بتغيره.

تزوج يعرُب منها بعد اكمال الثانوية، ليجبرها على عدم الالتحاق بالجامعة بعد قبولها بكلية الآداب، ليوقف نبض الحياة فيها، كانت فرحةً بقبولها كونها حالمة مثل أوراق الشجر ان تدخل عالم الجامعة وتكمل دراستها، لكنه حجب عنها أشعة الشمس، لتصفر وتتهاوى في خريف الظلام، بينما دخل هو كلية الشرطة ليحقق حلم والده بأن يتخرج ضابطا، اثر ذلك في نفس عادل بالسلب، وحين سمع بخبر زواجهما اخذ يركض بلا وعي وسط السوق صوب ضفاف شط الحلة، في حين ركض خلفه بعض الناس ممن يعرفونه وهم لا يعلمون ما يجري، ركض بسرعة جنونية حتى دخل الى النهر وغطس في المياه واختفى، بحث عنه الكثير من الذين يجيدون السباحة فلم يجدوه، ولم تفلح الشرطة ولا الغطاسين في ايجاد اي أثرٍ له، استمر أختفاؤه يومين متتاليين، مما حذا بوالديه لنصب مجلس

عزاء له، لانهم والجميع تيقنوا ان ابنهم غرق وعلق بشيء تحت المياه، بينما تهامست العجائز بينهن بأن سمكة كبيرة افترسته، ولكن في اليوم الثالث، ابصروا (عادل) جالسا بملابسه على ضفاف النهر وكأن شيئا لم يحدث له، واقسم الكثير من المستطرقين والصيادين انهم شاهدوا بقربه فتاة غريبة الملامح كانت تجلس جنبه، وحين اقتربوا منهما اختفت بالمياه مثل سمكة، وبعد هذه الاقاويل ضجت المدينة بالحادثة بين مصدق ومستبعد للأمر، بينما بدت تنسج الحكايات الغريبة التي راحت توكد وجود حورية مثل تلك حواري البحر التي كانت تتحدث عنها الاساطير وانها هي التي انقذت (عادل)، لكن لا احد يدرك ان الحياة الطبيعية تمتلك بعداً اسطورياً، على الانسان ان يواجهها بصبر وتجلد، انها دائما ترغب في ان يتم التمسك بها، ومن اجل هذا على الانسان ان يكون ثابتا ومتماسكا، كما تتماسك الاشجار في الضفة الطينية للنهر.

بعد حادثة النهر اصيب عادل بحالة غريبة، صار يصرخ كل ليلة اثناء النوم، وحين تنجده والدته تجده يفوج في فراشه يتصبب عرقا وحرارته مرتفعة، لكن هذه الحالة اصبحت تخف بمرور الايام حتى اصبحت نادرة في نومه، وبدت تظهر عليه هذه الاعراض هو مستيقظ وبشكل مفاجئ، صار يسقط بعد ان يغمى عليه لدقائق، وحين يعود لوعيه يتحدث بحديث غريب وغير مفهوم، تسببت تلك الاحداث بتركه الدراسة، لينزوي على نفسه مثل قنفذ أو امرأة عقيم منبوذة، تحول البيت إلى سجن اختياري حتى أصبح ضوء المصابيح يؤلمه، فضل النزول إلى قبو البيت الذي يحتوي على كتب ممنوعة كما يعتقدها والده، أصبح مثل جرذ خائف يلوذ بالظلمة.

أصابت حالته ووضعه النفسي والديه بالإحباط والقلق، أشارت والدته عليه بالالتحاق بمعهد الفنون الجميلة، كونها تعرف ولعه للموسيقى وسماعه المستمر لها، وحبه لتعلمها وكشف اسرارها.

ـ عفوا.. الاجرة.

طلب الصبي الذي يقف في ممر الباص، فز عادل من غيبوبته وأخرج الاجرة بعد ان بحث عن النقود في جميع جيوبه بارتباك وقلق واضح، ثم عدل جلسته، وشرع يفكر كيف سرقت منه حبيبته شرعاً، واي شرع يأمر بقتل الحب ودفنه في عقوده، نظر إلى السماء التي بدت غيومها مثل خراف تتراكض أمام الريح التي اخذت تلملمها مثل راعٍ وسط صحراء فسيحة، وخاطبها، صليتُ استسقاءً أمام سماء فراقها، والرَّبُ آخر قطرة.

(3)

نزل عادل من الباص التي توقفت قرب متنزه الزوراء، تنفس الصعداء وكأنه خرج من كهف غائر أو كأنه في غيبوبة وصحا منها، متجهاً إلى سياج المتنزّه واضعاً الحقيبة جنبه، لمَّع حذاءُه الروغان بكل حِرَفية، ثم أعاد هندامه إلى هيبته، حمل الحقيبة وهو يجتاز الشارع نحو المعهد، كأنه يقطع جسوراً من الاصرار إلى رغبته، الذي اختبأت بناياته خلف الاشجار المتحركة بتكاسل أمام نسمات الهواء الخجلة، اتجه صوب الباب الثانوي داخل الفرع والمخصصة لدخول الطلبة، انبهر بالحديقة الجميلة والتماثيل والايقونات، توقف للحظات يتأملها، في المرة الاولى التي دخل المعهد بصحبة والده لم ينتبه إلى كل هذه التفاصيل كما اليوم، رفع رأسه إلى البناية المزينة بالطابوق المزخرف، بشرفات نصف دائرية، وضعت في وسطها لافتة كتب عليها باللون التركوازي (معهد الفنون الجميلة) ليذكره لون اللافتة بصورة بيته، وتخيل أن هذه اللافتة جزءٌ منه أو نافذةٌ تطل من بيته على المعهد وتصور أن والديه يراقبانه من خلالها، ثم انتبه إلى إحدى المصاطب المزروعة في الحديقة يجلس عليها عاشقان وهما يتهامسان مثل نورسين، فتذكر كيف جلس آخر مرة مع شهد على ضفاف شط الحلة، وهما يراقبان الدوائر التي تصنعها الاسماك، وهي تحاول الخروج من سجن الماء لكنها تعود بعد كل محاولة، لتبعث له ولحبيبته التي تغمره بدفئها رسائل على شكل

حلقات صغيرة ثم تتسع لتتلاشى، كالأحلام تبدأ صغيرة ثم تكبر شيئا فشيئا حتى تتلاشى، فكأنها حين تكبر تموت، لكن الاسماك لا تتوقف عن محاولاتها في القفز خارج حدود الماء، كما الاحلام.

على هذا المشهد الذي قلّب ذكرياته، شعر ان حرارته ترتفع وبدأ يتصبب عرقا، اتجه مسرعا إلى داخل بناية المعهد، باحثا في لوحة الاعلانات عن اسمه ضمن قائمة المقبولين، انتبه إلى النشرات واللوحات الفنية التي وضعها الطلبة على جدار الممر الطويل، شعر بدوار فاستوقفته لوحة تتوسطه، واقترب منها شيئا فشيئا، عبارة عن ثعبان برأس رجل يشبه المسخ تضع بين فكيه كائناً غريباً برأس سمكة، لكن ملامحه بشرية بيدين مستسلمتين شفافتين، وعينين تبتسمان لمن ينظر إليهما، كانت تحيطهما مياه البحر، بينما تتناثر الصخور حول الثعبان، رغم أن السمكة كانت بين فكي الثعبان البشري إلّا أنه لاحظ في عينيها الطمأنينة والهدوء، وحين امعن النظر في عينيها نسى أنه ينظر إلى لوحة وكأن التي أمامه صورة حقيقية التقطت من قبل مصور بارع، فالثعبان الذي ينوي الهرب بالسمكة إلى ساحل من الصدف، أستشعر في عينيه نظرة غير مطمئنة للمصور، انتبه إلى العبارة المكتوبة في اعلى اللوحة (ثعبان ينقذ سمكة من الغرق)، قرأها اكثر من مرة وهو يَزُمّ شفتيه محاولا فهم المقصود منها لكن دون جدوى، تسأله: كيف ينقذ ثعبان سمكة من الغرق؟ تلفت يمينا وشمالا كأنما يبحث عن صاحب اللوحة، حتى أبصر توقيعا يذيلها باسم (بلقيس)، وتمنى لو يستطيع أن يلتقيها.

بعد قراءة اسمه في لوحة الاعلانات تحت عنوان (اسماء الطلبة المقبولين للعام الدراسي **2001 ـ 2002**)، سار صوب وحدة التسجيل

المزدحمة بالطلبة، الذين يحملون ملفاتهم وهم منشغلون بإكمال اجراءات تسجيلهم، أحد الطلبة نبهه مخاطبا:

ـ هذه بطاقتك التموينية سقطت من ملفك

ـ شكرا

ـ العفو لاحظت بطاقتك من الحلة.

ـ اي.

ـ صدفة حلوة، انا مؤيد من الطهمازية.

ـ تشرفنا، عادل من حي المحاربين.

ـ طيب عندك سكن ببغداد، عندك اقارب.

ـ لا والله، بس اكمل تسجيل ابحث عن سكن، وانتَ؟

ـ مثلك بس اكمل تسجيل.

بعد اكتمال التسجيل، شعر عادل براحة وانجذاب كبير له، واتفقا على الذهاب معا للبحث عن سكن في المناطق الشعبية، حدثه مؤيد وهما يتجها صوب باب المعهد:

ـ اقمت اكثر من ليلة مع خالي التاجر في فندق البحري.

ـ ساكن هنا خالك؟

ـ لا كان يصحبني معه كلما ذهب إلى منطقة الشورجة، اعتقد راح يعجبك الفندق.

ـ اعتمد عليك، لان ما اندل.

ـ اعتمد على الله.

ركبا الباص المتوجه إلى باب المعظم وجلسا في مقاعد الطابق الثاني منها، شرع عادل يستكشف بغداد من النافذة بينما اخذ مؤيد يحدثه بطريقة المرشد السياحي:

ـ الفندق بشارع الجمهورية.

ـ الشارع من اسمه يدل على رفعته وارتفاع السكن فيه.

ـ لا، هذا الشارع يتوسط بغداد اسمه يناقض ساكنيه، يمتد مثل ثعبان ضخم من باب المعظم وحتى منطقة الباب الشرقي فساحة التحرير، وعلى طول هذا الشارع تتوزع الفنادق والابنية الفقيرة، وعلى جانبيه بقديمها وحديثها، في بداية الشارع، وبعد اجتياز ساحة الميدان وعلى الجانب الأيمن بأمتار من ساحة المديرية، مديرية شرطة بغداد، يقع فندق البحري، وفي الجانب المقابل للفندق، يوجد هناك مرأب للسيارات والعربات التي تدفع باليد، مخصصة لنقل المواد إلى مكاتب النقليات والشحن البري، والفندق والشارع يفصلان بين محلتين شعبيتين، محلة الحيدر خانه خلف الفندق ومحلة الفضل أمام الفندق.

شعر عادل وهو لا يعرف شيئاً عن الاسماء التي ذكرها صديقه، أن بغداد مثل بحر كبير، وهو مثل سمكة زينة لم تعتدْ العيش إلّا في الاحواض، كيف سيتمكن من العيش فيها؟ حتما سيطفو على السطح أو يغرق في اعماق التيه، شعر أنه صوت الغرق إلّا أن البحارٌ لا تسمع صوت الغرقىٰ وأنه دموع أسماك الزينة، من يراها في سجن الماء؟.

وصلا إلى الفندق وهما يستطلعانه من الخارج، بدأ لهما شبه حديث، أُنشئَ بطريقة رتيبة، تميزه شرفاته التي تبرز بشكل هندسي إلى الأمام،

مثل مكعبات خلايا النحل، بلون زجاجها الأسود، لكنه رمم بطريقة سيئة بالإسمنت المنثور باللون الكركمي، مع بعض الزخرفات التي تحيط الشرفات باللون الأخضر الفاقع، فما أن وقعت عينا عادل على تلك الألوان غير المتناسقة، حتى تمنى إعادة طلائها بالوان أكثر تجانسا وهدوءاً، يحتوي الطابق الارضي على محلين، أحدهما لبيع المفروشات والسجاد، وآخر لبيع القرطاسية، يجاور باب الفندق الزجاجي المظلل باللون الجوزي، الذي كتب على بابه (أهلا ر سهلا) فالواو قد قطع رأسها وتحول جسدها إلى حرف الراء، انتبه عادل للواو، واحسَّ بأن هذا الحرف الذي كثرت استخداماته للعطف بحاجة للعطف، أنه يشبهه جسد بلا رأس، تقطع الافكار فيه قبل ولادتها، قد قطعوا راسه جوراً، نظر الى الواو وشعر بأنه صوت أمّه ساعة تغني(دللول يا الولد يا بني)، وساعة تبكي، وصوتها حين ينفذ صبرها، وهو صوت الفقراء والمحرومين والمظلومين، ثم تسأل ما فائدة أن يكون في داخلنا صوت لا يعوي كالذئب بالواو.

رحب رعد مدير الفندق بهما، واجلسهما في استقبال متواضع، مستطيل الشكل تنتهي ضلعا طوله بسلالم الدرج المفروش بالسجاد الاحمر المسود، بينما ينحصر هو بين ديكور مكتب خشبي بسيط وضع فوقه جهاز الهاتف، وخلفه ساعة جدارية بجانب تقويم وضع بشكل مائل يحمل صورة طفلة بعينين جميلتين تضع يدها تحت خدها كتب تحتها مصور مجدي، بدأ لهما مدير الفندق متوسط القامة بجسم ممتلئ، وكرش بارز إلى الأمام ،بوجه أحمر، وعينين عسليتين، وشعر ناعم غزا بعضه الشيبُ بشكل تدريجي، كلما انحنى على سجلاته يدوّن فيها برقت

له صلعة في أعلى رأسه، ترك مكانه واختار مقعدا مجاورا لمؤيد على الاريكة التي ملأت المستطيل الطولي للاستقبال، وهو يضع رِجْلاً على رجل، واضعاً يده اليسرى على فخذه، بينما الاخرى ترتب ياقة قميصه الأسود الحريري، بين مثلث بلوزته المارونية، وشرع يسرد لهما عن ما يمتاز به فندقه من هدوء ونظافة وخدمة وأثاث، مستشهدا بوجود طلبة نزلاء من كلية الطب كدليل على رقيه وتوافر أجواء هادئة لهم، واسهب يحدثهم بأن الفندق يتكون من طابقين، الطابق الاول خصص للسكن المؤقت من الوافدين لبغداد، من تجار المحافظات وغيرهم، بينما خصص الطابق الثاني لطلبة الكليات والمعاهد، كي يتجنب أية مشاكل محتملة بين الوافدين والطلبة، قاطعه عادل طالبا منه مشاهدة الغرفة، ثم خاطبه مؤيد:

ـ ياريت الغرفة شرفتها على الشارع.

فأومأ رعد برأسه، ورد بتملق:

ـ يدللون أهل الحلة.

بقبضة يده، وبحركة لولبية سريعة على مقبض الباب، فتح رعد الغرفة، وبنقرة على مفتاح الانارة الابيض الملطخ بأثار طلاء، من الجدران المطلية حديثا، كشف الضوء عن سريرين من الخشب الصاج، بفراش مضغوط، وشراشف بيض، وتقف في الزاوية خزانة ملابس حزينة بلون صاجي، بباب واحدة، وبقربها منضدة صغيرة، تجاور كرسي بمسند مصنوع من الحديد، ومبطن بالإسفنج، ومغطى بقماش شبه متهرئ، وبجانب باب الغرفة باب داخلية تقود إلى الحمام، أوضح

لهما رعد مشيرا إلى الباب، بأن الحمام معطل واستحمامهما سيكون في جناح الصحيات المشترك الخاص بالطابق، وأشار إلى امكانية استخدام الحمام مكانا للطبخ، الغرفة تنتهي بنافذة زجاجية كبيرة، تطل على شارع الجمهورية بباب وشرفة بينما تنسحب الستائر على الجانبين كأنها تستقبلهما بتودد، اتجه عادل صوبها ليستطلع المكان وهو يلقي نظرة على الشارع وسط أصوات منبهات السيارات وضجيج المارة، نظر الى البيوت المتزاحمة خلف المرآب الملاصق للشارع، كأنها مقبرة بسبب قدمها وانخفاضها، بينما اخذ يتخيل طيور الحمام التي ترفرف فوق المباني، بكثرتها وبدورانها، وكأنها ارواح ترقص فوق هذه المقبرة نهارا، لتعود ليلا لأجسادها.

بعدها عادا إلى استقبال الفندق، واتفقا مع رعد على أن يكون ايجار الغرفة خمسة وعشرين الف دينار شهريا، ثم خرجا ليتناولا الغداء، في كافتيريا تقع قرب تقاطع الرصافي، تتخذ من الرصيف مكانا لعربتها ومناضدها، فما أن جلسا حتى اخذ مؤيد يحدث (عادل) محذرا:

ـ أنت في مدينه أخرى، ستجد هنا كل شيء، لكن في المقابل احذر من كل شيء.

(4)

اخرج رعد سيجارته، لكن القداحة رفضت الانصياع لرغبته، رغم محاولاته لرج غازها الذي نفد، استسلم لها، وحشر سيجارته فوق اذنه، ليعدَّ مبلغ الخمسة والعشرين الف دينار مرةً أخرى، مسترخيا متعباً على كرسيه الأسود، وفي الاثناء دخل إلى الفندق طالبان يرغبان بالسكن صلاح من النجف، ونورس من الحلة، فاستقبلهما كعادته وطريقته في جذب الزبائن، وقبل خروجهما دفعا له الاجرة، ليطمئنا بأن أصبح لهما سكن، وليأتيا بأغراضهما بعد غدٍ، أحس بغبطة كبيرة، وقرر الذهاب إلى مطعم قريب للمشويات يطلب وجبة من الكباب، لكن كيف يخرج ويترك الفندق ونبيل لم يأتِ بعد، لم يكن لديه مساعد يعينه في ادارة فندقه، فقد اعتاد على الاستعانة بنبيل، النزيل الدائم عنده من سكنة محافظة البصرة، أكبر سنا من رعد قصيرا نحيلا شاحب اللون بملابس مهملة، وبنطال قذر وقميص استحال بياضه إلى سواد قاتم، يغطي ياقته المتهرئة سترة قديمة أقتناها من رعد، وجده رعد صادقاً اميناً طيب القلب لحد السذاجة، لا يهتم بالأشياء التي لا تعنيه، وشعاره دائما المثل الشعبي الدارج (الشهر اللي مالك بيه خبزه لاتعد أيامه) يعمل في محل تصليح الساعات في الشورجة، يسكن غرفة صغيرة تحت المصعد، لا تكفي إلّا لأغراضه، في حين ينام ليله على ارضية الاستقبال مجاور الاريكة التي تصدح بشخير رعد، لم يكن يدفع نبيل أي مبلغ، مقابل مساعدة

رعد في غيابه الوقتي والقصير عن الفندق، الذي تعود منذ اكثر من عشر سنوات على ادارته دون تعيين مساعد له، فهو بخيل جدا بمزاج غريب، وقد يكون مرض العقم هو سبب مزاجه السيء وانفعاله السريع، الفندق المخدع الذي يلتجئ إليه بعيدا عن بيته في شارع فلسطين، يذهب إليه في أوقات العصر ويعود بعد المغرب، هربا من ثرثرة زوجته ونحيبها، التي تقضي أوقاتها في البيت وحيدةً بأمنيات وصلوات ودعوات أن يملأ هذا البيت ضجيج طفل بهيج.

***

جاءت أم سهام صباحا كعادتها، توقظ رعد ونبيل من نومهما، لتنطلق مع ابنتها بخفه عجيبة ليلتمع الفندق بممسحتها، تسابق الريح في كسب قوتها، فهي تدخل شارع الجمهورية من الساعة السادسة صباحا لتخرج منه عند الثالثة عصرا، لم يكن فندق البحري الرزق الوحيد لها، فهي تقوم بتنظيف اكثر من فندق، تمتد من ساحة الوثبة وحتى ساحة الميدان، وكأنها تطير على ممسحتها مثل الساحرة الشريرة التي تتحدث عنها الاساطير، حتى أن (رعد) حين يراها ممسكة ممسحتها يصفها بالساحرة لأنفها الطويل وعينيها الذابلتين بشكلهما الدائري، ووجنتيها الزيتونيتين، ووجها النحيف الطويل، ولباسها الأسود، وخصل شعرها الابيض الخارج من فوق الاذنين، كلما دخلت صاح جاءت الساحرة الشريرة، بالإضافة إلى عملها في الفنادق، هي تكسب المال من النزلاء بطرق أخرى، يدفعها لذلك ضيق العيش وقله الاجر الذي تحصل عليه مقابل عملها، فدائما ما تتحدث عن زوجها لرعد او اي شخص تعرفه، بأنه أحد معاقي حرب الكويت، وما زاد الطين بلةً خمسة إولاد تكفلت

بقوتهم بعد عوقه، أكبرهم سهام صاحبة السادسة عشرة سمراء بقوائم رشيقة، وجسد شبه ممتلئ، بنهدين مكتنزين يبدوان أكبر من عمرها، ترافق أمّها اين ما حلت، ثم حياة اثنا عشر سنة التي تبقى في البيت تساعد أباها، وتعتني بأختها الصغيرة، وتنجز كل اعمال بيتهم الذي تصفه امها بكوخ من القصب يتوسط جزرة إحدى الشوارع، وبهاء تسع سنوات وعلاء سبع سنوات، وهما يبيعان السجائر في مرأب العلاوي، بينما الطفلة الاخيرة فاطمة التي لم تبلغ السنة من العمر، هي لا تمل من تكرار قصتها لكل من صادفها، كان رعد قريبا من معاناتها، كما هو قريب جدا من معاناة طلبة المحافظات، يستمع بعطف كبير لقصصهم، وهو يجالسهم ليلا في الاستقبال، فالبعض منهم يعمل بعد انتهاء الدوام، والبعض الاخر يعمل ايام العطل فقط، اما في المطاعم، أو في المصانع والمعامل، عادل اكثر الطلبة مكثاً في صالة الفندق حتى أصبحت علاقته به تختلف عن باقي الطلبة وصار رعد يرسله في جلب السجائر والشطائر في المقابل لم يبخل عليه بها، كثر اعتماده عليه وأصبح بديلا عن نبيل في حال تأخره أو سفره إلى البصرة، هذا الوجود الدائم كان سبباً ليلتقي بصلاح الطالب القادم من النجف حتى كبرت العلاقة بينهما وصار كثير التردد على غرفته.

***

شعر رعد أنه متعبٌ جداً وبحاجة إلى الراحة، فأبلغ (نبيل وعادل) أنه سيبيت الليلة في بيته، ثم ودعهما دون أن يترك لهما مجالا للسؤال، وانغمس في غيبوبة افكاره أثناء صعوده الباص متجها لباب المعظم، كيف صار العمر يصارعه، ووضعه الصحي بدأ يشعره بالقلق، هو بحاجة

للراحة كما أنه بحاجة ليكون قريبا من زوجته (كَولستان)، الوحيدة التي أصبحت رقما يضاف لجدران البيت الاربعة، والسقف الخامس، حتى تناست في أغلب الاحيان أنها جزءٌ من جدران غرفتها، التي شرعت تناديها بأسماء لا أحد يفهمها غيرها، فسمت الجدار الذي يحتوي على النافذة أمل، وسمت الذي يقع باتجاه القبلة ابتهال، اما الجدار الخلفي الذي دائما ما يكون خلفها فاسمته ذكرى، بينما سمت الجدار الذي يكون الباب جزءاً منه رعو، وتعني به رعد، اما السقف فأعطته اسم بشرى، التي تكثر من الحديث معها، أقامت علاقات حميمية معهم، تخاطبهم بأسمائهم، إلّا أن علاقتها مع بشرى اكثر حميمية، فهي تولي السقف هالة من القداسة، وكأنه جزءُ من السماء أو من الرب، أو هو المجيب الذي تدعوه ليأتي لها بالمستحيل، بطفلٍ يملأُ عليها غياب الأب، وكلما شعرت بالملل من جدرانها، هربت إلى حديقة البيت الصغيرة، تمارس الرياضة، وقراءة المجلات، التي دائما ما تتركها على أرجوحتها لقطرات الندى.

وصل رعد بأفكاره إلى المرآب، ليركب الباص الذي يصل به إلى البيت، اتخذ مقعداً بجانب امرأة، تضع في حضنها طفلا، فعاد به المشهد للتفكير بزوجته، كيف يستطيع احتواء حزنها وكآبتها؟ فهو لا يطيق اتصالاتها الكثيرة على هاتف الفندق، ولا تذمرها المستمر، حتى أنه تعود غلق الاتصال بالصياح والسب والشتم.

مد رجليه يسند رأسه المتعب على يده التي داعبها زفير حسراته، يفكر كيف سيقضي هذه الليلة معها؟ هل سيتحمل بكاءها الحار ونحيبَها الشجي؟ تذكر أنه سبب معاناتها، فهو لا يستطيع تحقيق أبسط امنياتها،

طفلٌ واحدٌ كل امنياتها، يجمعهما معا، طفق يعزي نفسه محدثها: سنون طوال وهذا الحرمان، ما طعم الحياة وما لذتها وأنت تقتل عمرك في العمل بعيدا عن امرأة نصف مجنونة، فهو رغم صفاته السيئة، طيب القلب، يشعر بمعاناة زوجته، لكنه عجز عن الوصول لحل، راجع أشهر الاطباء واشهر العرافين وزار جميع المراقد والمزارات وأوفى بكل النذور، إلّا أن الاطباء قتلوا كل أحلامه باستحالة أن يكون له طفل، طفق ينظر للطفل الذي بادله نظرات باسمة ثم يدفن راسه خجلا في حضن امه، ابتسم له واستأذن امه:

ـ أتسمحين لي؟

ـ بكل سرور

وضع الطفل في حضنه، واخذ يمسد على شعره ثم حدثه:

ـ ما تخاف مني؟

اجابت امه وكأن السؤال موجه لها:

ـ سعيد بك، لأن لا يملك اب.

صدمه كلامها، وهزه شعور من الحزن حتى شعر بألم في معدته ثم سألها؟

ـ اين ابوه؟

ـ استشهد في الحرب.

صمت ولا يدري ماذا يرد، وتمنى لو انه لم يحدثها، اعاد الطفل

الى امه واخذ يفكر مع نفسه: اب بلا طفل، طفل بلا اب، هكذا يوهمنا الوجود أنه عادل!

وصل إلى البيت هذه المرة بشكل مختلف، فرحت كَولستان لأنه اخبرها بنيته المبيت هذه الليلة، استمر الوضع هادئاً ما خلا توتر بسيط نشأ بسبب فكرة طرحتها لتبنّي طفل، سعد الاثنان بليلة هانئة مختلفة، أرجعتهما إلى ذكريات لقائهما الاول وزواجهما، حين أحبها في الجامعة، تلك الشابة التركمانية القادمة من محافظة كركوك، والتي لم تشغله فقط، بل شغلت طلبة كليتها، بجمالها، وهدوئها، واتزانها، بلون شعرها الكستنائي المجدول، والمتدلي على ارادفها مثل شلال ينساب بين قمتين، وكأنه يسابق طولها الرشيق المفعم بالأنوثة، ببشرتها التي تبدو في الظل حنطية وتحت أشعة الشمس بيضاءَ، كأنها تحمل ميزة، تختلف بها عن باقي النساء، برموش طويلة، ومقوسة، تعتلي عينين عسليتين تحملان بريقاً، يجبرانك على الركوع والصلاة، وكأنك في محراب إله، أو مزارٍ مقدسٍ، من يقترب منها يشعر بأن قلبه يخشع، وروحه تذوب، وعينيه تترقرقان بالدمع، امتازت بتفوقها على جميع زملائها في دروسها، فاكتسبت بينهم اسماء والقاباً كثيرةً (الفراشة، وأم كَصيبة، وأم لونين) وغيرها من الالقاب، التي تدل على فتنتها.

نام رعد نومة طويلة، لم يستيقظ إلّا عند وقت العصر، مودعا زوجته، متجها نحو الشارع، منتظرا رحمة الباص، لتنقله إلى باب المعظم، ركب الباصِ لينغمس من جديد منهمكا بالتفكير، يسال نفسه: لمَ لا يكون لي ابن فأُسميه يحيى؟ ابتسم لهذا الاسم وهو يتخيل الجميع يناديه (أبو يحيى)، يكبر ويكمل دراسته، يخرج معه أين ما ذهب، يستلم العمل بدلا

عنه، سرح بعيدا مع ابنه المفترض يحيى، ولم يشعر بتوقف الباص داخل المرآب، ولا بنزول الركاب، إلّا بعد أن صاح به السائق لينزل، نزل مع ما تبقى له من حلم جميل، وهو يعيد قميصه إلى داخل بنطلونه، بطريقة اعتاد القيام بها باستمرار، متلمسا جيبه الخلفي، إلّا أنه تفاجأ بعدم وجود حافظة نقوده، عاد مسرعا إلى الباص التي لازال بابها مفتوحاً، بحث فوق المقاعد وتحتها فلم يجد إلّا نفايات، واعقاب سجائر، وقشور حب عباد الشمس، ندب حظه يسب ويشتم مجتمعه، المسافة من باب المعظم للفندق لم تك بعيدة إلّا عليه، فلم يجرب ولو لمرة واحدة الذهاب مشياً، لكن اليوم وهو بدون نقود، خارج كل الخيارات، وعليه تجربة المشي لمسافة ما يقارب الكيلومتر.

ما حصل عليه من راحة في ليلة امس مع زوجته، وما جرى له من سرقة في الباص جعله يفكر بتشغيل عادل معه، فمن الممكن أن يعمل معه مقابل اعفائه من اجور السكن، قرر مفاتحته بالموضوع ساعة يكون الوقت مناسبا.

(5)

أرصفة شاحبة تبيع كفوف أطفال تنادي على الجوع:تعال وقل للقادمين هذه افواه ضاحكة، قمصان جفّت على مواسم الفقر ومازالت تبيع ازرارها! عربات من البخار تردد تحايا الصباح ثم تتعثر ببهجة المساء، سرب من الظلام له ظل يشبه لباس عجوز تشتري الضوء من المقابر يجوب الليل بصفير يصغي لرنينه، رجل يغني في اخر ركن من الضياع يتمرجح بحبل يسقط من السماء ويصرخ حفيده: أنه يتبخر، البيوت تنتظر كذبة الفجر لتلملم جدرانها لترتبها بشكل دقيق ثم تحزمها قرب أول مصباح ينطفئ، أو تحت اخر عمود يزوع النهار، هذه المدينة لازال سكانها يسافرون بالسحب، سحب تأخذ منهم واخرى تأتي لهم بالغرباء، ولازالوا يثقون بالرياح اكثر من ساعاتهم الالكترونية، كلما تأخر سفرهم تجمعوا بين الاقواس، كيف تفرق الرياح بين السيوف والاقواس؟ هذا ما يجوب في رأسه وهو ينتقل داخل الباص من مكان الى اخر جالسا جنب مؤيد الكثير الصمت، وهما يتوجهان الى المعهد.

مرت اسابيع من الدوام الرتيب بالمعهد، يخرج صباحا مع مؤيد والكتب والناي الذي اشتراه بمساعدة مؤيد الذي سلفه المبلغ، وبعد انتهاء المحاضرات، تذكر اللوحة التي شاهدها سابقا على جدار المعهد، وبدت حرارته ترتفع ويتصبب عرقا، فقرر الذهاب عند لوحة الاعلانات

ليراها من جديد ويتأملها، وعند وصوله قريبا منها، ازدادت حرارته واخذ يتصبب عرقا اكثر، فتفاجأ بطالبة تنتزعها من الجدار، شعر بالسخط وتقدم نحوها مسرعا كأنه يريد منعها:

ـ عفوا لماذا تنزعينها؟

لم تلتفت اليه وانما انزلتها ارضا وهي تتهيأ لحملها، فكرر سؤاله:

ـ لماذا تنزعينها؟

اجابت غير مكترثة، ودون ان تلتفت اليه:

ـ كي لا ينجو أُحد من الغرق.

ثم تأبطتها وتلاشت، بينما هو بقيّ واقفا ينظر مكان اللوحة، وكأنها تركت اثارها على الجدار، تذكر الثعبان واستشعر نظرات السمكة، وهو يسمع صوت امواج البحر التي تحيطها.

***

مر شهر وهو يفكر في بلقيس ويتمنى ان يلتقيها، حدث عنها (مؤيد) وهما يسيران باتجاه النادي بعد ان اكملا حصصهم الدراسية اليومية، ضحك مؤيد كثيرا وهو يستمع لقصته مع اللوحة وحدثه وهما يجلسان على احدى طاولات النادي:

ـ لا تصير ساذج.

ثم نهض ليجلب شطائر الفلافل، بينما اخذ عادل يكتشف النادي، الطاولات ملأى بالاحاديث والدخان والضحكات، فكر بهؤلاء الطلبة

فرغم ما يمر به بلدهم من حصار وجوع وحروب وظلم، الا انهم حين يتجالسون ينسون كل تلك الاوجاع، بل تصبح هذه الاوجاع مادة دسمة للفكاهة والطرفة، قد يكون احتجاجا مبطنا بدوافع نفسية تراكمت بسبب عدم امكانية البوح بها، وأنهم يستخدمونها كمقاومة للقلق والاكتئاب والغضب، وهو سعي غريزي لرفع الكبت والتخلص من الشحنات السلبية الزائدة، وان كان الحصار يحب المزاح، هل الشعب مستعد لهذا المزاح؟ كانت رائحة الفلافل تملأ المكان لقرب مكان السندويشات من الجالسين، اخذ ينتقل بعينه من طاولة إلى اخرى، في حين بدت حرارته ترتفع وصار يتصبب عرقا وشعر بدوار شديد، حتى وقعت عيناه على الطالبة التي راها قبل مدة تنتزع اللوحة، جالسة لوحدها وهي تضع على طاولتها حقيبتها ومجموعة من الكتب، نهض من مكانه ليقترب منها بخطوات مترددة وخجولة، في حين بدت له ساكنة تنظر امامها الى لا شيء كأنها تمارس رياضة اليوغا، ترتدي نظارة طبية كبيرة تخفي نصف وجها النحيف، اخذ يكتشفها وهو يقترب منها اكثر، فتاة عادية وبسيطة، لاتضع أي شيء من الميك اب، تربط شعرها برباطة مطاطية زرقاء وهي ترتبه بسذاجة، كأنها تسرحه تسريحة منزلية، شعر انها مجنونة، بدأ يشك بأنها نفسها الفتاة التي كانت تأتيه بالأحلام، لماذا تغمض عينيها بهذه الطريقة؟ ولماذا تنظر صامتة الى لا شيء؟ لماذا لم تشعر به وقد اصبح بقربها؟ تردد وفكر الرجوع إلى مكانه، لكنه اصبح محرجا وقد التصق بطاولتها، فحدثها:

ـ مرحبا بلقيس

التفت نحوه بنظرة طويلة ثم اجابت:

ـ جئت تسالني عن اللوحة؟

زاد ارتباكه واستغرب كيف عرفت ذلك ثم اجاب:

ـ صح، تذكرينني؟

نظرت إليه باسمة واردفت:

ـ اتذكرك حين وقفت خلفي وانا انتزع اللوحة، كيف عرفت انا بلقيس؟ يبدو انك قرأت الاسم في اللوحة.

ـ صح عاشت الاسامي، انت لم تلتفتي نحوي، كيف عرفتني؟

ـ انا رسامة، من الصوت اصنع لوحة، ومن اللوحة اصنع صوتا.

ـ هل سأبقى واقفا وانا احدثك.

قالها بعد ان شعر بالأحراج وهو يعتقد ان الجالسين على الطاولات القريبة يراقبونه، فردت وهي تعدل من جلستها:

ـ عفوا، تفضل انا اسفة.

سحب كرسيا وجلس قبالتها وسألها وهو يشبك اصابع يديه في بعضها فوق الطاولة:

ـ لماذا انتزعتِ اللوحة؟

ـ اجبتك سابقا؟

ـ وهل استوعبت اللوحة حتى استوعب جوابك؟

نظرت إليه بتركيز لمدة طويلة اشعرته بالأحراج فخاطبها بعد ان مسح

بيده وجهه:

ـ عفوا هل من شيء؟

ـ هل جربت أن تكون رساما؟

ـ لا، اتعلم الموسيقى، طالب موسيقى مرحلة اولى، لماذا تحبين الرسم؟

ـ الرسم امتحان يزداد تعقيدا بشكل صارخ وتكثر الاسئلة فيه كلما كبر الالم في داخلنا، إلا تحب الرسم؟

ـ لا ادري، لكني احببت لوحتك.

ـ يا ليتك لم تحبها.

ـ لمَ؟

ـ هناك اشياء حين تعرفها ستتألم كثيرا، فيكون الجهل بها افضل، الجهل يجعلك سعيدا، اكثر السعداء في الحياة هم الجهلاء، احيانا اشعر أن من الخطأ ان نتعلم الصح.

لم يستوعب كلامها لكنه اعجب به، وتظاهر بالفهم وهو يومئ براسه ليتدارك هذا الاحراج وعاد ليسألها عن اللوحة:

ـ كيف ينقذ الثعبان السمكة من الغرق؟

ـ الاسماك تتوهم الغرق.

نظر إليها وشعر انه يضيع وقته مع مجنونة، بينما هي تدرك انه لم يستوعب كلامها فأردفت:

ـ نحن في وجود يشبه البحر نعيش فيه مثل أسماك خائفة، تظن أنها تغرق فتحتاجُ إلى الهرب من غرقها، لحظةَ خروجها تجد الثعابين تَجْرِشُ أنيابها والطيور شاهرةً براثنها، كذلك نحن قفزنا على وجودنا الجميل وتوسلنا برجال اتفقوا على قتلنا واختلفوا على سرقتنا، ورجال اخرون اتفقوا على قتلنا واختلفوا على تاريخنا، فامتدت نحونا الكفوف والفكوك فمنحناها انفسنا متوهمين أنها تنقذنا من موروثات الغرق التي لا اساس لها، فافسدوا الوجود رغم اعتقادنا بأنهم ضرورةٌ لاستمرار الحياة والحفاظ عليها.

ـ من تقصدين بصنفي الرجال الذين ذكرتِهم؟

نظرت حولها كأنما تطمئن ان احدا لا يراقبهم، واشارت توصف له دون ان تتحدث، ففهم عادل ان الصنف الاول هم رجال السلطة، اما الصنف الثاني فهم رجال الدين المؤيدون لهم، ثم اكملت حديثها:

ـ نحن مثل الاسماك توهمنا الغرق حتى غرقنا، لكننا لازلنا فوق الغرق.

ـ الصراحة كلامك اصعب من لوحتك.

تنهدت ورفعت يديها الى حدود عنقها وكأنها ترسم له امواجا واخذت تشرح له:

ـ حين يغرق جسدك في الجوع والحرمان والفقر والذل والظلم، وانت تنظر إليه دون أن تفعل شيئا تصبح فوق الغرق، تخيل ان رأسك يفكر في انقاذ جسدك، لكنه لا يفعل أي شيء، هكذا نحن نعيش مرحلة

فوق الغرق، انك لا تغرق للابد ولو غرقت مرة واحدة لكان افضل، نحن نتعذب بالغرق، نغرق الف مرة دون ان نموت، كلما وصلنا للموت اخرجونا من الماء، ورمونا على ساحل الانتظار لمدة قصيرة تحسب بالأنفاس، ثم يعودون بنا إليه، اتعلم أنني افضل الغطس في لوحاتي المائية اكثر من أن اغرق في هذا الوجود التافه.

ثم انتبهت الى صمته، وهي تعلم انه صمت اجباري لعدم ادراك الحديث، فخاطبته باسمة:

ـ يا صديقي اعلم انك لا تدرك شيئا مما اقول، فمن يمكنه ادراك الغرق في الحقيقة يدرك اللانهاية، انه الايمان بتقارب الغرق والوهم، وهذا الايمان هو من يحدد موقفك المعتد بك، فالخطر المهدد هو في الوقت نفسه المنقذ، ان القانون الداخلي للطبيعة، يتناسب مع قانوننا الداخلي.

انشغل عادل يفكر بكلامها، وشعر أن الغرق يشبه رجلا عملاقا ازرق اللون يمتلك فما كبيرا يبتلع ما يشتهي، وشعر أن هناك من يتفرج مستمتعا بغرقنا، نهضت وهي تخاطبه:

ـ اعتقد ان صديقك يبحث عنك، انا ايضا عليّ الذهاب، ثم فتحت حقيبتها واخرجت منها قلادة على شكل سمكة لضمت من الخرز الناعم الازرق وقدمتها له وقالت:

ـ خذها لقد صنعتها بنفسي، فرصة سعيدة.

تسمر في مكانه وهو يتابع خطواتها تختفي بعيداً عنه وكأنها تلاشت

في المسافة التي امامه، لكنه لازال يراها بقربه، لا يدري هل هي التي ذهبت وتركت جزءاً منها او ظلها بمكانها، أم انه توهم ذهابها.

عاد مؤيد ليجد صديقه غائبا عن وعيه، سكب على وجهه الماء، فزَّ وشرع يصرخ مثل مجنون:

ـ اين القلادة؟ القلادة .. القلادة.. القلادة.

انتبه الى وجودها مبللة في كفه، تفحصها واخفاها في جيبه.

(6)

حاملا آلة الناي بيده، وهو يتجه صوب غرفة صلاح، فرح كثيرا حين وجده لوحده فيها، بعد أن علم منه بسفر نورس إلى الحلة، فتحول الحديث عنه، صارحه بأنه لا يوده كثيرا، فأعقبه صلاح وهو يضع ابريق الشاي على السخان الكهربائي، بأنه على خلاف معه، وقد تشاجرا اكثر من مره.

عادل احب (صلاح) كثيرا، هذا الشاب القروي الذي يحمل عنبر مشخاب محافظة النجف، طويل نحيف بصدر عريض، لم يكن وسيما إلّا أن ملامحه توحي بالوسامة بمظهره الجذّاب، وبياض بشرته الناصع وابتسامته التي لا تفارق محياه، وروحه الشفافة المحببة إلى الجميع، بأنف كبير يتسع ويرتفع تدريجيا كلما اقترب من الفم، حتى يخيل إليك أنه ليس جزءا من وجهه، وكأنه طفلُ يلتصق بظهر امه، حتى أن والده دائما ما يصف انفه بـ(الانف الخنزيري)، وما يجعله اكثر نشازا عينان صغيرتان، يحيطهما اجفان حمر، ورموش غير ظاهرة، لكن لونهما البني المائل للأصفر يعطيهما القاً، يميزه شعره الطويل، الذي يطلقه حتى يكاد يخفي رقبته، ذو شخصيه حالمة، حساسة ولا مبالية، وهو متقلب الارادة والمزاج، رومانسي هادئ يعشق الموسيقى والشعر، في اللحظة التي تعرف فيها على عادل ومؤيد شعر بسعادة كبيرة، حين علم أنهما طالبان

في قسم الموسيقى، قص صلاح عليهما في اول لقاء جمعه بهما، أنه أراد دخول كلية الفنون، لكن والده شيخ العشيرة المتشدد بتطبيق سنن العشيرة وتعاليم دينه، رفض دخوله لها، وهو يتوعده، اذا اراد دخول كلية الرقص فعليه ان يخرج من البيت دون رجعة، حينها وقفت ارادة أبيه حجر عثرة أمام احلامه، فكان قبوله في كلية الآداب جامعة الكوفة مخيباً لآماله، لذا قرر التقديم للدراسات المسائية في الجامعة المستنصرية، وتم قبوله في كلية الآداب قسم علم النفس، فالاهم لديه الهرب من الحقول المكتظة بالألم، والابتعاد عن معاناته في البيت وعن تعقيدات مدينته، التي لم يحبها يوما بسبب ما تمثله عاداتها وتقاليدها من قيود تقف في وجه رغباته المتعددة، هو دائم الترديد: أنا من مدينة لا تشبهني.

في العاصمة سيكون بعيدا عن معاناته النفسية، حرمانه من امه التي توفت وهو في الخامسة من عمره، جعله يبحث دائما عن صدرٍ يحتضنه، عن مكان يبعده عن ذكريات مؤلمة وطفولة عذبة، عاش معاناة وهو يشاهد الامهات تنادي على اطفالهن وقت تناول الغداء حين يكونون في اللعب، بينما هو لا احد ينادي عليه، كان يهرب الى مكان بعيد عن الجميع ليخفي دموعه، اصبح لا يطيق البيت كلما شاهد زوجة ابيه وهي تحتضن اطفالها، اصبح يكره اباهُ بعد ان حدثتهُ خالته أنه سبب موتها، عاش حياة انطوائية، حياته عبارة عن تلفاز، وكتب دراسية، ومجلات رياضية، وأشرطة غنائية لمطربيه المفضلين، يستمع إليهم في جهاز المسجل الذي يتواجد حصرا في غرفة أبيه، يستمع فيه في حال عدم تواجده في البيت، فاغلب أوقاته يكون في مضيف العشيرة، المشيد من القصب والبردي، منع عليه والده سماع الاغاني، ولو وقعت تلك الاشرطة في

يده، لكان مصيرها موقد النار الذي تنتصب عليه دلال القهوة، تأثر كثيرا بما يشاهده من أفلام ومسلسلات، وتمنى أن تكون له حبيبة يأخذها على ساحل بحر أحلامه، يغني لها، ويرقص على ضفاف أمواجها، يمتطى معها حلماً أبيضَ يسابق به أمواج الحرمان، وهي تمسك خصره بشعرها الذي تعزف عليه الرياح المبتلة بعطرها، لذا اجتهد كثيرا لينتقل إلى إحدى جامعات العاصمة بغداد، فقبلَّ في الجامعة المستنصرية.

نظر صلاح للناي نظرة فرحة وشرع يأخذه من عادل ليجرب ينفخ به وهو لا يستطيع ان يغلق فمه فرحاً، وحين فشل في اخراج صوت، شعر أنه ليس بتلك السهولة التي يعتقدها حين كان يشاهد العازفين، اعاده لعادل الذي امسكه وطفق ينفخ فيه معزوفة لأغنية أم كلثوم (سيرة الحب) بينما صلاح ينصت مراقبا طريقته بالعزف، مستشعرا عدم حرفيته في العزف لقصر المدة التي دخل فيها المعهد، لكنه استلذ بلحن الاغنية، ترك نايه جانبا حين قدم له صلاح الشاي ليتلذذ به، وانتبه لصديقه الذي سرح بأفكاره فايقظه:

ـ هـــــــــــيي، أين سرحت؟

ـ لاشي، الناي يقلب المواجع.

ـ كم سنة انت في بغداد؟

ـ سنتين.

ـ اووووه، سنتين كثير في هذا الفندق.

ـ لم اقضها هنا، كنت اسكن في الاقسام الداخلية.

ـ لماذا تركتها؟

أخذ صلاح رشفة شاي وهو يضع القدح على المنضدة ثم احتضن الوسادة وتذكر فلورا واردف:

ـ لا تهتم اكمل العزف .

عاد عادل لنايه واخذ يعزف بينما سرح صلاح يتذكر الايام الاولى للأقسام الداخلية التابعة للجامعة، والواقعة في شارع فلسطين قرب القناة باتجاه منطقة الطالبية، تذكر حين وصل الى المجمع السكني الكبير الذي يضم اكثر من بناية، كل واحدة تحتوي ثلاثة طوابق عائدة لكلية محددة، وبعد دخوله أبلغ أن سكنه سيكون داخل بناية الآداب في الطابق الارضي غرفة رقم (6)، وحين دخل الغرفة استقبله أربعة طلاب من محافظات مختلفة، ببرود مستغربين اضافته لغرفتهم التي لا تستوعب اكثر من اربعة، شعر بانزعاج كبير من استقبالهم البارد، وانزعج لانهم يكبرونه عمرا ودراسة، لم يعجبه الوضع العام للغرفة، ولا السخان الكهربائي الصغير المخصص للطبخ (الهيتر)، ولا اواني الطعام المتناثرة قرب مكان النوم، ولا ترتيب الأسِرّة التي لم يكنْ له منها حصة، فافترش الارض، لان حجم الغرفة لا يتسع لأضافه سرير خامس، لكنه عاش جزءا من هذه الفوضى.

دخل مؤيد ليقطع عزف عادل وهو يطلب منه مفتاح غرفتهما، فاستأذنه عادل ليذهب معه، اخذ صلاح يسرح شعره بأصابعه، وعاد ليتذكر فلورا التي لمحها تقف في باب القاعة المخصصة للمحاضرات في اول ايام المرحلة الدراسية الثالثة له، اصيب بإحساس حين التقت عيناهما صدفة لتبادله ابتسامة عفوية، بعد تلك الابتسامة حلم ان يجدها كل يوم بهذا المكان لكن مرت عشرة ايام ولم يشاهدها رغم انه لم يفارق باب القاعة

طيلة الايام العشرة، حتى اصابه اليأس وشعر بإحباط شديد فهو لم يفلح بعلاقة عاطفية داخل الجامعة طيلة السنتين الماضيتين، ولكن الصدفة كانت على موعدٍ اخر معه ليلمحها تسير في الممر الرئيسي للجامعة اثناء ما كان جالسا في فناء كلية الآداب، وهي تسير وسط الطلبة بهدوء، انطلق خلفها دون ان يعرف ماذا يريد ان يصنع معها، واخذ يتبعها لاهثا ونبضات قلبه تتسارع، وحين اقترب منها قرر محادثتها وهي متجهة صوب قسم الترجمة المنعزل كبناية مستقلة خلف بناية كلية الآداب التابع لها، لتتجه صوب طالب قبيح الشكل، بدين بملابس غير منسقة كان ينتظرها، فتوقف واخذ يراقبهما من بعيد وهما يتحدثان بطريقة اوحت له انها على علاقة عاطفية معه، فتركهما وعاد حزينا، حاول كثيرا ان ينساها لكن الظروف اقوى منه، فحين عاد الى الاقسام الداخلية مكتئبا تفاجأ بوجد الطالب الذي كان ينتظرها كزميل له فيها، واخذ يجمع عنه المعلومات ليستغرب انه المشرف المسؤول عن البناية واسمه (حسن الحوراني) طالب لغة انكليزية من مدينة الكوت، رفيق في حزب البعث بدرجة نصير متقدم، لم يحبه الطلبة حسب ما روى له احد زملائه في الغرفة وأن شخصيته مقرفة ومتناقضة، ويتظاهر بالطيبة والعفة والتدين،، كريه الرائحة، وان صوته اقبح من شكله، قليل الوجود في البناية.

شعر صلاح بضيق في صدره وخرج الى الشرفة واخذ يتنفس نسيم الهواء وهو يفتح ذراعيه وكأنه يريد ان يطرد ذكرياته بالهواء الذي يدخل صدره، لكنه عاد ليتذكر ذلك اليوم الذي كان جالسا فيه مع احد زملائه بعد مدة اسبوع من حادثة لقائها بحسن الحوراني، حين جاءت نحوه مبتسمة وهي تمد يدها له لتصافحه، صافحها مرتبكا بأطراف اصابعه دون قصد، ثم خاطبته:

ـ هلو، عفوا اختي موجودة؟

ـ أأأأأأأختك؟

ـ اي، انا فلورا اخت سارة.

ـ سارة اختك؟ اهلا وسهلا.

ثم قادها نحو القاعة بحثا عن سارة، وحين لم يجدها طلبت منه ان يذهب معها الى النادي لاعتقادها انها هناك، سارا معا واخذ يكتشفها أكثر جمالا وهو يتفحصها بقربه، تذوب خجلا بوجه مستدير وخدين مكتنزين بلون الجوري الابيض المائل للوردي الفاتح، وشفتين من الكرز مخضبتين، منح القميص الأبيض البسيط نهديها المختفيين خلف حمالاتها السود إثارة، وخيل اليّه أنهما ظل نهدين لامرأة عارية يسقطان على حائط أبيض، بينما تنورتها الرصاصية اللون تظهر الاستدارة السحرية لخصرها، وهي تطوقه بأحكام تبزر تضاريس أنوثة ردفيها، ثم تتسع شيئا فشيئا حتى تنتهي لقدميها اللتين يلتمعان على ضوء الشمس، طغت أنوثتها على ملابسها البسيطة، راحا مثل تائهين يقطعان المسافة الى النادي، شعر قربها أن روحه تذوب عند المسافة التي تفصل بينه وبين عينيها اللوزيتين، اللتين تنظران إليه نظرة اعجاب، كان يسمع حين تنظر إليه، صوت يشبه صوت النسيم حين يداعب السنابل في مدينته المشخاب، تعثر كثيرا في خطواته وتلعثم في كلماته.

بحثا عن سارة ولم يجدها، فاقترحت عليه الجلوس على احدى الطاولات، كان جو النادي مذهلا بفخامته وطوابقه وأناقة طاولاته، وصوت هيثم يوسف الذي اضاف للمكان هدوءاً ورومانسية خاصة وهو يغني « ذوبت كَلبي بمحبتك»، استأذنها ليجلب العصير، وحين عاد

بقدحي عصير تفاجأ بعدم وجودها على الطاولة، وليبصرها تخرج من النادي بصحبة حسن الحوراني، جلس على الطاولة واخذ يشرب قدحي العصير الواحد تلو الاخر، وليكتشف وجود قصاصة ورق على الطاولة كتب فيها «I'm sorry I'll be with you later»

امسك الورقة واخذ يدعكها بيده ثم رماها ارضا وخرج.

(7)

جلس عادل مبكرا مبتهجا بعمله الذي حصل عليه مقابل إعفائه من أجور السكن بالإضافة إلى وجبات الطعام والسجائر هكذا تم الاتفاق، شعر أنه يخوض تجربة متعبة لكنها تعود عليه بفائدة كبيرة، يستيقظ باكراً يعمل من الصباح حتى وقت الظهر، ثم يذهب إلى المعهد يكمل دروسه ويعود ليستأنف عمله بالفندق حتى ساعات متأخرة، لكن التفكير بعد كل يوم لم يترك له إلّا الأرق، يطفئ أضواء الاستقبال ليترك شريط المصابيح الصغير الاحمر قرب الباب، يستعيد شريط يومه وهو مستلقٍ على الاريكة قبل نومه، كأنه يشاهد عرضاً سينمائياً أمامه يجسد يوما انقضى من حياته، شعر أنه الجالس على مقاعد المتفرجين وهو البطل الذي تتابعه العيون من حوله، وفي نفس الوقت يتعاطف ويذرف الدموع على نفسه، لم يكن الممثل الوحيد في الفلم، يشاركه نحسه وحظه العاثر، كلما وضع رأسه على الوسادة ركب سيارة الأرق وهي تنتقل به من فكرة إلى أخرى، مرة يتذكر شهد ومرة بلقيس التي يشعر اتجاهها بإحساس غريب ومختلف عن احساسه اتجاه باقي النساء، لم يكن نفس احساسه نحو شهد، ولم يكن نفس التفكير اتجاه ام سهام عاملة الفندق التي كلما تمدد في فراشه فكر بطريقة ليغويها على مضاجعته، حتى يستسلم للنوم.

كل صباح يوقظه رعد بطرق عنيف ومتواصل على باب الفندق،

ينهض ليفتح له الباب قبل فتح عينيه، دون أن يسال من الطارق؟ لأن الطرقات انطبعت في ذهنه مثل دبكة مزعجة على دف لشخص غير محترف، ليدخل بوجه عبوس يوقظ (نبيل)، ثم تأتي أم سهام مع ابنتها بعد قدومه بمدة قصيرة، فتتجه لإنجاز عملها بسرعة عجيبة، مع ابنتها سهام التي اخذت تشاكس (صلاح)، صعدت في إحدى الصباحات إلى الطابق الثاني لتصادفه خارجا من الحمامات لتتعمد الاحتكاك به، لم تكن المرة الاولى التي تبين له اهتمامَها به، كل ذلك شجعه لدعوتها لغرفته بحجة أخذ الملابس لغسلها، اتجه نحوها حين كانت منحنية ومنشغلة بتنظيف الممر، خاطبها يطلب منها اخذ ملابسه لغسلها، ابتسمت له ابتسامة ماكرة، ووعدته بالقدوم بعد اكمال تنظيف الغرف، دخل الغرفة واخذ يستعد لقدومها، لم تتأخر، دخلت عليه وهو مستلقٍ على سريره يرتدي فانيلة وسروالاً قصيرا، قفز من فراشه يداري ارتباكه، وقفت عند الباب بعد اغلاقه وهي تضع كفها بباطن أخرى لتخاطبه مطرقة رأسها:

ـ جئت أخذ الملابس؟

ـ تفضلي.

اتجه نحوها يتفحص طولها الرشيق وخصرها المنحوت بدقة متناهية مثل أيقونة، بنهدين بارزين بشكل أفقي كأنهما صبيان يقفان على حافة العبور بانتظار توقف العالم، يتحركان مع حركة الشهيق والزفير في جسدها الذي رسمت تفاصيله الجبة السوداء التي تلتصق عليه بشكل دقيق، في حين ينام على رأسها ايشارب مرتبك تتدلى منه خصلات شعرها، لم تنبس ببنت شفة سوى نسمات من الدفء بين شفتيها، فاخذ

يخلع فانيلته بحركة بطيئة أمامها، بينما يزداد انحناؤها خجلا مصطنعا، تقدم نحوها وهو يمدها بالفانيلة وحدثها:

ـ هذه تحتاج غسل يدك الشفافة.

لكنها لازالت مطرقة رأسها، صمتها الخجل يزيده شجاعة ليتجرأ أكثر بخلع سراويله ليقف عاريا أمامها، رفعت عينيها لتسرق نظرة إلى وتده المنتصب دون أن تشعره بذلك، تقدم نحوها لينتزع الايشارب ثم لفه على شكل حبل يطوق به خصرها، يسحبها إلى جسده مطبقا شفتيه على شفتيها، شعرت بكهرباء تغزو جسدها وهو يقبل شفتيها وعنقها وشعرت بوتده يخترق وسطها، وهو يقشر ملابسها، ويتفحص تفاصيلها بينما هي واقفة كالمسمار، مغمضة العينين مستسلمة له، هبط نازلا إلى نهديها وهو يمرر كفه على مساميرهن المتحجرة، اغمض عينيه وهو يلتهمهما مثل ذئب جائع حتى بدت تصرخ من وحشية اسنانه، يداعبها بعصبية وفوضى واستعجال مندفعا إلى وسطها، شعرت وهو ينتقل بين تضاريسها بدوار لذيذ، وأنها ستسقط إلى الارض، ما أن وصل ساقيها هابطا بمنطاد القبل حتى عاد يشمها متسلقا، هناك عطرٌ يقوده إلى مكان خارج وعيه، احتضنها بقوة وهو يكورها بين جسده لتهوي بين يديه ارضا، هبط فوقها لتتصارع شفتاهما ويداهما وساقاهما اللتان يكادان يلامسان الباب الذي كتم تأوهاتهما، توقفت حركته بسكون ما خلا حركة دقات قلبه، وشعرت وهو مازال فوقها بوزنه يزداد فدفعته بيديها الصغيرتين، وهي تسحب خصلات شعرها الملتصقة بشفتيه، نهض يبحث عن سرواله متجها إلى خزانة ملابسه مخرجا من جيب قميصه المعلق ألف وخمسمائة دينار، في الوقت الذي انشغلت بارتداء ملابسها، ثم وضع المبلغ بيدها وهي مازالت مطرقة رأسها لتخرج مسرعة.

القى بجسده فوق السرير وهو يتفحصه بشعور غريب، ثم أغمض عينيه لدقائق حتى أفزعته طرقات متتالية على الباب، نهض ليجد أم سهام بوجهها الذابل الذي يوحي بتعرضه لأكثر من حادثة احتراق، بينما البقع الزرقاء الداكنة تعتلي خدودها المقعرة، تفرست فيه دون أن تنبس بكلمة! حاول تحريك شفتيه ليسألها عما تريد، لكنه شعر بثقل لسانه وهو يبتلع ريقه ويتلعثم مرتبكا ومتحدثا بصعوبة:

ـ خير أم سهام؟

ـ ان شاء الله خير، ندخل للغرفة ونتفاهم.

ـ لحظة البس ملابسي.

لم تمهله أن يرتدي ملابسه، دفعت الباب ودخلت في الوقت الذي كان يلبس فيه قميصه، بينما ظلت سهام واقفة خلفها عند الباب، تحدثت أمها بمكرٍ واضعة يدها على خصرها:

ـ سهام حكت لي كل شيء، اعطني بعد ألفين دينار حتى أشتري حليب لطفلتي الصغيرة.

تنفس الصعداء ولو أنها طلبت منه كل ما يملك لما تردد ثوانٍ في تلبيه ما تريد، أخرج الفي دينار وسلمها لها، شاهد نظرة باسمة ماكرة من سهام، بينما وضعت أمّها المبلغ بين نهديها الذابلين مثل كيسين أفرغت محتوياتهما، أو مثل بالون اخرج انفاسه الحارة واسترخى لينام بعد انتهاء المهرجان، همت تمسك ممسحتها منحنية على دلوها الذي لا يفارقها وتكلمت وهي تتجه صوب الباب:

ـ رحمة الله والديك، إذا احتجت سهام بأي وقت راح تكون عندك،

بس لا تصير بخيل، ما مضطرة أخذ بحقها كل مرة، ودير بالك من رعد المجنون، لو عرف بالموضوع يقطع رزقي، وأنت تعرف مزاجه.

عاد صلاح يلقي بجسده على سريره يتذكر ما حدث له، وهو يشعر ان الانسان عبارة عن امواج من الشهوات، التي كلما لاطمت صخور الرغبة، افرغت الحرمان وتلاشت بلحظات لتعود به الى الركود نادما، هو بروحه الجميلة وطلته الوسيمة، محبوبا لكل من يراه من أول نظرة، لم يكمل الشهر في الفندق حتى أصبح صديقا لأغلب الطلبة الساكنين في الفندق، وتحولت غرفته إلى مكان لاجتماعهم، ما اثار ازعاج شريكه في السكن الذي لم يكن بينه وبين صلاح أي تقارب، في اول لقاء بينهما اخبره نورس بأنه الأبن الوحيد لمدير عام في محافظة بابل بين ثلاث بنات يكبرانه، ووالدته مديرة ثانوية للبنات هناك، حدثه متفاخرا بأنها شاعرة عرفت بقصائدها التي تتغنى بحب القائد والحزب، ما جعله في عيشة رغيدة انعكست على شخصيته وتصرفاته التي اشعرت صلاح انها تشبه حركات البنات بالحديث مرة وبوضع الميك اب مرةً أخرى، وفسر ذلك نشأته بين ثلاث أخوات بعيداً عن والده الذي شغله عمله عن الاهتمام به.

(8)

كأنه أصبح في مدينة ثانية كل شيء تغير، حركة المدينة والشوارع والمحلات، شعر وهو ينتقل بالباص من مكان الى اخر ان المدينة قد شاخت او كبرت او اصابها مرض مفاجئ، او كأنما شخص لم يره منذ مدة طويله واليوم يلتقيه وقد تغيرت ملامحة، اول رمضان لعادل في العاصمة، وأول أيام هذا الشهر، تحول الجميع بليلة واحدة بمزاج وسلوكيات مختلفة، في وقت النهار المزاج سيء بسلوك متحفظ، أما في وقت الليل فالمزاج مختلف تماما، في هذا الشهر انتبه إلى تحول النهار للعبادة بينما يكون الليل للهو، يسهر الجميع حتى اذان الفجر على اصوات الدومينو واهازيج لعبة المحيبس.

في اول ايام هذا الشهر تلقى عادل ضربة قاصمة قتلت كل أحلامه، بعد وصوله إلى المعهد استدعاه عميد المعهد ليبلغه بقرار فصله من المعهد، استغرب القرار، وحين قرأ الكتاب علم ان السبب هو نشاط والده السياسي السابق لصالح إحدى الاحزاب المحظورة، أمسك عادل بتلك الورقة لا يدري إلى أين يذهب، قدماه تسير به دون رأسه الذي تشتت فيه الأفكار، تذكر والديه وشهد ويعرب، ها هي أحلامه تقتل دون أن يكون هناك سبب يستحق، بدت حرارته ترتفع وبدأ يتصبب عرقا رغم برودة الجو، وطفق يتجه مسرعا مثل مجنون صوب لوحة الاعلانات، وقف امام مكان اللوحة، واخذ يمسح على المكان براحة يده ثم يمسح

العرق من جبينه فتلطخت راحة يده بغبار الجدار الذي تحول الى طين، اخذ قلبه يدق بنبضات متسارعة بينما صدره يرتفع وينخفض مثل فقاعات ضفدع ينقنق، ظهرت بلقيس خلفه باسمة:

ـ اعتقدت انك هنا فجئت؟

التفت نحوها، فمدت يدها لتصافحه، لكنه تردد وهو ينظر الى الطين فيها، فأصرت على المصافحة وهي تخاطبه:

ـ اغطس في طينك غير ان اغرق في ماء الاخرين.

ـ اي غرق يا بلقيس انا احترق؟

ـ اعماق النار اكثر الفة من اعماق الغرق.

ـ بلقيس عن اي اعماق تتحدثين انا بحاجة لأغرق بالماء للابد.

ـ يا صديقي، الغرق ليس ان تكون تحت الماء، على العكس، لكن الخلاص ان تغطس بالماء حيث الابدية، اتعلم اول الديانات بالتاريخ تتبرأ من الذنوب بالماء، مادام الماء يسير بشكل افقي فهو سرمدي، حياته في جريانه، وحين يتوقف يموت، على عكس النار التي تسير بشكل عمودي، تحاول ان ترتفع قدر ما تستطيع، لذلك تخمد بسرعة.

ـ بلقيس ارجوك انا ذهني مشوش، فصلت من المعهد رغم انني لم افعل اي ذنب.

ـ آه .. يا صديقي.. من يقطع الهيدرا؟ نحتاج لهرقل جديد؟

ـ لا ادري عن اي شيء تتحدثين؟

ـ اتحدث عن الثعابين.

ـ ارجوك كيف سألتقي بك بعد اليوم؟ فلا مكان لي هنا بعد اليوم.

ـ سنلتقي عند دجلة، هناك سننساب معا مثل الامواج ونموسق خطواتنا بين المد والجزر.

ابتسمت ثم سارت مثل غيمة، شعر وهو يتفحص فستانها الابيض الغريب الذي ترتديه انها ترتفع شيئا فشيئاً، انتبه الى قميصه الذي تنقع من التعرق وهو يشعر بدوار غريب وطفق يتقيأ، خرج من المعهد وهو يرمقه بآخر نظرة، هي نفسها نظرة الوداع التي ودع فيها شهد ومدينته وذكرياته وأحلامه، صعد الباص، واخذ يمزق الورقة وقرر مع نفسه إخفاء أمر فصله عن الجميع وبالخصوص والديه كي لا يعود إلى الحلة، لم يكن ذلك اليوم يوماً عادياً قضى أَغلبه لا يحدث أحداً، الدخان لغتهُ الوحيدة، أثناء الليل وقف في باب الفندق لا يدري ماذا يصنع؟ واذا بصوت يُخرّجه من عتمة افكاره:

ـ عندك نار؟

نظر إليه رجل خمسيني، يرتدي دشداشه بيضاء وعباءة صفراء مطرزة بلون الذهب وتغطي رأسه غترة بيضاء مفتوحة بدون عقال تنزل أطرافها على كتفيه، أراد الاعتذار منه لكنه مازال لا يرغب بالتحدث مع احد، دنا الرجل منه وهو يخرج سيجاره من جيبه ليناولها له، ثم أخرج من جيبه الاخر قداحة، وبادر بإشعالها له، وقال وهو يتفحصه:

ـ خيرك ابني؟

ـ لا تشغل بالك، مشكلة صغيرة.

ـ ربما بعثني الله لك، اتبعني انا اعيش وحيدا، كل مشكلة ولها حل.

شعر برغبة في اتباعه لأنه بحاجة ليفرغ ما بداخله، استأذنه ليخبر (صلاح) أنه ذاهب لمكان ما، طالبا اياه بأشغال مكانه في الفندق لحين عودته دون أن يجيبه على سؤاله:الى أين؟.

سار جنب الرجل وهو يجيب على استفساراته ثم استدار خلفه يتبعه إلى إحدى ازقة محلة الحيدر خانه، شعر بأنه يسير في مدينه شبه خاويه مستغربا كيف يكون سكان وسط هذا الخراب؟ خفف من وطأة قدمه خوفاً من أن يتسبب ارتطامُها القوي بالأرض بسقوط إحدى بيوتها الخاوية، وهو يتفحص الاعمدة الخشبية البارزة من واجهات البيوت، وكأنها رجل جبار يمسك عمودا وهو في استعداد كامل لضرب الاشخاص غير المرغوب بهم من المارة، وبعد أكثر من استدارة داخل الازقة الضيقة التي تثير الخوف والريبة كما تثير القرف بسبب المياه الآسنة الظاهرة التي تركد وسط مجرى صغير يتوسط الممر، اثناء انشغاله بكل هذه التفاصيل وهو يجري خلف الشيخ ارتطمت به عربة محملة بزجاجات عرق فارغة، يدفع بها شخص رث المظهر والملابس بيد واحدة بصعوبة وهو يصرخ (بالك)، وصلا إلى عتبة جامع كبير، ببناء قديم لم تمحُ الترميمات المتكررة عن جدرانه قدمه، هو لم يدخل لجامع من قبل، نظر مندهشا إلى السور المرتفع الذي يحيطه وإلى واجهته المزيّنة بالزخارف الإِسلامية المنقوشة بشكل دائري، حولها نقوش هندسية على شكل مثلثات ودوائر ومربعات ومكعبات متجاورة من الفسيفساء الملونة، فتح باب الجامع أمام دهشته، بدا له الباب الضخم المصنوع من الخشب بنقوش غير مفهومة، وبمقبضين على شكل

حلقتين كبيرتين من النحاس، يشبه باب قلعة قديمة كتلك التي يشاهدها في المسلسلات التاريخية، أثناء دخوله الجامع وهو يستطلع منذهلا ما يحتويه من مساحة واسعة، انبهر وهو يشق الرواق الواسع خلف الرجل الذي لم يعرف اسمه بعد، تحيط به من الجهات الثلاثة سقائف محمولة على أعمدة، الطريقة التي بني فيها بهذا الشكل المنتظم، زرع في داخله علامات التعجب والانبهار والذهول، اتجه خلفه نحو باب صغيرة بالركن الأيمن منه، لم يكن يسير بقدميه بقدر ما كان يسير على مجموعة من التساؤلات التي حملته وبنفس الوقت أثقلت تفكيره، ليطلقها مع نفسه وكأنه يصوب رصاصات أسئلته إلى رأسه، إلى أين يسير به الوجد؟ وأي قانون عكسي يبعده عن الموسيقى ويدخله الجوامع التي لم يحبها يوما؟ ومن هذا الذي يضع له القوانين عكس ما يبتغي وعكس ما يريد؟ ويقوده عكس رغباته؟ يخرجه من الأماكن التي يحبها ويدخله راضخا إلى أكثر الاماكن كرها له، أيطرد من معهد الفنون ليدخل الجامع؟ لم تنفد ذخيرة تساؤلاته إلّا حين أوقفها الرجل يخاطبه بعد أن أنار مصابيح الغرفة المعزولة في الرواق وهو يرحب به:

ـ تفضل.

تبعه عادل يتفحصها، بدت له متواضعة بالنسبة لغرفته في الفندق، سرير قديم من الحديد يغطيه فراش بسيط واغطية مبعثرة، ثلاجة صغيرة شبه مستهلكة، منضدة خشبية قديمة بثلاثة ارجل، تقابلها أريكة خشبية عوجاء مائلة لتتكئ على احد الجدران، تأخذ الحيز الوسط من الغرفة، فرشت بفراش مرقع بألوان مختلفة، بينما الجدران مقشرة الطلاء وكأن لها لحاء مرقعة بلونين، جلس الرجل على السرير وطلب منه الجلوس

بقربه، انزل غترته على رقبته، ليكشف عن شعره الذي خطه الشيب واحتل اماكن واسعه منه ومن لحيته، وكأن شعره ولحيته مزركشة بالفضة، طويل القامة رقيق العود مكتنز الجسد له نظرة ملتمعة، وصوت مرح، فكل شيء فيه يدل على أنه أصغر من عمره، له في فكه الأسفل سن يرقص عندما يتحدث، تحدث الرجل ليعرّفه بنفسه بشكل مختصر:

ـ أنا الشيخ فتحي وهذا الجامع تحت مسؤوليتي.

اكتفى بهذه الحديث المختصر عن نفسه، ثم انتقل بشكل سريع ليسأله عن مشكلته، فما كان من عادل إلّا أن يسرد له مشكلته وحاجته للحصول على عمل مناسب، لكنه أخفى عليه قرار طرده من المعهد، وضع شيخ فتحي يده في جيبه وهو يتفحصه، ويطالبه بنسيان موضوع العمل وأنه سيساعده فيه، ثم أخرج من جيبه الفيّ دينار ليمده بها، ارتبك عادل خجلا ورفض اخذ المبلغ، فاقترب منه الشيخ وهو يطوقه من كتفه يقبل خده، فاخذ المبلغ على مضض كي يتخلص من احتواء الشيخ له، وفهم رسالته بسرعه وعرف ماذا يريد منه، ثم استدار الشيخ له وأعطاه ظهره يطالبه بتدليكه متظاهرا بالألم.

عاد إلى الفندق ليجد (صلاح) ينتظره، فاستقبله مستفسرا:

ـ تأخرت؟

ـ لم اكن وحدي كنت مع الشيخ.

ـ الشيخ؟!

رد عادل وهو يقهقه:

ـ لا تستعجل سأقص عليك كل شيء، دعني الان اذهب للحمام واعود لك.

عاد عادل ليقص على صديقه بعيدا عن مسمع نبيل ما حدث له في الجامع:

ـ كنت مع شيخ جامع اغواني بالمال لاضاجعه!

رد صلاح الذي اصابه الخبر بالدهشة بعد أن فغر فاه لمدة طويلة:

ـ مقرف؟! ما اتوقعها منك، ضننتك اكثر عفة! انت مريض؟

ـ انا بوضع بائس ليس مثلك.

صمت تحت تأثير المفاجأة ومرارة الألم الذي أصابه من كلماته، بينما أخذ عادل يخرج سيجاره من جيبه وهو يعيد ترميمها وأردف بعد أن اوقدها:

ـ أتدري اليوم فصلت من المعهد؟

ـ معقولة؟!

ـ لا تستغرب، في هذا البلد كل شيء ممكن الحدوث، اترك حديث السياسة فالجدران لها آذان، أصبحت لا اثق بأي شخص، أتدري يخيل لي ان كل الاشياء التي تسير معي، تعمل رقيباً عند الحزب، وأنا شخص مسالم وأريد العيش فقط، صرت أخشى ظلي وأظنه يعمل لمصلحة الحزب لأنه يلاحقني اين ما ذهبت .

ـ الا أنا.

قالها صلاح وهو يبتسم بخبث، وكأنما يغريه ليتحدث اكثر، ساد الصمت من جديد بينهما وهو ينظر إلى صديقه الذي شرد ذهنيا عنه، ثم سأله:

ـ اذا قضية سياسية؟ ممكن تصدق قصة رجل الدين، لكن لا اصدق انك تعمل ضد الدولة، انت كما عرفتك لا تهتم بأكثر من توفير سجائرك، وما يسد بطنك وما يوقف نبض قضيبك، هذا عادل الذي اعرفه!

ـ ارجوك اترك الموضوع فمزاجي متعكر، وهذا الموضوع سر لا أحد يعرفه غير الحزب وانت.

ـ كم اعطاك الشيخ؟

ـ الفيّ دينار مع بعض الفواكه.

تهيأ صلاح للمغادرة إلى غرفته وقال:

ـ ابحث عن خيار للعيش أفضل من هذا الرزق المقرف.

ثم وهو يمسك مقبض الباب اردف مازحا:

ـ من اليوم أخاف الجلوس بقربك.

استمرت ليالي عادل في الجامع بعبادات داخل الغرفة الصغيرة في رواق الجامع بين رجل الله وعبده الفقير، التزما الاثنان بأداء واجبات العبادة الخفية التي تتم ليلا، وما يزيدها بركات أكثر أن طقوسها ومراسيمها حدثت في شهر رمضان، فالشيخ لا يريد تفويت ليلةٍ واحدةٍ معه بعد ما وجد فيه أكثر مما يتمنى، والأخير وجد من كرمه مالم يتمناه في يوم من الايام فهو يوفر له المال والسجائر وبعض الفواكه التي لم يذقها حتى في بيته، بالإضافة إلى مشروب العرق الذي لم يكن جديدا عليه، فقد تعلم

عادل شربه منذ صباه، فوالده كان يشرب الخمور بأنواعها، لكن بعد فرض الحصار الاقتصادي على البلد وانقطاع الاستيراد، انحصر الشرب على العرق الذي صار يصنع في معامل خاصة انتشرت في مدينة هبهب سُميَّ عرق فل أو عرق هبهب بأسعار مناسبة، فلم يمنعه من شربه على عكس والدته التي ترفض أن يتعود عليه، بينما والده يعترض مستنكرا:

ـ الخمر مشروب الامراء حين نشربه بطريقة حضارية لائقة نشعر بنشوة الحياة، تعالي واقنعيني كيف لمشروب نباتي يصنع من الشعير أو التمر أو العنب أن يكون مضرا؟ فقط حين نكثر من شربه يكون مضرا، فقد تعلمنا من علماء الاقتصاد أن اكل برتقالة واحدة أو اثنين مفيد للجسم ولكن حين نزيد الثالثة لا فائدة ولا ضرر غير انتفاخ المعدة وحين نزيد رابعة فستتحول الفائدة إلى ضرر، والخمر لا يخرج من هذه القاعدة أو النظرية الاقتصادية.

كثيرا ما يصل الحديث بينهما إلى سجال وينتهي بالخصام المر، ففي كل مرة يثبت والده بطريقته الخاص بالمناقشة والاقناع وجهة نظره بكلام مختلف يثير إعجابَه، لا ينسى اعتراضاتها المتكررة التي لا تنتهي وجه والده لها سؤالا:

ـ قولي لي أيهما اكثر ضرراً الخمر أم السجائر أم المشروبات الغازية التي أنقذنا منها الضرر النافع للحصار، أم المعلبات وموادها الحافظة أم الادوية التي تحتوي على المواد الكيميائية وما تحمله من آثار جانبية؟

لا تملك أم عادل الحصانة المعرفية ولا العلمية لمجادلته فكل حججها اللوم والوعيد بمستقبل أكثر بؤساً.

تفاجأ عادل في إحدى ليالي الجامع أن مده شيخ فتحي بالمال طالبا منه أن يأتيه بالعرق، ليتعود في كل ليلة يأتي فيها ينقده بالمال ثم يرسله إلى محل المشروبات القريب، اندهش حين وجد بائع الخمر هو نفسه صاحب العربة التي ارتطمت به اثناء سيره مع الشيخ في المرة الاولى لدخوله محلة الحيدر خانه والجامع، أحب الشخصية الفكاهية لبائع الخمر رغم منظره الرث وشعره الاشعث وملابسة المتسخة، سكران أغلب الوقت، مرةً يجده سعيدا وأخرى يجده يبكي، كثير الثرثرة بكلام لم يفهم أغلبه، يردد أغانٍ قديمة لم يسمع بها من قبل وفي مرات أَخر يسمع منه شعرا أو أهازيج وكثيرا ما يردد عبارة:(الي ما يشرب عركَ ما عنده شخصية)، كما اعجب بإصراره ومثابرته في عمله رغم انه يملك يدا واحدة، صار يراقبه اثناء عمله وهو يركز نظره على ردن قميصه الفارغ من اليد وهو يزرها الى خاصرته بدبوس.

أصبح وضعه الجديد يمثل انزعاجا لصلاح، وبدأ لا يطيق اي رائحة يشمها فيه ويتخيل انها رائحة عرق، كما ازعجه تأخره اليومي عند الشيخ، فطالبه بتركه وترك شرب العرق، فيرد عليه:

ـ أنا مجبر على معاشرته، ولولا العرق لما استطعت تحمل قذارته واشمئزازي منه، أنت لا تشعر بنوع العذاب الذي يقلب مزاجي كل يوم ويجعلني ألتجئ إلى السجائر والعرق.

هكذا يطفئ ثرثرة صديقه ولومه وعتبه.

***

بدت العلاقة بين عادل ورعد تتوتر، بعد تردي وضع الفندق وفقدانه

لبعض زبائنه من الطلبة والنزلاء، إلّا أن هذه التوترات لم تعكر صفو علاقتهما، تعود عادل ان ينسل ليلا إلى شيخ فتحي، حيث يترك (صلاح) مكانه ليعود قبل عودة نبيل، ولكن مزاج رعد يجعله في بعض الاحيان لا يذهب ليلاً إلى بيته، كما كان يفعل كل يوم منذ أن أصبح له مساعدا، وحدث ذات ليلة فاضطر عادل مجبرا تلك الليلة على البقاء، اثار تأخر عادل قلق شيخ فتحي الذي سئم الانتظار وبدأت تتجاذبه الافكار، هل هرب كما فعل من عرفهم قبله؟ استرجع يتذكر كل من سبقوا (عادل) في تأدية طقوس العبادة الليلية معه في الجامع، وكيف تعود على ممارسة هذا النوع من الطقوس قبل أن يصبح شيخا ويأتي بغداد قادما من محافظة البصرة، حين تخرج من كلية الشريعة وعينَّ مدرس لغة اسلامية في مدينته في البصرة، قبل أكثر من خمسَ عشرة سنة، كثر من تردده على الجامع القريب من بيته، فاحبه شيخ الجامع، كان في الثالثة والعشرين من عمره، شاب وسيم بملامح انثوية، طويل القامة، بصوت رخو خجول مرح، وشعر ناعم مائل للبني، اهتم فيه شيخ الجامع وأصبح لا يفارقه ويفضله على بقية المشايخ، دائما ما يحدثه أنه الاصلح في المستقبل ليكون شيخا لهذا الجامع، لم ينسَ ذاك اليوم في شهر رمضان حين اتى عصرا ليقرا القران، اقترب منه الشيخ وهو يتفحصه باهتمام ويسرح بيده شعره، أحمر خدّاه خجلا، فخاطبه بهدوء هامسا:

ـ اقترب مني لأزيدك ايمانا وتبريكا.

ثم قبل شفتيه وشرع يمصها بشغف وشاهد الارباك والخجل يعتلي فتحي فخاطبه:

ـ ضع لسانك في فمي كي نقضي على عطش الصيام.

واردف ليَسوِّغ له تصرفه بافتراء احاديث:

ـ أن أحد الصحابة الأجلاء كان يفعل ذلك فيمنح الصائمين الماء والبركات.

صدق فتحي الحيلة وأخذ يقبل شيخه ويمنحه لسانه، وشرع الشيخ يحتويه إلى احضانه ينتقل بيده من مكان إلى اخر يردد آيات قرآنية وأحاديث وأدعية، فكأنه يلمس مكانا مقدسا، استمر يأخذ من شيخه الشاذ كل التبريكات حتى تعود عليها وصار هو المبادر.

فتحي تذكر كيف كان صبيا ملتزما خجولا في ايام الدراسة يتصبب عرقا إذا تكلمت معه زميلاته، يكبت كل شهواته من أجل أن لا يعصي ربه، لكن شيخ الجامع استطاع منحه ما حرم نفسه منه مع النساء وبمباركة الرب على حد زعمه، سعد بما دار بينه وبين شيخه، وبعد مرور سنة شعر برغبة ليفعلها مع غيره فلم يكن بالأمر العسير، فقد تعرف على شخص وحين أحس برغبته لذلك استقبله بالموافقة، لتستمر مقابلاتهم في الجامع دون علم شيخه، واستمر سنوات على هذا المنوال وأصبح يستدرج طلابه في المدرسة ويأتي بهم إلى الجامع بحجة إعطائِهم دروساً دينية، ولازال لا ينسى ذلك اليوم الذي اكتشف صدفة فيه شيخه الأمر فقام بضرب الطالب الذي استدرجه بالعصا التي يتكئ عليها وطرده من الجامع، في حين كور هو جسده في زاوية الغرفة، وهو يلملم ملابسه فوق وسطه، لازالت نظرات شيخه حينها مرسومة في ذاكرته، شعر بالخوف كلما تذكرها، احس لحظتها انه اراد قتله، وحين تركه متجها إلى قاعة الصلاة الكبيرة، اخذ يراقبه من الباب المفتوح قليلا،

ابصره ينظر بحزن إلى سقف القاعة، تنتقل نظراته بلا وعي بين النقوش التي تزين السقف والآيات التي كتبت على الحيطان، فكر شيخه بطردَه لكنه خشى افتضاح أَمره، في نفس اللحظة تذكر الرسالة التي وصلته من المسؤول الحزبي في المنطقة يطالبونه بترشيح أحد المشايخ ممن يثق فيهم لإرساله إلى إحدى جوامع بغداد، فاختاره ليتخلص منه، بعد ايام استلم ظرفا سريا، وطلب منه شيخه المحافظة عليهِ وحذره من فتحه، ثم أَمدّه بعنوان الجامع والفرقة الحزبية التي سوف يتوجه اليها، هكذا قادته الظروف ليكون شيخا لجامع في بغداد، بعد أخذ تعليمات مشددة من الفرقة الحزبية في منطقة الحيدر خانة، تعرف على مسؤولها الرفيق سالم خنجر، الذي أبلغه بأن عمله سيكون سريّا لخدمة القائد والحزب، حينها أومأ برأسه بالطاعة والقبول، ثم نهض سالم خنجر يبارك له عمله دافعا بأحد رفاق الفرقة الحزبية لإيصاله إلى الجامع.

فز الشيخ من غيبوبة افكاره، نهض يفرك وجهه بكفه، وقرر الذهاب إلى الفندق للسؤال عن عادل، وجد (رعد) خلف مكتبه ممسكا سماعة الهاتف، تفاجأ عادل الذي كان يجلس على الاريكة المقابلة له، بدخول الشيخ، هل يدعي عدم معرفته به؟ فهما في اتفاق مسبق أن لا يأتي للفندق، تقدم الشيخ نحو رعد الذي قطع الاتصال بشكل مباشر واستقبله بحفاوة كبيرة، ظنا بأنه يطلب السكن، ثم طفق يأخذ (عادل) بالأحضان وهو يصيح بذكاء يتدارك به الموقف:

ـ اهلا ابن اختي.

كي يوصل رسالة لمدير الفندق أنه خاله، ثم نظر إليه باسما وهو

يطلب الاذن بالصعود إلى غرفة ابن اخته، نهض عادل مذهولا وهو يسبق الشيخ إلى الغرفة، نظر إليها يتفحص أثاثها وهو يداعب نهاية لحيته ثم قال بمكر:

ـ يبدو أن فخامة غرفتك هي من اغرتك بالبقاء وعدم المجيء لغرفتي المتواضعة.

ـ ليس الأمر كما تتصور.

ـ خفت عليك، ولم اتعود غيابك وليس لي صبر على ذلك.

ـ لكنك خرقت الاتفاق، لحظة دخولك أثارت فيَّ الرعب.

ـ لا تهتم ما دمنا تداركنا الموقف.

ثم مد يده في جيبه وكأنه أراد أن يكفَر عن حماقته وأردف:

ـ حضرت لك مبلغا من المال لأني اعتقدت انك بحاجة له.

ـ لم تتركني أحتاج لشيء، لكن (رعد) اليوم وعلى غير عادته لم يغادر إلى البيت، ولا يمكنني الخروج معك.

نظر الشيخ لعادل وهو يبتسم بمكر:

ـ غرفتك تغريني للبقاء، نحن بحاجه إلى تجديد حبنا على سرير أفضل.

نزل الشيخ من الغرفة إلى صالة الفندق وهو يبتسم لمدير الفندق وبادله الحديث بتملق موصيا إياه بأبن أخته الذي رافقه إلى الشارع، عاد عادل إلى الفندق وهو يستعد لأسئلة رعد المتوقعة.

(9)

استيقظ صلاح كما هي عادته متوجها إلى شرفة غرفته، اتجهت عيناه إلى البيوت المتكومة خلف مرأب النقليات المقابل للفندق حتى لمح فتاة فوق سطح بيتها القديم، يظهر الجزء العلوي منها من خلف ستارة بيتها الآيلة للسقوط، والمشيدة بالطابوق القديم، توحي من بعيد مثل أسنان صفر لرجل مسن يدخن بكثرة، ظهر له منها جزؤها العلوي فقط ممسكة بيديها كتابا وهي منحنية تقرأ ذهابا وايابا فوق السطح، فتذكر فلورا، وسأل نفسه ماذا تفعل الان؟ تذكر حظه العاثر حين خرجت من النادي مع حسن الحوراني وتركته وحيدا خائبا، الا ياليت الامر توقف عند ذلك اليوم، فبعد عودته إلى الاقسام الداخلية وحين كان يجلس مساءً في إحدى غرف الطابق الارضي، بين مجموعة من الطلاب مجتمعين يفوق عددهم الخمسة عشر، دخل حسن الحوراني مثل ثور يركض داخل حلبة للمصارعة، بينما الطلاب مثل جمهور يكتظ به المكان، وكأن (صلاح) المصارع الذي يحمل راية حمراء، اخذ يخور بصوت عال، يشتم ويسب به ويتوعد بالقتل اذا لم يرحل من الاقسام الداخلية، ثم متوجهاً بجسده الثقيل نحوه، ليوجه له لكمة، لكن (صلاح) نجا منه، بعد أن استخفي خلف الطلبة المحتشدين، وهم يحاولون تهدئة حسن، ومعرفة دوافع غضبه، واندفاعه الاحمق نحوه، لن ينسى ذلك اليوم ولا غضبه واحمرار عينيه كأن كل دمائه تجمعت فيها.

بعد ذلك الحادث فهم صلاح من الجميع أن الافضل له مغادرة البناية، بعد أن حذره البعض من احتمال ان يفتري عليه بقضية سياسية كيدية، إذا عانده وأصر على البقاء، فحمل أغراض وتوجه إلى بيت عمته في منطقة عرب جبور، ليجد حسن الحوران واقفا في الباب الرئيسي يخاطبه وهو يرفع سبابته الى انفه:

ـ احذر العودة للأقسام، واياك والاقتراب منها.

في صباح اليوم التالي استدعيَ من قبل مدير الاقسام الداخلية، تذكر كيف كاد الخوف أن يقتلهُ المسافة إلى مكتبه عبارة عن بحر من الافكار، رأسه فيه كقارب تحركه أمواج الخوف التي رمته عند مكتبه، وقف على شواطئه يرتجف من رياح نظراته، لكنه تفاجأ بموقف إيجابي من قبله، حين أخبره أنه سمع بالشجار الذي حدث، وان له الحق بالسكن في الاقسام، لكن في بناية اخرى كي يتجنب حسن الحوراني، وله الخيار في البقاء أو الرحيل، وبعد خروجه من مكتبه أخبر بعض زملائه بما حدث له، فشاءت الصدفة أن يدله أحد الزملاء بقريبه نورس، الطالب الجديد في قسم اللغة الفرنسية من الحلة، الباحث عن زميل يشاركه السكن، فجاء معه يبحث عن سكن مناسب إلى هذا الفندق، في نفس هذا اليوم تحدث لسارة عن ما جرى له، وهو يطلب منها عدم ايصال الحديث لحسن الحوراني، لكن كانت هذه المرة الاخيرة التي يتحدث فيها مع سارة التي اختفت كما اختفت اختها، لتأتي المفاجأة المدوية له ولزملاء مرحلته بخبر وفاتها بعد احتراقها بغاز المطبخ في بيتها.

دخلت سهام لغرفته دون استئذان لتغلق الباب خلفها لتفززه من

ذكرياته، واثناء دخولها لمحها عادل وسمع صوت الباب وهو يقفل من الداخل، فعرف ان بين سهام وصديقه علاقة، فاخذ يدخل احد الحمامات الذي كان بابه باتجاه غرفة صلاح وراح ينتظر خروجها وهو يراقب الغرفة، وفي هذه الاثناء انشغل عادل يفكر بصديقه ويحسده على مغامراته، يقارن بينه وبين واقعه المرير، كيف تدهورت اوضاعه من سيء إلى اسوء، فبعد خسارة شهد، خسر دراسته في اكمال السادس الاعدادي، وحين حاول أن يجاري حظه بدراسة الموسيقى لينقذ آخر ما تبقى له من حلم، قتل بكتاب طرده، ثم زاد الشيخ الذي أغراه بماله طينه بللاً، حتى شعر أنه وحلٌ قذرٌ، فعل أشياء لم يتوقع فعلها ولو مارسها غيره لاشمأزّ منه ووبخه، هز رأسه وضرب جبينه بكفه، وقرر مع نفسه ترك هذا الشيخ العجوز والبدء بحيوات جديدة، قرر أن يكون أكثر محافظةً على عمله، وأكثر وفاءً لمدير الفندق، ووعد نفسه أن يصنع حياة عطرة من أكوام الخيبات العفنة، كما تصنع الاشجار من اكوام الاسمدة الكريهة قدّاحاً، فتح الباب بهدوء ومدت سهام رأسها يمينا وشمالا، ثم خرجت وهي تعدل ملابسها لتنطلق نحو المصعد، خرج عادل مسرعا نحو غرفة صلاح، وما أن دخل حتى أمسكه من خصره يزرع مازحا أصابعه في بطنه قائلا:

ـ تكلم يا محظوظ؟

بينما تقطعت انفاس صلاح من الضحك وعيناه تكاد تختفي في محجريهما وهو محاصر بين يديه، أراد افلات جسده منه فرمى به إلى حائط الشرفة المتآكلة ولسوء حظهم سقطت شظفة منها لتستقر على إحدى السيارات المركونة على حافة رصيف الفندق فأحدثت صوتا كبيرا مما لفت انتباه بعض عمال مرأب النقليات واصحاب العربات

وكذلك رعد الذي كان واقفا مع صاحب محل القرطاسية الذي تعود له السيارة المتضررة من الشظفة، توجهت الانظار إلى أعلى الفندق فأبصروا (عادل) يقف في شرفة صلاح الذي هرب إلى داخل الغرفة في لحظة سقوط الشظفة، ما أن شاهدهُ رعد حتى صرخ بصوت ادخل الخوف إلى قلوب من حوله (لك عادل) ،ثم دخل مسرعا إلى الفندق يتشيط غضبا، بينما نزل عادل وهو منزعج وخائف في نفس الوقت من صراخه، ليتواجها في الطابق الاول وهما يرميان بعضهما بنبال ألسنتهما، ثم تشابكت أيديهُما كتشابك الافاعي بينما وقف صلاح يتفرج وفي قرارة نفسه يظن أن صديقه الشاب الاسمر المفتول العضلات سينال من رعد الكبير السن، وهو يمني النفس أن يشفي غليله منه لكرهه له، لكن المشاجرات لا تنتهي بمقاييس الحب والكره والتمني ولا بما يملك المتشاجرون من مميزات، المشاجرات دائما ما تفاجئُنا بنتائج غير ما نتوقع ونتمنى، بالضبط مثل المباريات والسباقات الرياضية، أو مثل المعارك والحروب، اخذ رعد يفترس صديقه هو يتفرج عليهما وكأنه يتفرج على تقرير تلفزيوني يظهر فيه أسد عجوز يفترس ارنبا، تفاجأ حين لمح صديقه يهرب وهو يخفي صوت بكائه بين يديه.

الشظفة قصمت ظهر عادل لينتهي به الأمر هو وأغراضه خارج الفندق، لم يكن يمتلك من حطام الدنيا سوى نايه الحزين، وكتبه التي يحبها، وعمله الذي طرد منه، لكن هذه الحادثة لم تمر مرور الكرام على صلاح ليأخذ حصته منها، فقد ابلغه رعد بمغادرة الفندق بأسرع وقت ممكن متهما إياه بإفساد أخلاق صديقه بمشاكساته التي أصبح بها يزعج حتى جيران الفندق.

لم يكن أمام عادل خيار ثانٍ غير الالتجاء إلى الشيخ فتحي ليطرح عليه مشكلته، انتهى الأمر به ليسكن في غرفة الشيخ في الجامع الذي بانت أساريره لمصيبته التي تعود عليه بفائدة عظيمة كونه سيضمن بقاءه أطول فترة ممكنة، بالإضافة إلى أنه سيجده قربه متى ما أحتاج إليه، تقبل عادل الأمر على مضض فليس هناك خيار آخر.

أما صلاح فتذكر بعد خروجه من الفندق، صديقه غريب الأطوار (فارس عمليات)كما يسميه، فاتجه إلى فندق المقدادي حيث يسكن هناك، صديقه الطالب في كلية التربية قسم الرياضيات، والذي التقاه مصادفة في الجامعة حين كانا يقفان على طابور مصرف الجامعة أثناء دفعهما للأقساط السنوية عن دراستهم المسائية فيها، أثارت مشاكساته أثناء وقوفه في الطابور إعجاب صلاح فتبادلا المزاح، وكأن أحدهما يعرف الاخر منذ مدة طويلة، فارس هذه الشخصية البهلوانية الفكاهية المولعة بالمغامرات، كلما طرح عليه صلاح فكرة، رد بعبارة (تحتاج عملية)، هو يعيش دور رجل عصابة، يضع دائما الباندج في يده، فمظهره الخارجي كافٍ ليوحي إليه أنه شخص فكاهي، بقامته القصيرة وكرشه الكبير وفمه العريض، وعلى عكس منظره المثير للضحك كان أنيق الملبس، ويمتلك ثقافة معرفية كبيرة.

وصل صلاح عند فندق المقدادي الذي يقع على مسافة قريبة من فندق البحري لا تتجاوز أكثر من عشرين متراً، وبالتحديد في الجهة المقابلة لمديرية شرطة بغداد ليقابل (فارس)، يسرد عليه قصته طالبا منه أن يشاركه السكن، فرحب به فارس لكن أخبره أنه لا يريد مشاركة أحد في غرفته، فهو تعود السكن لوحده، لا يبالي بدفع عشرين الف دينار،

فوالده يملك من العقارات والمزارع ومشاريع حقول الدواجن الكثير، هو من العوائل المعروفة في محافظة ذي قار بترفها، بينما صلاح رغم وضعه المادي الجيد لكنه لا يضاهيه ماديا، رغم أن الحصار زاد والده مالا وترفا، بسبب اعتماد الدولة على المحاصيل المحلية، لكنه كان بخيلا معه، فلا يتمكن من دفع ايجار غرفة لوحده، لذا اصيب بخيبة أمل، ربتّ فارس على كتفه وحدثه:

ـ لا تهتم سأبحث لك عن سكن أفضل من هذا الفندق وبسعر مناسب، فهناك عمارات سكنية ارخص بكثير من الفنادق.

نظر صلاح إلى ساعته، ففهم فارس أن اضاعة الوقت ليس في صالحه، نهض ليغير ملابسه ثم خرجا معا للبحث عن سكن له، اتجها إلى عمارة قرب سوق الشورجة، أثناء صعودهم شاهدوا كثيرا من الفتيات بملابس منزلية وهن يقفن بأبواب غرفهن ويدور حولهن الاطفال، لكنهما لم يحصلا على سكن فيها لعدم وجود شاغر، بعد نزولهما دخلوا إلى أكثر من عمارة على طول شارع الجمهورية، انبهر صلاح من كثرة العوائل وبؤسها وهي تملأُ العمارات، فسأل صديقه وهما عائدان الى الفندق:

ـ ما اكثر العوائل التي تسكن العمارات!

ـ الكثير من العوائل الفقيرة التي هجرت محافظاتها إلى بغداد بحثا عن كرامة العيش، فأغلبهم من اكراد الشمال وبؤساء الجنوب يعملون جميعهم برجالهم ونسائهم وشيوخهم وعجائزهم وحتى أطفالهم في أسواق الشورجة ومحلاتها ومعاملها.

ـ يعني يجمعون المال ليدفعوا إيجار سكنهم ومأكلهم؟ الافضل لهم البقاء في مناطقهم؟

ـ لكل عائلة قصة غريبة ومأساوية بنفس الوقت، نحن العراقيين نتمسك بالأرض وبعاداتنا وتقاليدنا، فمن اضطر للتضحية بها فبكل تأكيد هناك قوة أكبر مما نتوقع تقلعنا من أشيائنا الجميلة وذكرياتنا التي لا ننفك عنها.

ـ يمارسون الدعارة؟

ـ بعضهم حافظ بشِقِّ الأنفس على ما تبقى من ماء الوجه، ومنهم من وصل الأمر بهم إلى ممارسة البغاء بشكل سريّ وشبه مكمل لأعمالهم الثانوية، ومنهم امتهن البغاء بشكل علني في بيوتات قديمة بين الأحياء الشعبية.

ـ رغم حاجتي الملحة لهذه الاماكن إلّا أني أشعر بحزن وعاطفة اتجاههم وبالأخص النساء.

ـ تخيل أنك تجبر على فعل شيء وأنت غير مقتنع بفعله، تحتج وبالأخير ترضخ للأمر.

ساد بعض الصمت ثم أكمل فارس وهو يضع يديه في جيوب بنطاله:

ـ حين تجبرك الظروف لتبيع جسدك، لتفعل به أموراً ترفضها كل حواسك لدرجة أنها تمقتك، وترفضك كل قواك الداخلية، نفسك وذاتك وعقلك وقلبك وحتى جسدك، تخيل صديقي كيف سيكون الامر؟

ـ أشعر بذلك، أنت تذكرني بصديقي عادل لا يختلف وضعه عما تتحدث به، هو مجبر على مضاجعة رجل عجوز من أجل ماله، أشعر حين يحدثني أن كل حواسه تهتف بوجهه لينهي هذا الأمر.

ـ آه.. ليت الأمر يتوقف عند الحواس والرفض الداخلي، فالضحية بين مطرقة الرفض الخارجي وسندان الرفض الداخلي؟

ـ ماذا تقصد بالرفض الخارجي؟

ـ البيئة، المجتمع، العادات التقاليد، الدين، والحكومة، كلها ترفضهم، لان كل جماعة تمثل رؤىً واهدافاً لا تتفق مع أفرادها، لكن التناقض العجيب حين يمارسون هواياتهم منفردين، فانت ستجد على طابور المبغى أبناء بيئتك وابناء مجتمعك ومن يحملون عاداتك وتقاليدك وابناءَ دينك بل ورجال دينك وحكومتك وقياديهم ضباطا ومسؤولين كبار بالحزب.

ـ اذا الحكومة والمجتمع والدين، بدلاً من أن يوفروا لهم الحياة الكريمة يحاربونَهم نهارا وينامون ليلا في أحضان نسائهم، أيهما العاهر الحقيقي بربك؟

ـ المجتمع كله عاهر.

احس فارس بخيبة صديقه بالحصول على سكن مناسب، نظر إليه وهو غارق في تفكيره ثم ابتسم وهو يمسك يده ويخاطبه كمن يطمئنه:

ـ لا تخف، حتما سنجد حلاً.

وصلا فندق المقدادي، وتمكن فارس من اقناع مدير الفندق بتأجير سرير واحد بقيمة عشرة آلاف دينار شهريا لمدة شهر لصلاح على أن يبقى السرير الثاني من صلاحية مدير الفندق يؤجره لمن يشاء من النزلاء، تقبل صلاح الأمر على مضض، وفعلا لم يمض يوم حتى تم إيجار السرير المجاور لطالب في كلية الاعلام جامعة بغداد من محافظة

الديوانية الذي لم يتوافق معه لجديته، اصبحت علاقته به متوترة، لكن اختلاف وقت دوامه المسائي مع دوام غسان الصباحي قلل من فرصة تشاجرهما، شعر بالسخط والاحباط، وخيبة الآمل لحظة قدوم عاملة الفندق لغرفته لتنظيفها، لم يتوقع أن تكون امرأة عجوزا، كان يتوقع ان تكون ام سهام وابنتها، نظر في وجهها فتركت في نفسه شيئا من الحسرة على حرمانه من سهام.

بعد أن استقر صلاح في سكنه، ذهب إلى الجامع باحثا عن أخبار صديقه، الذي استقبله بحفاوة وخرجا يتمشيان في شارع الرشيد، ثم انعطفا إلى شارع المتنبي الذي أحبه عادل كثيراً بما يمثله من سوق ثقافي تزدهر فيه تجارة الكتب والقرطاسية بمختلف انواعها ومجالاتها، العدد الكبير من المكتبات والمطابع دائما ما يثير ذهوله، شعر بوجود تناغم روحي وسر غريب بين الكتب القديمة التي تملأ الأرصفة والمكتبات وبين المباني البغدادية العريقة التي تحتضنها، كأنه يسير على صفحات كتاب يحكي تاريخ بغداد، كلما تقدمت خطواته من مكان إلى آخر شعر أنه يقلب صفحاته، مفتخرا بانتمائه إلى هذه العاصمة التي كانت في يوم من الايام مناراً للعلم والمعرفة والحضارة لتبقى هذه الشوارع والأماكن شواهد شاخصةً للأجيال القادمة، اتجها يمران بمبنى القشلة وهما يجتازان مقهى ام كلثوم القديم باتجاه ضفاف نهر دجلة يتبادلان الحديث والشجون، بينما اخذت النوارس تبتعد عن الضفاف خائفة ثم يجبرها الجوع لتقترب منهما من جديد، فحتى النوارس تغيرت وهزلت بسبب الحصار فكيف ستحصل على فتات الخبز، وقد أختفى من أغلب البيوت، نزل عادل يتلمس مياه دجلة ثم حدث صديقه:

ـ هل صحيح ما ذكرته كتب الجغرافية أن لدجلة والفرات روافد تمدها بالمياه، أعتقد أن كتب الجغرافية لدينا مزورة مثل كتب التاريخ، ما اصاب هذا الوطن من حروب ومن تجويع جعل دموع ابنائه روافد لا تنقطع، انظر إلى لون المياه!

ـ ما به؟

ـ كأنه احمر.

نظر إلى النهر بأسى ثم اكمل:

ـ الانهار يا صديقي عيون الوطن شحبت عيون العراق وتحول لونها الازرق إلى احمر، من قال أن المياه انعكاس للون السماء، لماذا نخون حواسنا؟ انظر إلى سماء بغداد لماذا أصبحت منذ زمن بعيد حمراء؟ كل الاديان تعتقد أن الخلاص في السماء، لا أحد فكر بالمياه، قد تعود الارواح إليها.

اخذ عادل يبتعد عن صديقه مسافة بعيده بدون ان ينتبه الى نفسه انه قطع تلك المسافة وهو يتصبب عرقا، وبدت حرارته ترتفع، ودوار شديد يصيب رأسه، ثم اخرج قلادته من باطن قميصه يتفحصها، فانتبه الى فتاة نصف عارية تجلس على حافة النهر فوق مجموعة من الصدف والحصى الناعم، تمسك بمشط عاجي وتسرح شعرها، تناظر الماء ووجهها صوب النهر بينما يظهر له ظهرها مغطى بشعرها المنسدل براحة كبيرة، بينما يظهر نصف من نهدها الكاعب الصغير ويختفي النصف الامامي خلف ذراعها التي تمسك المشط، صاحت به بعد ان لفت جسدها بوشاح ابيض دون ان تلتفت نحوه:

ـ عادل! انتظرتك.

ـ بلقيس ماذا تفعلين؟

ـ اصطبغ بالنور

لم يفهم ماذا تقصد، فأردفت شارحة:

ـ كلما اجتاحتني الظلمة جئت دجلة لاصطبغ بمائها.

ـ تصطبغين؟

ـ نعم، اقصد اغطس واغط في الماء.

ـ تغرقين؟

ـ لا يا عزيزي الغرق ظلمات، بينما الاصطباغ نور وتوحيد وايمان.

ـ متى تحول النور والتوحيد والايمان من السماء الى الماء؟

ـ من يعرج إلى السماء يغرق ومن يرتل الماء يخلد.

ـ انت غريبة ومصطلحاتك اغرب، اخر مرة ذكرتِ لي الهيدرا؟

ـ الهيدرا بالأساطير الاغريقية ثعبان فضيع له سبعة رؤوس ما ان تقطع رأسا منه حتى ينبت اخر من جديد، استطاع هرقل قطع الرؤوس كلها بضربة واحدة، هكذا هو الثعبان الذي يتحكم بنا رأس يكمل رأسا، مهما حاولنا قطع احدهن نبت واحدا جديد، نحتاج لهرقل عظيم كي يخلصنا من هذا الثعبان الذي ارهقنا.

ـ فهمتك، لكني اعتقد ان الثعبان الذي تحكمنا لها رأس واحد.

ـ انت ترى ثعبانا واحدا، هناك رؤوس كثيرة تساعد هذا الثعبان على افتراسنا، الظلم يتجدد بنا، بدل ان نقطع الرؤوس نكثرها.

صمتا لدقائق ثم اردفت لقطع الصمت:

ـ سنغرق اكثر.

ـ كيف؟

ـ سيغرق جسدك اكثر واكثر، الحرب قادمة يا صديقي.

امسك عادل بساق قصبة يابسة وطفق يحرك صورتها التي تظهر بالماء، بينما هي تمشط شعرها بهدوء وتنظر نحو دجلة نظرة حزينة حتى اختفت.

***

أصبح عادل يتردد كل صباح على صديقه في سكنه الجديد بعد مغادرة غسان الذي يسكن معه الغرفة إلى دوامه، يأتي ليوقظه ثم يتناولان الفطور معا، دخلت عاملة الفندق العجوز حين كان عند صلاح الذي لايزال ممدداً في فراشه، حيتهما بابتسامة، أعجب عادل بها، فمزاجه لا يشبه مزاج صديقه في النساء، اتجهت أم فادي إلى الحمام لتبدأ التنظيف، همس لصديقه وهو يشير بحاجبه إليها، ضحك صلاح ونبس:

ـ يا شيطان عجوز بعمر أمّك.

هو لم يضاجع يوما امرأة، شعر أنه سيجد فيها ما حرم منه طول حياته، دائما ما يقول لصلاح مازحا: أنا رجل باكر، ثم وهو يرمز إلى ما بين أفخاذ النساء بشكل مازح: لا زال ذلك الشيء في خيالي مخلوقا غريبا وغير مرئي اسمع به ولاً اراه مثل الجن والشياطين، هو جاد حتى في مزاحه، فهو نادرا ما يضحك، صبغ الحزن كل الوان الفرح فيه، أصبح لا يلبس سوى هذا اللون في كل المناسبات، لكنه اليوم أمام فرصة ليشاهد

هذا المخلوق لأول مرة لعله يفتح باب الحظ عليه ليشاهد كل الاشياء غير المرئية الأخرى، أنها فرصة لمضاجعة امرأة وفك النحس لأول مرةٍ، أشار لصديقه لكي يخرج ويتركه وحده معها، فنهض صلاح وغير ملابسه ثم تكلم معه وهو يتقصد إسماعها:

ـ انا ذاهب لجلب الفطور.

أعلن صوت الباب الذي اغلقه صلاح خلفه، بدأ العد التنازلي له، فهو يقف مثل متسابق على خط البداية، منتظرا صوت مسدس الانطلاق، اتجه صوب الحمام، نظر إليها يتفحصها، شعرها المتجادل فيه اللونين الأسود والابيض مثل صراع الليل والنهار أو مثل صراع الحقيقة والزيف، الصراع الدائم بالحياة بين الابيض والاسود، تلملمه إلى اعلى رأسها بقطعة قماش صغيره تلف بها رأسها، تاركة نصوع بياض رقبتها يبرق، حول نظراته إلى دشداشتها البيضاء الضبابية، رغم كبر سنها يراها تملك جسدا نحيفا مثل جسد فتاة ثلاثينية، التهمها بعينيه وهي منحنية تمسح أرضية الحمام رافعة ثوبها الذي لملمته بطريقة مغرية في كلسونها الذي بانت ملامحه ولونه الأسود من خلف دشداشتها الشفافة، وقف يراقب سيقانها الملساء وهي تعمل بحركة راقصة، بينما داست اقدامه سرواله الذي خلعه بسرعة، قفز ليحضنها غير مبالٍ بردة فعلها بعد أن رمى سيجارته التي تدحرجت لتستقر مبللة في ركن الحمام، وهو يدفع بوتده بين ارادفها متشبثا بخصرها مثل غريق يمسك بقطعة تطفو بقربه، شعرت به منذ لحظة دخوله وأحست بخطواته، هي تملك من النباهة ما يضاهي عمرا من العوز والمعاناة، جفلت متظاهرة بالخوف وهي تصرخ، خاف وتراجع للخلف، بينما احتمت هي في إحدى زوايا الحمام وهي

تلهث واضعة يدا على صدرها واخرى فوق عينيها، سكن مكانه لا يدري ماذا يفعل، شعرت بخوفه وطفقت تداري الأمر كي لا تخسر ما ستحصل عليه منه، فلم يبق لديها زبائن بعد أن هرمت وأصبحت غير مشتهاة إلّا من القليل، اطرقت رأسها وهي تتكئ على ممسحتها، واخذت تسترجع اخر نظرة لزوجها يونان حنا الذي اعدم في سنة **1979** بتهمة العمل لجهة معادية حين كان يمتهن المحاماة بنجاح باهر حتى ذاعت شهرته وبرق نجمه في ذاك الوقت، بعد فقدانه امست تهتم بابنها الوحيد فادي الذي بلغ الخامسة عشرة من عمره، فنضبت سنوات عمرها تعمل في معمل للمشروبات الكحولية في الكرادة لتوفر لابنها كل ظروف النجاح، تمكنت من الايصال به إلى الجامعة التكنلوجية ليحصل على شهادة البكالوريوس في هندسة الكهرباء بعد تضحيتها بشبابها وحرمان نفسها من أبسط مقتضيات الحياة: « أرى الحياة في فادي» هذه العبارة مازالت في ذاكرتها، كانت ترد بها على من يعاتبها اهمالها نفسها، كيف تنسى ذاك اليوم الذي انتظم فيه ابنها في خدمة العلم الالزامية مجبرا بعد تخرجه، فذهب للحرب ولم يعد، فلا أحد يدري أقتل؟ أم هرب؟ أم اصبح اسيراً؟ كما هو حال الألوف ممن اختفت أجسادهم وأخبارهم وأحلامهم في ظلمة الحرب، فحين يختفي أحدهم ينقسم اصحابه وأقرباؤَه في تحديد مصيره فالأكثر تهمس بموته والبعض يتمنى أن يكون أسيراً، اما الأم فتجزم أنه لا زال حيا، ففي الحرب يخرج مصير الانسان بلحظة من سيطرة الرب ويتحول موته وحياته بيد الناس.

ـهي لا تدري كم هو الان عمرها، وكم احرقت من السنوات في انتظار عودة ابنها، كانت تردد بين النساء بأنها ستنتظره كما انتظرت الام

مريم ابنها، تغيرت كثيرا بعد فقدانه واتهمت بالجنون، نضب عطاؤها في العمل شيئا فشيئا، فطردت وعجزت عن ايجاد فرصة عمل أخرى، فلم يكن بيدها غير المتاجرة بجسدها الذي ركن سنوات طويلة على رف العفة والاخلاص للاب ورغبة بأن تكون الام التي يفتخر بها فادي، لكنها اليوم أصبحت امرأة عاطلة عن الامومة، سيدة رملتها المشانق وأخذت منها الحروب الدور الاخير الذي تمارسه، فما قيمة وأهمية الجسد؟ وكيف ستطعمه؟

ـ اكل من لحم ثورك.

هكذا خاطبت جسدها بعد أول ممارسة للبغاء وهي تبكي، التجأت لتعمل في بيت إحدى القوادات في البتاوين، بعد عجزها عن دفع ايجار شقتها لتصبح بين ليلة وضحاها بغيّا، وبعد مدة طويلة من الانغماس في هذه المهنة طردت من قبل القوادة، بعد أن شاخت وكبرت ولم يعد أحد يطلبها، التجأت إلى الكنيسة، فلم يسمع لها أحد بل جوبهت بالطرد، وانتهى الأمر بها كمنظفة في الفنادق عن طريق أحد زبائنها السابقين، الذي كان يودها كثيرا، حين صادفته أثناء مرورها في منطقة البتاوين بعد أن شكت له سوءَ حالها.

نظرت لعادل الذي يقف عارياً، ثم قالت وهي تحاول أن تطمئنه أو لتوصل إليه رسالة بأنها غير منزعجة:

ـ لقد اخفتني، المفروض تطرق الباب.

حينها تنفس الصعداء وتوصل معها إلى اتفاق بأن يضاجعها مقابل سبعمائة وخمسين دينارا، شرعت تعيد ممارسة نشاطها السابق وهي

تشعر- ربما بشكل مؤقت ـ أنها مازالت تلك الفتاة التي يتمناها الكثير، رفعت دشداشتها وخلعت كلسونها ثم نامت على ظهرها ورفعت ساقيها له، ما أن وقعت عينه على فرجها حتى اشمأزت نفسه، لم يكن ذاك المنتظر الذي وعد به، سرح قليلا وكأنه يتحدث معه: أنت الذي نعتوه بكل النعوت الجميلة، بهذا القبح يا ترى كيف يكون منظر الشيطان الذي ينعتونه بالقبح أصلا، لا اشك أبدا أنهم توهموا بين الاثنين، لا اقبح من هذا المسخ بين هذه الافخاذ المترهلة، وبدأ الندم يغزوه رويداً رويداً، إلّا أنه أصر على تجربة هذا التابو، أولج وتده وشرع يمتطيها إلّا أنه لم يشعر بلذة، فسحبه وركض صوب الحمام يتقيأ ندمه واشمئزازه، ما أن عاد حتى اقترحت عليه أن يضاجعها من الدبر، تذكر دبر الشيخ العجوز وابتسم هازئا بحظه، وقام يرتدي ملابسه ثم نقدها بسبعمائة وخمسين دينارا طالبا منها الخروج.

عاد صلاح يحمل كيس صمون مع قطعة من الجبنة المحلية، ما أن دخل واغلق الباب حتى أطلق قهقهة طويلة حين وجده يدفن رأسه بين يديه ويسندهما على فخذيه، كأنما يرسم له لوحة الندم، فخاطبه:

ـ أراك نادماً، أنت شخص غريب، لم تندم على ما فعلته مع الشيخ؟ هل سبب ندمك المال الذي اعطيته لها؟

سحب عادل نفسا عميقا بصعوبة وزفره في السماء شاخصا بصره نحو الشباك المطل على اكشاك وعربات الباعة الذين يفترشون الرصيف ببضاعتهم ويملأون الفضاء بنداءاتهم بينما افترش صلاح الارض بصحيفة (البعث الرياضي) واضعا فوقها الفطور مع قدحي شاي وجلس ثم التفت إليه يحدثه:

ـ تعال تذوق هذا الجبن الطازج وانسَ الامر.

ثم أردف بعد رشفة شاي:

ـ أنت تذكرني بطرفة اسمعها لعلها تغير مزاجك.

واخذ يسمعه الطرفة، بينما عادل غطّ في الضحك وكأنه نسيَ كل شيء.

(10)

عند ساعة المستنصرية الشامخة في مدخل الجامعة الرئيسي، بركائزها التي تعلو بناية المكتبة المركزية المجاورة لها، والتي تبدو من خارج السور مثل رجل بأرجل كثيرة طويلة يراقب الواقفين خلف الجدار، التقى صلاح بفارس واتخذا مقعدا في الشمس أسفل الساعة على مصطبة خشبية قرب الماء المنساب من النافورة التي كانت تعزف بمياهها موسيقي عذبة متواترة، كشف فارس لصديقه أنه سمع بوجود عمارة قديمة تسمى عمارة حجي عكَاب تقع في منطقة الطالبية، بعد عبور جسر القناة، أخذ يغير من جلسته وهو يزيل الكتب من على فخذه إلى جانبه واكمل:

ـ العمارة تحتوي على عوائل وطلبة، وسمعت عن بعض العوائل فيها تمتهن البغاء بشكل سري وحذر.

اتسعت عينا صلاح مستغربا وخاطبه:

ـ وكيف اسكن في عمارة مثل هذه؟

ـ لمصلحتك فالعمارة قريبة وممكن ان تأتي إلى الجامعة مشيا بدون ان تخسر اجرة، كما وان ايجارها زهيد وسأدفع معك نصف المبلغ دون ان اسكن معك؟

ـ أيا شيطان

قالها بعد ان هز رأسه، ضحك فارس وصاح:

ـ عملية

ضربا كفيهما ببعض وخرجا من الجامعة، متوجهين إلى العمارة القريبة منها، لكن المفاجأة كانت تنظر صلاح في بوابة الجامعة، حين صاحت عليه فلورا، التفت نحوها تقف خائفة في زاوية منعزلة ترتدي ملابس سود ونظارة سوداء، بوجه ذابل لم يكن ذلك الوجه المتورد الذي عرفه، أستأذن من صديقه وذهب نحوها فنزعت نظارتها ورحبت به:

ـ هلو صلاح

ـ هلو فلورا البقاء بحياتك

مدته بظرف واردفت:

ـ ارجوك لا استطيع البقاء كثيرا، خذ هذا، هو لك فقط لا احد يستطيع الاطلاع عليه، حافظ على ما في داخله، وداعا.

ـ فلورا .. فلورا

لكنها خرجت وهي تعيد نظارتها السوداء الى عينيها، تسمر صلاح في مكانه بينما فارس ينظر إليه منذهلا وراح يسأله:

ـ ما بك؟

لم يجبه ومازال ينظر خلف خطواتها، فعاد فارس يخاطبه:

ـ صلاح ما الامر من هذه؟

اجابه وهو يضع الظرف في جيبه:

ـ لا تهتم هذه بنت عمتي توفى والدها وجاءت لتخبرني وهي تسلمني امانه خاصه بالعائلة.

ـ البقاء بحياتك.

ـ لا تهتم دعنا نذهب.

ركبا باص إلى منطقة الطالبية رغم قرب المسافة، وبعد عبورها الجسر المنحني فوق القناة التي تزين ضفافها ازهار القصب المتراقصة مثل الاجراس على ايقاع الرياح التي تهب متقطعة بأنثوية تشبه مشية فتاة، نزلا أمام العمارة، أشار فارس إليها وقد بانت لهما في مظهرها الخارجي عبارة عن مجموعة محلات لصيانة السيارات، بطابق ارضي وعلوي تمتد بشكل أفقي لمساحة كبيرة، تتوزع المحلات في الطابق الارضي بشكل دائري حول محيطها من كل الجوانب ماعدا الجانب الذي يلاصق العمارة الصغيرة المجاورة لها والتي تفصل بينها وبين مطعم كبير للأكلات السريعة، وطابق علوي يحتوي على عدد كبير من الغرف، منظر الشرفات مثيرٌ للشفقة، حجبت نوافذها بحواجز من قطع خشب قديمة وقذرة أو من صفائح صنعت من القصب والبردي ربطت بالحاجز الحديدي المتهاوي لتهيئ الشرفات لتكون مكاناً للطبخ بسبب صغر حجم الغرف، اشمأزّ صلاح من منظرها وهمس لصديقه:

ـ كأننا في منطقة الشيخ عمر!

وقبل أن يرد فارس على استيائه لفتت انتباه فتاة تخرج من داخل العمارة، بدت له تناهز الثامنة عشرة من عمرها تضوع انوثة، تسير مثل سحابة ربيعية، بينما خصلات شعرها ترفرفان مثل اذناب جانبية لطائرة

ورقية، اعترض طريقها ليسألها عن مكتب صاحب العمارة، توقفت لتشير إليه إلى الطابق الاول:

ـ حجي عكَاب أول غرفة على اليسار.

اخذ فارس يغمز لصديقه وهمس بأذنه (عملية) أثناء اجتيازهما مدخل العمارة وهما يصعدان درجاً اسمنتياً قذراً، غزت رائحةُ البول انفيهما، بدت السلالم خشنة غير مطلية لم ترَ الضياء ولم يلمسها الماء، وفي منتصفه وجدا طفلة صغيره متسخة الشعر والملابس حافية القدمين تجلس وسطه، تضع في فمها بطارية صغيرة وقديمة، بينما هناك تحت انفها ذبابتان يتضاجعان بطمأنينة، واثناء انشغالهما بها، مر من قربهم نعل نسائي طائر تبعه صراخ امرأة ثم رجل ينزل مهرولا يحاول ان يحكم ازرار قميصه لحظة شاهدهم، وجدا باب غرفته مفتوحا، استقبلهما مرحباً بهم واجلسهما قبالته، اخذ الاثنان يتفحصانه، بدا لهما شيخا ودودا وهو يرتدى الدشداشة والغترة والعقال بعمر يناهز الخمسين، نهض من مكانه واخرج رأسه من النافذة وشرع ينادي على صبي تحت العمارة ليجلب لهما الشاي، عاد للجلوس وهو يعدل غترته يرفعها فوق عقاله، ثم سألهم بطريقة المتيقن:

ـ طلاب؟

وما أن أومأى برأسيهما إليه حتى طفق يتحدث لهم عن الطلبة الذي سكنوا العمارة حاليا وسابقا ويعدد اسمائهم ومحافظاتِهم وجامعاتِهم، وعن العلاقة الوطيدة بين العوائل والطلبة، ثم أشار متفاخرا عن قيام أحد الطلبة بخطبة إحدى بنات العمارة، وعلى طول الحديث، هناك اصوات

من الطرق والصياح والضحك من تحت العمارة تملأُ مسامعهم وكأنهما جالسان في ورشة صناعية، ما أن افرغا قدحي الشاي حتى صاح على إحدى نزيلاته:

ـ أم عماد تعالي.

اتسعت عينا فارس وهو يشاهدها في الثلاثين من العمر برقبة بيضاء وصدر نصف مكشوف وشال شفيف يسقط كل لحظة على رقبتها ثم تعيده بإهمال مقصود، اقتربت بجسدها الممتلئ المتراقص التفاصيل والبائن التضاريس من تحت دشداشتها الخفيفة الضيقة التي تكشف عن زندين يلتمعان بضياء بشرتها، تخطو امامهما ببطء مثل وزة بعد أن طلب منها حجي عكَاب قيادتهما لمشاهدة الغرف، نهضا خلفها، وانشغل فارس بالحركة المثيرة لردفيها وهما يجران بتمرد ظاهر دشداشتها الخفيفة، اوحت حركتهما له ان هناك جبلين يسعيان لتمزيق الغيوم بقممهما المتحركة، ويغطس كلسونها بينهما مثل غريق بين موجتين متخاصمتين كاشفا عن لونه وتفاصيله، اشار فارس لصديقه بحركة أوحى له بكلمة (عملية) ،بينما هي تحدثهم بترغيب وهي تصف لهما العمارة وميزاتها مشيرة إلى ما يمتاز به ساكنوها من طيبة وبأنهم يكنون للطلبة كل الاحترام ويقدمون لهم كل المساعدات، توقفت واستدارت نحوهم واضعة يدها على صدرها واكملت بصوت خفيض وهي تغمز بطرف عينيها:

ـ انصحكم بالغرفة التي تقع جوار غرفتي.

وافق فارس على عرضها في داخله لكنه أراد سبر أغوارها، فطلب

منها قيادتهم لكل الغرف غير المشغولة، بدت لهما العمارة من الداخل واسعة المساحة، تتكون من أكثر من سلم يقود كل واحد منها لجناح يمتلئ بغرف على جانبيه، وفي نهاية كل ممر هناك حمامات مشتركة، اكملا جولاتهما الاستكشافية للغرف ليختارا بالأخير الغرفة المجاورة لغرفتها، وقف صلاح في وسط الغرفة الخالية من كل شيء يتفحصها، بينما اتجه فارس إلى النافذة الوحيدة الخالية من الزجاج، يستطلع المكان، قاطع صلاح ثرثرة أم عماد المستمرة وهو يطلق دخانه إلى الجدار المتشقق مثل البرق:

ـ الغرفة جيدة المساحة لكن جدرانها متسخة وتثير الاشمئزاز.

ثم تجاهلها ولم ينتبه لردها بعد اشارة من صديقه، متوجها جنبه، ليكتشف أن النافذة تطلع على تجمع كبير لفتيات بشكل مغرٍ جدا، يظهرن شعرهن بملابس ضيقة ومغرية، تكشف عن السيقان والزنود، مدّ فارس يدَه بشكل خفي لساعد صديقه يقرصه، ثم التفت نحوها وسألها بمكر، وهو يشير إلى أسفل فأجابت:

ـ هذه حنفية الماء الوحيد بالعمارة.

ـ يعني مسموح ننزل للحنفية؟

أجابت على سؤاله وهي تظهر ابتسامة توحي له بأنها فهمت قصده:

ـ طبعا أذا غايتكما الماء وليست حواريه.

اتفقا مع حجي عكَاب على أن يكون الايجار الشهري للغرفة عشرة الاف دينار، بعدها توجها إلى المطعم القريب من العمارة ليتناولا العشاء، كان فارس جذلا بهذا الاكتشاف، طلبا شطيرتين من الفلافل وقدحين من اللبن المدخن وجلسا على طاولة تزاحم رصيف الشارع، تحدث فارس

بعد أن أكل نصف شطيرته بأن عليهم ان يظهروا حسن نواياهم، لكن صلاح لم يهتم لكلامه، لم يكن متحمسا للمكان، بالإضافة الى انشغاله بالظرف الذي في جيبه، يا ترى ماذا يوجد في هذا الظرف؟.

(11)

نهض عادل من نومه منهكا، كان الأرق ضيفه بسبب التفكير بأم فادي وفعلته المقرفة معها، تألم كثيراً وهو يتذكر جملة صلاح (أنها بعمر أمّك)، حضرت أمّه في ذهنه، فقد مرت ستة اشهر بأكملها على اخر زيارة لأهله حين شدتْ على يده ليجتهد ويحقق النجاح في دراسته، أحس بتأنيب ضميره لأنه لا يستطيع إخبارها بأمر فصله من المعهد، كلما أراد أن يغمض عينيه ظهرت له أم فادي، انشغل يفكر متسائلا ما الذي دفع بهذه العجوز المسكينة لتبيع جسدها المترهل، وكيف يبيع الانسان جسده مثل الحاجات المنزلية القديمة والفائضة؟ اين زوجها واولادها؟ ثم نظر من النافذة وكان الليل شديد الظلام وشعر ان هذه الليلة تشبهه ظلماءَ كالقبر، صار يعتقد بأنه قبر يحمل جسدا قذراً، ولا يدري ماذا سيفعل بنفسي غدا، ثم نشج بصوت عالٍ وقد بللت دموعه ملابسه وندمه وحيرته، فهو في حيرة كبيرة، كيف يتخلص من الشيخ وبدونه لن يحصل على النقود والطعام والسكن؟

نهض من فراشه يرفع جسده الذي شعر بثقله على غير المعتاد، هذا الصباح ينتظره عمل كبير وعليه تهيئة الجامع لصلاة الجمعة، وتنظيف وغسل الرواق والقاعة الخاصة بالصلاة وتهيئة المتطلبات الأخرى، أتم عمله بسويعات قبل توافد المصلين الذين راح يراقبهم وهم ينتظمون إلى

اماكنهم بشكل تراتبي بصفوف يكمل بعضها بعضاً، مثل قطع المكعبات الملونة التي يرتبها الاطفال، إلّا أن الفرق أنهم بلون واحد في ظاهرهم على عكس دواخلهم فيحمل كل واحدٍ منهم في داخله عشراتِ الالوان، شرعوا يتسابقون إلى الاماكن الأمامية، فالاعتقاد يحفزهم لتلك الاماكن لأنها تضاعف الأجر وبالأخص الجهة اليمنى للشيخ، امتلأت القاعة عن بكرة أبيها بالمصلين وضج فضاء المكان بأصواتهم، وابصر رجلاً يدخل القاعة، يحمل على كتفه مضخة وفي يده دوش يرش المصلين بماء الورد، نظر إلى رذاذ الماء الصافي الذي يصعد في الفضاء ويعلو فوق رؤوس المصلين، وشعر أن الماء يتلوث بكلامهم الذي يملأُ الفضاء.

امتلأت القاعة بالصلوات بعد دخول شيخ فتحي وأخذ المصلون يحيطون به من كل مكان يقبلون رأسه ويده، نظر إليه وهو يسير بينهم مزهوا تنحني له الرؤوس والاعناق وتستقيم له الايدي، فحضرت في ذهنهِ صورتهُ، كيف كان يتودد له ويتوسل به لكي يضاجعه، شعر بالعطف عليهم وتمنى أن يصرخ بصوت عال ليسمع جمعهم الغفير بأن الذي تصلون خلفه ليس أكثر من شخص قذر وشاذ ومقرف، قطعت أصوات الجموع افكاره وهم يحيون شيخهم بعد صعوده المنبر، أنشد أحد المصلين ممن يتخذ مكانا في الخط الاول للمصلين شعراً فصيحا، نال استحسان الشيخ والمصلين، مسد الشيخ على لحيته ونظر إلى المصلين نظرة حادة حولت بلحظة الضجيج إلى صمت رهيب، لتشخص عيونهم وقلوبهم نحوه، بسمل وحمد وقرأ أية قرآنية (ويسالونك عن الخمر...) ما أن سمع عادل الآية حتى فغر فاهه مذهولا!، ومتفاجئاً بنفاقه، كيف ينهي على منبره عن الخمر وهو لا يفوت ليلة دون شربها، وكيف يشربها

في الجامع ويحرم شربها في الاماكن الاخرى، حزنَّ على الجموع التي تحرك رؤوسها وأيديها وهي توافقه وتبارك خطبته، ثم فكر بالمصلين وما تخفيه نفوسهم، شعر ان ما يخفون من القبح قد يكون اعظم مما يخفيه شيخهم، ثم تساءل كيف لبيوت تدعي الانتماء إلى الله أن تكون بهذا النفاق؟ وجوه خاشعة بملابس غالية معطرة ترتدي أفضلها وافخرها بينما النفوس متسخة ويغشي شغافهم السخام، كم سارقٍ يختبئ بينهم؟ كم غاصبٍ؟ كم ظالمٍ؟ كم مخادعٍ ومزورٍ وغشاشٍ؟ وكم؟وكم؟ والسؤال الاهم: كم نظيفِ نفسٍ وقلبٍ بينهم؟ شعر أنه لن يجد واحدا، فهو يعتقد ان القلوب والنفوس النظيفة تكون هناك في اكواخ الفقراء والمحرومين، ثم قطع الشيخ على عادل حديث الوجدان حين أعاد ذكر الآية من جديد وهو يلوح بسبابته (ويسالونك عن الخمر....)فصاح عادل في ذاته مكملا الآية بشكل عفوي (...فقل عرق فل)، وشرع الشيخ يزجر محذرا شاربي الخمر متوعدهم بسوء العقاب صارخا بأعلى صوته وهو يمد بحروف نهاية الكلمات: أن شاربي الخمرة سيخسف الله بهم الارض ويجعل منهم القردة والخنازير، هم من الآفات الخطرة التي تهدد المجتمع ولقد تساهل كثير من الناس في أمرها في هذا الزمان، وقد أخبرنا النبي أن من أشراط السَّاعة أن يشربها أقوام من أمته ويجاهرون بذلك وقد يسمونها بغير اسمها، وفي هذه خطبتنا بيان لشيء من مفاسدها الدنيوية وأخطارها الدينية.

لا يكاد عادل يصدق كيف للإنسان أن يكون بهذه الدرجة من الدجل، كم تمنى أن يعتلي المنبر ليصرخ بهم ويحدثهم عن شيخهم الذي يقتدون به ويصلون خلفه بأنه لا يفوت يوما دون شرب العرق، شيخهم الذي

ينهي عن الخمر أمامهم يشتريه بأموال الفقراء والمساكين والمحتاجين، بأموالهم التي يتبرعون بها للجامع، بأموال الزكاة التي يضعونها في الصندوق، أن شيخكم لا يشرب الخمر ويسرق اموال الفقراء فقط، بل بأموالكم يلقم دبره، أموال الفقراء تتحول غذاء للدود الجائع في دبره، الذي أصبح مثل مغارة علي بابا كل الاموال المسروقة تدخل فيه، هذا الدبر لا يفتح بكلمة سرية كما كان يفعل علي بابا، لا سمسم ولا عدس..!، نادى المؤذن للصلاة فقطع على عادل خطبته التي كان يلقيها أمام جوارحه وعلى منبر نفسه التي تنشج وجدا.

انتهت الصلاة بعد خطبة ثانية تطرق فيها الشيخ إلى ضرورة أن يحافظ المؤمنون على وطنهم رافعا سبابته وهو يقول حب الوطن من الايمان، طالبا من الجميع الدفاع عنه بالغالي والنفيس، واخذ يشجب الحصار المفروض مطالبا المصلين بأن يظهروا للعالم ما يسببه من موت للأطفال بسبب قلة الغذاء والحليب والدواء يلقي باللوم على اليهود ومن يساندهم، أمرهم أن تكون اموالهم في خدمة الوطن وفقرائه ومحتاجيه، داعيا الله أن يحفظ قائد الحملة الايمانية عبدالله المؤمن الرئيس صدام حسين، بعد ان سمع عادل الخطبة الثانية حضرت في ذهنه رؤوس الهيدرا التي حدثته عنها بلقيس، وبان له ان رجال الدين المؤيدين للسلطة هم رأسٌ من تلك الرؤوس.

خرج المصلون من الجامع الواحد تلو الاخر يودعون شيخهم، ما خلا بعضهم ممن احتاجوا لطرح مسالة شرعية أو استشارة فقهية، نادى عليه بعد أن فرغ الجامع إلّا منهما طالبا اياه بفتح صندوق الزكاة بعد أن ناوله المفتاح من جيبه، أخذ يفرغ الصندوق الحديدي بطلائه الابيض

وقفله الذهبي على جانبه الايسر أمام شيخه الذي جلس أرضا يعد النقود ويرتبها من أكبرها إلى أصغرها، ثم عزل منها مجموعة وناولها له وخاطبه دون أن ينظر إليه:

ـ اشترِ عرقا وكيلو خيار وكيس لبن ناشف وفواكه والباقي لك.

ثم خرج وقبل أن يغلق الباب صاح:

ـ لا تنسَ تنظف الجامع.

ـ رد عليه في داخل نفسه: الجامع يجب أن ينظف منك ايها القذر.

(12)

في دروب المتاهات نضيّع حلما جميلا او نكتشف في اعماق هذا الوجود لؤلؤا مكنونا، أننا احجار شطرنج تحركنا اياد خفية من مربع ابيض الى اسود وبالعكس، لكن الابيض والاسود اختلط علينا ولا ندري متى تنتهي لعبة الوجود اللعينة؟ خاطب صلاح نفسه وهو يلملم أغراضه التي كانت عبارة عن ملابس وحذاء جلد ماركة علاء الحداد، وراديو قيثارة عراقي الصنع أحمر اللون، وعلبة زيت شعر املا بجوز الهند وشامبو ياسمين، وسخان كهربائي صغير وبعض اواني الطبخ البسيطة، ومجموعة كتب ومجلات وجرائد وملازم دراسية وكتيب للفتاوى الميسرة، وحشرها بقسوة داخل حقيبة قديمة وكبيرة، ليغادر الفندق إلى سكنه الجديد عمارة حجي عكَاب برفقة صديقه فارس، وقبل ان يغادر جلس على طرف سريره واخرج الظرف من جيبه وراح يقلبه وهو يتسأل يا ترى ماذا يخفي هذا الظرف ولماذا اشعر بخوف غريب منه واتردد في فتحه، اغمض عينيه واخذ يفتحه رويدا رويدا، فوجد ثلاث اوراق كانت مكتوبة بخط واضح وبعناية، مد اصابعه ليلتقط الورقة الاولى، ثم ففتحها:

الورقة الاولى

(ايها الطويل والخجول، لماذا لم تأتِ قبل غياب النهار في روحي، وقبل ان تنهشني ذئاب الليل وتمزق اشيائي الحبيبات، ايها المختلف بين

سكان هذه الغابة التي يسمونها جامعة، اسلمك حياتي لتكون بين يديك، اقرأها بهدوء وكلما تقدمت في قراءتها كلما نبذتني اكثر، اليك هي: منذ الايام الاولى لي في الجامعة، وقعت في حب حسن الحوراني، هذا الشاب الذي توهمت ان روحه اجمل من شكله البشع، الذي كنت لم أرَهُ بشعا قبل زوال الغشاوة عن عيني، وهو اليوم الذي اكتشفت فيه حقيقته، عشت معه اياما من السعادة الواهمة، كنت فيها ابني احلامي فوق رمال من الخداع والكذب، امنت به وصدقته وسلمته كل شيء، بمرور الايام كبرت احلامي وكبرت علاقتنا، وحين اقتربت نهاية المرحلة الدراسية الاولي، كنت لا اصدق اني سأبتعد عنه خلال العطلة الصيفية، كنت ثملة بحبه لحد الجنون، وحين كان يقترح عليَّ مرارا وتكرارا الذهاب معه الى شقة صديقه القريبة من الجامعة، كنت ارفض بإصرار، ولكن مع اقتراب العطلة ضعف اصراري وذهبت معه بعد ان اقسم لي بان يحافظ عليَّ، ولا يجبرني على اي شيء حتى انه قال بالحرف الواحد: « لن اخذ منك غير ما ترغبين بإعطائه لي»

لكن حدث ماكنت اخافه واخشاه، ولا ادري لحد هذه اللحظة هل حقا كنت ثملة وفقدت قوتي ووعي، أو انه وضع لي مخدرا في العصير الذي قدمه لي، بكيت كثيرا وانا ارى الدماء تملأ الفراش، لكنه اسكتني ووعدني بأنه سيصلح غلطته، وصدقته ولكن).

انتهت الورقة الاولى امام دهشته واخذ يعيد الورقة الاولى داخل الظرف واستخرج الورقة الثانية وهو يريد ان يعرف ماذا هناك بعد (ولكن)، ولكن قدوم فارس اجبره على اعادتها للظرف بشكل سريع ومرتبك، اعاد الظرف لجيبه واخذ حقيبته وغادر مع صديقه، استقبلتهما

أم عماد وطالبتهما بترك اغراضهما، والانتظار في غرفتها بينما تقوم هي بتنظيف الغرفة، دوّن فارس في ورقة صغيرة ما يحتاج لشرائه للغرفة، ضج الجناح بالنساء من جيرانهما يرحبن بهما وهن يعرضن عليهما ما يحتاجان إليه من مساعدة، أم هيفاء امرأة عجوز تعرَف نفسها مع ابنتها التي تبلغ الحادية عشرة وهي تتحدث عن زوجها المقعد واربعة اولاد يصغرون هيفاء مصابين اثنان منهم بخلل عقلي، ثم دخلت أم تمارا لتلفت انظارهما بأناقة ملابسها وبشعرها المشقر المتناثر على كتفيها بشكل جنوني وفوضوي بينما تدلت خصلات من خلف عنقها لتتمدد إلى صدرها، بوجه دائري وميك آب خفيف يظهر ترف الشفتين والخدين والعينين الناعستين بلونهما العسلي تتموج الانوثة في بحرها وهي تسير نحوهما بغنج ودلال بجسد كأنه صنع بعناية فائقة وبتفاصيل دقيقة فالنهدان المكتنزان يرقصان على صوت اقدامها حين تسير، بينما الخصر بخنوع يسمح للردفين باغتصاب مساحة شاسعة من فضاء جسدها وبشكل مغرٍ، همست بدلال:

ـ هلو.

وهي تعيد خصلة هوت على طرف ثغرها حتى كأنها تبللت بشفتيها الرطبتين وهي تحركهن مرحبةً بهما وتدعوهما للغداء في غرفتها، ثم دخلت عليهما أم حنان برائحتها الزنخة وهي تعرَف نفسها وتشير إلى غرفتها التي تقع في نهاية الجناح والمجاورة للحمامات بدت لهما أكبر بقليل من جارتهما أم اياد.

اخذ صلاح يخرج أغراضه ويفترش الارض بملاءة قديمة، ثم اختار

ركناً من الغرفة وضع فيه السخان وأواني الطبخ وعاد فارس محملا بما ابتاعه من احتياجات للغرفة، ثم أخذ اناء كبيرا وتوجه إلى تحت العمارة ليجلب الماء ولكي يتعرف على الفتيات عند حنفية الماء، استقبل بابتسامات وترحيب كبير من قبلهن وهن يفسحنَ المجال له ليملأَ اناءه، بينما صديقه يراقبه من النافذة، وعندما عاد صاح فارس:

ـ انا بين كل هذه الفتيات حلم، وبنفس الوقت انا بالنسبة لهن حلم.

فلم يعجب كلامه (صلاح) فسأله:

ـ الا تتعاطف معهم؟ إلّا تشعر بطيبة قلوبهم؟ هؤلاء ناس انقياء ولا ينقصهم إلّا المال، الفقر أكبر مجرم يعيش بيننا دون محاسبة أو عقاب.

ـ والشرف؟

مطَّ صلاح شفتيه باستهزاء ورد بحزن مفاجئ:

ـ الشرف؟! من يتحدث عن الشرف أنت أم أنا؟ أي شرف هذا الذي قادنا إلى هنا؟ نحن لم نأت إلى هنا مجبرين على عكسهم، هم لا يفعلون غير أشياء مجبرين عليها، ليس بيدهم الخيار، هل نظرت في عيني أم هيفاء أو إلى جسد ابنتها الهزيل، أو فكرت بزوجها المقعد أو اطفالها المرضى؟

قاطعه فارس وهو يملأُ ابريقا من الاناء الكبير:

ـ اهوووووه ما هذه الكآبة، لا تعكر الاجواء، انت تناقض نفسك.

ـ أنا وأنت والجميع في وسط هذا الضجيج من النفاق والكذب تصيرنا متناقضين، لا يمكن نكران ذلك.

حمل فارس الابريق واتجه صوب الحمامات فشاهد فتاة في الغرفة الاخيرة تقف بباب غرفتها، بيضاء تناهز السابعة عشرة من العمر بخصلات تحرس عينيها النرجسيتين وتغطيهن رموشا كثة بثغر طفولي ينبت فوقه الزغب، نظر لها فابتسمت بخجل مغرٍ وتكلمت بصوت خافت وهي تتلفت خلفها:

ـ هلو اسمي حنان

رد عليها دون أن يتوقف:

ـ اهلا تشرفنا

أكمل طريقه إلى الحمامات التي بانت له عبارة عن فواصل من الجدران، لا تحتوي على ماء ولا اضاءة ولا ابواب ولا نوافذ للتهوية أو مفرغات هواء، استغرب كيف تكون مشتركة بين النساء والرجال وهي خالية من الابواب، ثم انتبه إلى ستارة متسخة معلقة على جانب الحائط، سحبها ليقضي حاجته بشكل مرتبك وقلق يكاد يختنق بروائح البول والبراز، عاد لغرفته منزعجا يشكو لصديقه الوضع المزري للحمامات، يدفع باب غرفته دون استئذان ليقطع شكواه، دخلت أم تمارا تضع يدها على خصرها وتتكلم بدلال:

ـ اهلا بجوارينا، غرفتي هي غرفتكم، أتمنى أن تأتوا لنشاهد التلفاز معا، أبو تمارا طلب مني قبل نومه أن اطمئن عليكما، هو ينام من وقت لا يحب السهر، اليوم فلم السهرة على تلفزيون الشباب لأوستن باورز (الجاسوسة التي لعقت قضيبي)، ثم تبعت كلماتها قهقهةٌ عالية وهي ترمق السخان المتسخ بحبات العدس والرز بنظرة احتقار مغادرة الغرفة دون غلق بابها.

طفقا يقفزان مثل صبيين فرحين، رقص فارس بمرح كبير على طقطقة اصابع صلاح، ثم أخرج سيجارة وأشعلها وعيناه ترمقان صديقه الذي قال:

ـ عرض مغرٍ.

ابتسما جذلين ثم نهض فارس وهو يعدل هندامه:

ـ لقد تأخرت، عليَّ العودة للفندق

ثم رمقه بنظرة ماكرة وأردف:

ـ استمتع بفلم السهر مع الجاسوسة.

بعد عودة صلاح من غرفة ام تمارا، تذكر الظرف، مد يديه في جيبه فلم يجده، استغرب عدم وجوده، فاخذ يبحث عنه في كل اغراضه، لكنه لم يجد، صار يتحدث بصوت عالٍ مع نفسه: (اين اختفى) شعر بحيرة ممزوجة بالحزن، جلس على عجيزته واخذ يدفن راسه بين يديه: هل سقط مني في الطريق، او في الاقسام الداخلية، اه يا ويلي لو وقع بيد حسن الحوراني، ثم تذكر غرفة ام تمار وتمنى ان يكون في غرفتها، لكنها اكدت له حين سألها صباحا بانه غير موجود.

(13)

اشتاق صلاح لعادل فقرر زيارته بعد الانتهاء من محاضراته المسائية، فرح عادل كثيرا وهو يراه بعد غيابه عنه لمدة اسابيع، أخذه بالأحضان معاتبا غيابه الطويل، ثم دعاه للدخول لغرفته في الجامع، رفض وطلب منه أن يذهبا إلى أقرب مقهى، إلّا أن إصرار عادل دفعه للدخول، تفحص الغرفة يتنقل بنظراته من مكان إلى آخر أثناء انشغال عادل بوضع ابريق الشاي على السخان وهو يسأله:

ـ كيف حال سكنك الجديد؟

حدثه عن العمارة وساكنيها، واخذ يغريه لترك الجامع والسكن معه في العمارة ومن ثم البحث له عن عمل:

ـ قدومك معنا لا يؤثر على إيجار الغرفة، فنظام العمارات يختلف عن نظام الفنادق تؤجر الغرفة بمبلغ ثابت دون تحدد لعدد الاشخاص.

انبسطت أساريرُ وجهه بالعرض، ودنا منه بعد أن وضع قدح الشاي أمامه، وقد انحدرت من عينه دمعة لتستقر على خده مثل قطرة مطر تتدحرج على نافذة، قبل أن يتحدث:

ـ تعبت يا صلاح تعبت ألعن أبو الجامع لا أبو الشيخ.

اثناء تلك الاوقات دخل الشيخ إلى الجامع على غير عادته بأن يأتي

في هذا الوقت، ولم يشعرا وهما يتحدثان بصوت مرتفع بقدومه، فما أن وطأت قدمه الرواق حتى سمع أصوات من داخل الغرفة، حينها أدرك أن هناك ضيفاً عند عادل، فسرت الشكوك لرأسه وشعر أنه يخونه مع شخص ثانٍ، وعادت لذاكرته خيانته لشيخه حين كان يتردد في جامع منطقته في البصرة، تغيرت ملامح وجهه غضبا ودنا أكثر من النافذة يلصق اذنيه على زجاجها محاولا سماع حديثهم، فجاءت الكلمات تملأ اذن الشيخ (ألعن أبو الجامع لا أبو الشيخ)، جن جنونه وقرر اقتحام الغرفة لكنه تردد، ثم خرج غاضبا مسرعا دون أن يشعُرا بوجوده.

اقتنع عادل بفكرة الهرب من الجامع والسكن مع صديقه، لكنه شعر أن الموضوع يحتاج لوقت من التفكير والتدبير، هكذا تحدث مع صديقه وهما يخرجان معا من الجامع صوب تقاطع الرصافي ثم انعطفا لشارع الجمهورية حيث تمر الباصات إلى مرأب باب المعظم، عند وصولهما إلى شارع الجمهورية لفتت نظرهما سيارات الشرطة التي تطوق فندق البحري مع تجمهر عدد كبير من الاشخاص وهم يقفون بشكل مزدحم قرب بابه، اخذهما الفضول فانحرفا بسيرهما باتجاهه ليستفسرا عن ما يجري؟!

***

سار شيخ فتحي باضطراب دون أن تكون هناك جهة مقصودة أو محددة، اصبح جُلّ تفكيره يصب في طريقة مناسبة للانتقام من عادل دون أن يعرف بذلك خوفا من افتضاح أمره، وأثناء سيره لمحت أمام عينيه الشعبة الحزبية التي كانت أول محطة استقبال له يوم قدومه للعاصمة،

والتي صار لزاما عليه زيارتها بشكل دوري أو استدعائي، توقف وهو يبتسم ابتسامة صفراء، فقد حبل سيره بفكرة خبيثة أخذت تملأ رأسه مثل قدح الماء من أسفل رأسه إلى اعلاه حتى فاضت بالنضوج بلحظة وقوفه أمام الشعبة، استدار نحوها ودخل ليستقبله الرفيق سالم خنجر مصافحا اياه بحرارة وهو ينادى له بقدح شاي، أزِفَ شيخ فتحي منه ثم همس:

ـ هناك أمر خطير ومهم، جئت لأخبرك به.

تفرس في وجهه واتجهت حواسه نحوه، لعله يحظى بإخبارية مهمة يحصل على اثرها على مكافأة مادية أو معنوية وخاطبه:

ـ تفضل شيخنا خيرك!

ـ الموضوع حساس ومهم وأنا لا اريد مشاكل، عليك أن تعدني بما سأخبرك به، يجب أن لا يعرف به الشخص المقصود أو من يعرفه.

انفرجت شفتاه عن ابتسامة وأردف بحزم:

ـ تحدث هذه الامور سرية ولا يمكن أن يعرفها أحد.

فتمتم الشيخ بحمد الله وصلى على نبيه، ثم أردف:

ـ اود اخبارك بخصوص طالب من محافظة بابل جاءني في إحدى ايام شهر رمضان وقت صلاة المغرب بعد انصراف المصلين، وركع بين يدي باكيا يطلب مساعدتي، استمعت لمشكلته وتعاطفت معه، فأسكنته في الغرفة الخاصة لي بالجامع، مقابل القيام بواجب الحراسة والتنظيف وتهيئة الامور الاخرى، كما كنت أضع بين يديه مبلغ يكفيه معيشته، إلّا أن هناك اناسا لا ينبت الخير في داخلهم ولو كانوا في بيوت الله، وكأن

طبع النكران يسري بدمائهم، يرفضون العيش الكريم بنفس نقية طاهرة تحب الخير للآخرين وللوطن ولنفسها.

صمت الشيخ قليلا وهو يسحب عباءته ويعدل غترته بينما رفيق سالم يستمع إليه وهو يدعك عقب سكارته في المنفضة، وبعد تنهيدة أطلقها الشيخ اكمل:

ـ لقد اكتشفت يا سيدي أن هذا الصعلوك معادٍ للقائد والحزب والوطن!

ـ كيف؟

بعد خطبة الجمعة الاخيرة، التي طالبت فيها المصلين بشجب الحصار الظالم والتضحية بالغالي والنفيس للوطن وأنا آمرهم بمساعدة الفقراء والمحتاجين، جاءني مبدياً رأيه بالموضوع يطلق نباله على الحكومة وبأنها السبب الرئيسي وراء الحصار وانتشار الفقر والجوع، فأعطيته الامان لأعرف ما يدور في رأسه، فتكلم مثل كلب مسعور عن القائد والحزب، ومنذ ذاك اليوم وأنا لا يهدأ لي بال لوجود هذا الصعلوك الممتلئ حقدا وكرها لعزنا قائدنا ولوطننا الحبيب.

ـ بارك الله بك شيخنا وبأمثالك.

رد سالم خنجر، ثم سأله ان كان لديه معلومات اخرى عنه، بعد ان قدم له ورقة وقلم وطالبه بتدوين اقواله على شكل تقرير وهو يعده بعدم معرفة أي شخص بالموضوع، أخذ التقرير ووضعه في جرار مكتبه ثم عدل من جلسته واقترب من الشيخ أكثر وقال:

ـ لدي آمر مهم أود محادثتك به، ستحشد القيادة لمظاهرة مليونيه في

ساحة التحرير، وستتصدرونها أنتم رجال الدين الذي سنعتمد فيها على خطبكم الحماسية.

صمت قليلا وهو ينظر إليه ثم خفض صوته ليقترب منه أكثر وهمس:

ـ سيتم تسيير قافلة من جثث الاطفال الذي ماتوا بالخدج وسندعي انهم ماتوا بسبب نقص الحليب والدواء لنلهب مشاعر المتظاهرين ونحرك الراي العام في العالم، كما سنعرض مجموعة من الاطفال المشوهين خلقيا من مناطق الجنوب وندعي أنهم تشوهوا بسبب نقص الغذاء والدواء للحوامل.

تفرس الشيخ في وجهه، وتذكر مدينته البصرة وسأله:

ـ لماذا من الجنوب؟

اجاب مبتسما:

ـ لأننا قمنا بزرق الحوامل في مناطق الجنوب بإبر تشوه الجنين.

شعر الشيخ بوخزة في قلبه واقشعر جلده، لكنه تدارك الامر كي لا يظهر اعتراضه أو تعاطفه، ثم فكر بالأطفال الخدج وسأله:

ـ والاطفال الخدج؟ حسب معرفتي أنهم يسلمون إلى ذويهم بعد موتهم، كيف قمتم بجمعهم؟

ـ اعطيت التعليمات للمستشفيات بعدم تسليم أية جثة لطفل يموت في الخدج، كما أن هناك تعليماتٍ سريةٍ توصي بعدم العناية بهم ليموت أكبر عدد ممكن منهم.

ابتسم الشيخ لسالم خنجر رغم الالم الذي اصاب قلبه ثم نهض، وهو يشعر بأنه حقق أكثر مما كان يصبو إليه بخصوص الانتقام من عادل.

(14)

اقترب عادل وصلاح من الحشود التي تحيط الفندق ليكونا جزءاً منها، شاهدا (رعد) مقيد اليدين يمسك به شرطيان ويدفعانه داخل سيارة النجدة التي تقف بباب الفندق، استغربا كثيرا وخاطب صلاح صديقه متسائلا بصوت عالٍ:

ـ ماذا يحدث؟

ـ مدير الفندق قتل طالبا.

أجاب أحد الواقفين أمام الفندق رغم علمه أن (صلاح) لم يوجه السؤال له، وأثناء ذلك لمح (مؤيد) بين الحشود وطفق يناديه، لكنه لم يسمعه فأندفع نحوه يلحق به عادل بصعوبة وهما يشقان الكتلة البشرية، حين شاهدهما مؤيد ضرب يداً بيد دون أن يرحب بهما وهو يردد:

ـ لاحول ولا قوة إلّا بالله.

سأله عادل:

ـ ماذا حدث؟

ـ رعد قتل نورس.

ـ نورس الفقير!؟.

صاح صلاح ليرد عليه، وهو يرفع يده ممسكا حنكه بينما امتدت سبابته فوق شاربه الخفيف، فأجاب مؤيد:

ـ قصة طويلة.

امسكه صلاح من يده، وسحبه من بين الحشود قائلا:

ـ تعال لتفهمنا الأمر بعيدا عن الضجيج، تبعهما عادل.

وقفوا عند عمود الإنارة وجلسوا على مقاعد من الصفائح المغطاة بالكارتون المستعمل والتي يجلس عليها عمال عربات النقليات صباحا في أوقات الاستراحة، وتكلم مؤيد:

ـ بعد حادثة خيانة زوجته وهروبها إلى كركوك تغيرت طباع رعد وأصبح يتعامل مع طلبة المحافظات بلا رحمة، كما قلت لكم القصة طويلة.

صاح صلاح وهو يكاد ينفذ صبره:

ـ طويلة، طويلة، تكلم يا أخي.

اكتشف خيانة زوجته بعد عودته للبيت بشكل مفاجئ، لكنها هربت إلى كركوك، قاطعه عادل:

ـ وكيف اكتشف الأمر؟

ـ بعد طرقه لباب بيته تأخرت زوجته بفتح الباب، وكاد يكسر الباب بطرقاته المجنونة، مما اربك زوجته التي كانت مع عشيقها؟

ـ عشيقها؟

ـ سأل صلاح بدهشة.

ـ اسمه جنيد من مدينة الخالدية، والده شيخ عشيرة واخوه ضابط كبير

برتبة لواء في المخابرات، كان مع زملائه يقيم في مشتمل نوافذه تطلع على حديقة بيت رعد، هو طالب في قسم اللغة الفرنسية التابع لكلية الآداب الجامعة المستنصرية، يمتلك سيارة حديثة من نوع شوفرليت (دولفين)، قاطعه عادل:

ـ لكن رعد يملك أكثر من جنيد!؟

ـ حسبما نقل لي نبيل، لم تكن علاقتها به علاقة نفعية، فرعد كان رجلاً فظاً، لم يهتم بها، كانت حبيسه بين أربعة جدران تقضي نصف نهارها في حديقة البيت تمارس الرياضة بشكل يومي فهي وبحسب ما قاله نبيل خريجة التربية الرياضية وتواجدها الدائم بالحديقة لفت نظر جنيد، بدت علاقتهما من النافذة إلى الحديقة، ثم تطورت ليتبادلا الرسائل الورقية، ثم أغرقها جنيد بالهدايا المميزة من عطور وورود باهتمام خاص حتى خطف قلبها وأصبحت مجنونة فيه.

سأله عادل:

ـ انت قلت أنها هربت، فكيف عرفتهم بهذه التفاصيل؟ ومن أخبرك بها؟.

رد مؤيد:

ـ التفاصيل تكلم بها جنيد في التحقيق، وانت تعرف (رعد) لا يخفي شيء على نبيل.

ـ اكمل القصة كيف اكتشف أمرهم؟

سال عادل.

ـ بعد دخوله البيت كانت زوجته مرتبكة بشكل فاضح، وشمَّ رعد عطرا غريبا في البيت، شك في الأمر لكنه حافظ على صمته وهدوئه، وعند جلوسه على الاريكة وجد مفتاح سيارة جنيد، وبعد أن أمطرها بالضرب اعترفت أن عشيقها يختفي في الطابق الثاني، وأثناء صعوده للبحث عنه هربت من البيت وعرف فيما بعد أنها في كركوك.

ـ ماذا حدث لجنيد؟

سأل عادل فأجاب مؤيد:

ـ قبض عليه رعد وسلمه للشرطة بين الحياة والموت، فنقل للمستشفى وبعد تحسن حالته نقل إلى السجن؟

سرح صلاح مقدمة شعره بيده كما هي عادته الدائمة، وقال:

ـ الان فهمت، رعد تغيرت معاملته للطلبة لان زوجته خانته مع واحد منهم؟ طيب وما علاقة نورس بالموضوع؟

ـ لسوء حظه وأثناء هذه الظروف النفسية التي يمر بها رعد، امسكه مع سهام عاملة الفندق، وشرع يضربه بجنون فارتطم رأسه بعمود السرير فمات بشكل فوري بعد أن غرقت الغرفة بدمائه.

ـ الى رحمة الله، كم مجنون هذا رعد، المفترض أن يقتل جنيد بدلاً من نورس؟ سأل عادل، فأجاب صلاح:

ـ لا اعتقد أن (رعد) كان يتعمد قتل نورس لكن الغضب أفقده صوابَه واعتقد أن قضية الخيانة أصبحت عقدة بالنسبة له، لكن أخبرني مؤيد ماذا حدث لسهام؟

ـ قام رعد بحبسها وأمَها في إحدى الغرف حتى قدوم الشرطة، وعلى حد علمي مازالتا في الغرفة لحد هذه اللحظة، ولا ادري ماذا فعلت معهما الشرطة.

نهضوا ليودعوا بعضاً وهم يشاهدون الحشود قد اختفت ماعدا سيارة الشرطة التي ظلت تصبغ الرصيف بإشارة اضويتها الحمر التي تشبه الدماء، وكأنها اشارات غير مطمئنة لحوادث قادمة.

(15)

ليلة باردة تتحرك فيها الرياح بسرعة وهي تهاجم بشرهة الشفاه، التي تقاومه بجيوش بيض من البخار لتترك لسعاتها في العينين، بينما يتفرج القمر بارتياح غريب بين النجوم التي ترتجف كلما سقطت واحدة منها، في ساعة متأخرة من هذه الليلة كان صلاح يقضيها عند أم تمارا في غرفتها بملابس النوم، بينما زوجها يصدح شخيرا على دفء المدفأة النفطية، وقريبا منهما تنام ابنتها الصغيرة ذات الاثنا عشر شهرا بهدوء، وهي تدفن رأسها في المهد مثل يمامة تدفن منقارها في ريشها الابيض، بينما يرقص ظلهما على الجدران كيف ما يشاء المصباح الزيتي الذي يحرك ضوءه نسمة الهواء الباردة التي تقتحم الغرفة من زجاج النافذة المهشم، والمركون على حافتها، طُرق الباب بهدوء، فنادت ام تمارا على الطارق من خلف الباب وهي تلف جسدها العاري بالملاءة:

ـ من؟

اتضح لهما صوت فارس جاء يسأل عن صديقه، لحظات قليلة حتى خرج وهو يرتدي على عجالة ملابسه بالمقلوب مبتسماً بوجه صديقه الذي اضاء الممر بقداحته بسبب انقطاع التيار الكهربائي، متفاجئا بوجود شخص يقف لجانبه زاد من ارتباكه، وهو يتفحصه باستغراب بنظرة غريبة إلى ما يرتديه من بذلة رسمية مبالغة فيها مع رباطة عنق، يحمل

بيده حقيبة دبلوماسية، رحب بهما متلعثما وإمارات الارتباك تعتليه بينما راح عطر أم تمارا الذي ملأ جسده يصل إلى روحيهما، تدارك فارس الموقف قدم له الضيف:

ـ دكتور يوسف سلوم طالب دكتوراه بجامعة بغداد قسم الفلسفة.

رحب به وهو يدير مفتاح غرفته يسبقهم ليوقد المصباح الزيتي ويرتب مكان للجلوس، جلس الضيف على فراش نومه المفترش تحت نافذة الغرفة، بينما ظل فارس واقفا وهو يراقب صديقه الذي انشغل بوضع ابريق الشاي على المدفأة، ثم خاطبه:

ـ انا راجع للفندق وراح يبات الدكتور معك، اعتني بضيفك لان راح يكون غدا جارك، استأجر غرفة بالجناح المقابل لجناحنا وغدا ينقل أغراضه واثاثة، محتاج شيء؟

ـ لا شكرا .

رد صلاح، فودعهما فارس:

ـ في أمان الله

بدأ صلاح يشعر بانزعاج خفي منه ولام في نفسه صديقه الذي تصرف دون اعلامه مسبقا بالأمر، بينما شرع دكتور يوسف يثرثر له بكلام غريب وغير مفهوم في حين هو منشغل بإطفاء المصباح الزيتي بعد عودة التيار الكهربائي، وشرع يكتشف مظهره وجسده البدين وعينيه الحادتين، وشعره الخفيف مع خصلة أماميه طويلة بوجه حليق بعناية، ركز في ملامحه وهو يقارن بينه وبين ساموراي بدين كأولئك اليابانيين البدينين

الذين شاهدهم في الافلام أو المسلسلات اليابانية مثل حافات المياه، اوحت عيناه وملامحه له أنه ياباني، ثم انتبه الى احدى اذنيه فابصر اليمنى خالية من الصِوان.

استرسل دكتور يوسف يتحدث عن نفسه وعن افكاره، لم يغلق فمه كما لم يترك أية فرصة له ليشاركه الحديث، شعر وهو يقدم قدح الشاي له بدور ونعاس واخذ يلعن صديقه في ذاته كيف قطع عليه ليلته مع أم تمارا واستبدلها بهذا البدين الثرثار، اعتقد أنه مجنون فكل شيء فيه غريب، لم ينتبه لما يقول بل شغل نفسه بفك لغزه، بينما اخذت أجفانه تطبق على عينيه وهو يرفعها بصعوبة والم، وبعد مقاومة مع النعاس صمت دكتور يوسف برهه ثم تحدث بخيبة:

ـ يبدو أنك تود النوم، لستُ ممن يحبون السهر، سأنام هنا في هذا الفراش تصبح على خير، فرد صلاح وهو يتحرر منه:

ـ تصبح على خير.

تمدد في الفراش على ظهره، واخذ شخيره الغريب الذي لا يختلف عن مظهره وكلامه يطرد سكون الليل بينما كرشه الكبير راح يرتفع ويهبط مثل بالون في فم طفل، بينما صلاح اطفأَ المدفأة واخذ يتقلب في فراشه رغم شعوره بالنعاس حتى ساعة متأخرة ليستسلم لنوم عميق.

في الصباح أحس صلاح بيد تمسد شعره وخديه نهض مرعوباً فاذا بدكتور يوسف يقرفص قرب رأسه باسما:

صباح الخير أنا ذاهب للدوام.

واخذ حقيبته وخرج، بينما عاد صلاح ليكمل نومه حتى أيقظ من جديد، لكن هذه المرة من قبل فارس الذي عاد صباحا وهو يصيح به:

ـ انهض أما زلت نائما؟ الساعة العاشرة.

ـ وكيف سأنام وقد رميت بقربي مجنونا.

انقطع نفس فارس بضحكة طويلة وهو يضرب برجله اليمنى على أرضية الغرفة، فسأله صلاح:

ـ من هذا المعتوه البدين؟

توقف فارس عن الضحك، واخرج سيجاره ثم ذهب يفتح السخان وهو يقرفص بقربه واضعا مقدمة السيجارة على احمرار السلك المعدني المتقد فيه ليوقدها، ثم نهض وهو يتوجه للنافذة:

ـ هذا المعتوه فيلسوف التقيته في إحدى مناقشات الدكتوراه لقريب لي كان زميلا له، تعارفنا بشكل سريع وخلال نصف ساعة تعرفت على ماضيه وحاضره وما يروم له بالمستقبل، اتمنى أن تسفيد منه، أنه يلتهم الكتب بشكل كبير، هو موسوعة في علم الاجتماع والفلسفة والانثروبايلوجي.

ـ تقصد فيلسوف بالثرثرة، هل هناك فلسفة أجمل من عطر أم تمارا؟ وهل هناك كتب افضل من قبلاتها.

غرقا في الضحك ورمقه فارس بنظرة طويلة ثم قال:

ـ يبدو أنك ولهان فيها، احذر يا صديقي أن تقع في حبها، فأنك ستفعل أشياءَ لا تتوقعها.

ما أن أكمل نصيحته لصديقه حتى اتجه إلى النافذة ونظر إلى سيقان الفتيات، فأعجبته فتاة تأخذ مكانا منعزلا عن الأخريات، ركز نظراته

إليها، انتبهت إليه يراقبها وشرعت تمط دشداشتها لتغطي ما ظهر من سيقانها وهي تنظر بعينين غاضبتين إليه لا ترمشان، كأنها نظرة تحدٍ، ثم اشارت بيدها إليه وهي تصيح به:

ـ قليل الادب إلّا تستحي؟.

شبت في جسده نار الغضب وظهرت تضاريس أوداجه، فرمى سيجارته من النافذة باتجاهها وطفق يصرخ من الشباك ورذاذ فمه يرشق وجهه:

ـ انا من يعلمك الادب يا قحبة.

نزل غاضبا صوب حنفية الماء، بينما نهض صلاح يستطلع من النافذة ما الذي حدث؟ فشاهد الفتيات يحتشدن بشكل فوضوي بينما عم الضجيج العمارة وعلت اصوات النساء، وكان هناك صوت احداهن ينشز على الجميع، وهي تصرخ وتستغيث وتستنجد، وفي لحظة نزول فارس متجها صوب الحنفية، استنجدت الفتاة ب (هاشم التكمجي) كما يسمى في العمارة صاحب إحدى المحال في الطابق الارضي، عشيقُها وزوجها بالسر، وبعد وصوله تفاجأ بوجود هاشم التكمجي إلى جنبها، بجسده الضخم وصدره العريض، له عينان جاحظتان حمراوان، بوجه أسمر متورم وبشعر فحمي مجعد ولحية مشذبه بلا عناية تعلو فوقها ندب للكلف على الخدين وبشارب أسود كث يغطي فمه، اثار منظره في نفسه الرعب والخوف وهو يلوح له بالمفك الحديدي الذي يمسكه بيده، بينما خلفه تعلو صرخات الفتيات، لم يمهله أية فرصة للتفكير بالهرب وهو ينقض عليه باندفاع جنوني، ولولا تدخل الفتاة نفسها

وعطفها عليه وقيامها بإمساك قميص هاشم من دبرٍ للقي حتفه، أثناء ذلك تجمهر سكنة العمارة، رجالا ونساءً واطفالا وأصحابَ محلات وعمالُهم، حولهما إلّا (صلاح) الذي رغم كل ما حدث لم يحرك ساكنا وبقى يراقب الشجار من زاوية النافذة.

عاد فارس يضع يده على فمه وهو يصيح مازحا رغم ما جرى له: عملية، تفاجأ صلاح بالدماء التي صبغت يده وفمه وبالبقع التي انتشرت على قميصه الذي تمزق وفقد ازراره العلوية، تساءل بتصنع وكأنه لم يكن يعرف:

ـ ما الذي جرى؟

ـ اعتدوا على شخص سيقلب عمارتهم على رأسهم، اسمع صلاح كن بعيدا عن هذه اللعبة واترك الأمر لي، أنا ذاهب.

ذهب فارس ليتركه وحيدا، شعر بخوف كبير وقام بغلق فتحة الشباك، واحس بجوع كبير بعد ما تجاوزت الساعة الحادية عشرة وهو لم يفطر بعد، لكن كيف ينزل إلى محل المواد الغذائية أسفل العمارة والخوف يمتلكه؟ عاش بقلق وتوقع في أية لحظة أن يأتي الشخص الذي اعتدى على صديقه ويفعل به ما فعله بفارس، أو قد يرميه في الشارع، لكن الجوع لا يرحم فتجرأ ونزل ليكتشف أن الأمور طبيعية وكأن شيئا لم يكن، اسرع بالعودة وهو يحمل كيس الصمون مع ثلاث بيضات، لم ينتبه إلى أن أحداهن مكسورة، دخل الغرفة ليتنفس الصعداء، لكن الخوف عاد يمتلكه من جديد بعد أن طُرق الباب، فخرج من فمه صوت شبه ضائع صائحا:

ـ من؟.

ـ أم عماد.

تبدد خوفه حين سمع صوتها، دخلت لتتحدث عن الشجار واضعة اللوم على الفتاة متأسفة لما حدث لصديقه وهي تتحدث عنه بمديح، ثم قالت وهي تحرر خصرها من قبضة يدها:

ـ لا تهتم أن سكنة العمارة تعودوا على هذه الشجارات اليومية.

وقبل اكمال حديثها قاطعها صوت دكتور يوسف يحيهما، ويخبره أن أغراضه وأثاثه وصلت وسيستريح هنا حتى يتم نقلها للغرفة، فدعاه للإفطار معه وهو يقص عليه ما حدث لفارس فغضب ونعته بالغبي والمتهور، اكملا فطورهما ـ الذي وصفه د. يوسف بأنه غداء ـ على عجالة ثم هبطا إلى أسفل العمارة، انتبه الى الأثاث الذي بدأ للجميع فاخرا، مما اثار الدهشة عند سكنة العمارة، فلم يكن أغنى ساكنيها يمتلك أكثر من سرير حديدي، وشرعت النساء ينظرن مبهورات من خلف نوافذهن المهشمة الزجاج، وتجمع الاطفال حول الاغراض وهو يرددون: غرفة عرس، صلاح انبهر كثيرا وأخذ يتفاخر وهو يقف جنب دكتور يوسف، ثم توجها معا للغرفة بعد اكتمال تركيب اثاثها بينما وضعت الاغراض المتبقية بأكياس داخلها، اخذ صلاح يتفحص خزانة الملابس بأبوابها الاربعة وبلونها الصاجي المائل للأسود، والى نقوشها التي رسمت بجعتين برأسين رشيقين يرسمان قلبا وهما يتعانقان، والى سرير بحجم نفرين يتقدمه تاج يحمل نفس النقش ثم تحت النقش مكتبة بشكل افقي وعلى كل جنب هناك كوميدين يحتوي على الجرارات،

وميز صالون بمرآة كبيرة وهي تحمل نفس نقش البجعتين لكن القلب الذي يرسمانه يمثل محيطها، لمس دكتور يوسف نظرة الاعجاب في عين صلاح فجلس على طرف السرير الذي لم يفترش بعد، ينتزع نظارته الطبية، ويمسحها بطرف قميصه الذي سحب طرفه الأسفل من داخل البنطلون ثم تكلم مع صلاح:

ـ اذا اعجبتك الغرفة فمن الممكن أن تترك غرفتك الخاوية وتأتي معي، دون التفكير بالإيجار لأني دفعت ايجار ستة اشهر كاملة.

شعر أن هذا العرض بالنسبة له حلم لان دكتور يوسف في فترة الصباح يكون في الدوام، وحين يعود سيكون بالجامعة وبهذا سيكون صباحا لوحده في غرفة فاخرة، غرق في أفكاره وهو يتذكر (فارس) الذي اقتلعته عاصفة غير رحومة وتركت ضرسه قرب الحنفية، بينما رماه هدوؤها في غرفة مؤثثة، وهل بعد هذا الهدوء تأتي عواصف أخرى من الظرف الضائع الذي ليس ببعيد ان يكون بين يدي حسن الحوراني، الوجود يبعث رسائلَ غامضةً بيد الحوادث وعليه أن يقرأها بشكل جيد ليتنبّأ بما سيحدث، اطلق تنهيدة وشعر ان بعد كل هدوءٍ تأتي العاصفة لتوزع علينا قمصانها القديمة.

(16)

يسيرون خلف سراب، ويزداد لهاثهم ليلا خلف الغيوم ونهارا خلف ظل العطش ويستمرون دون أن ينتهوا إلى شيء، ما أكثر رجال السراب وما أكثر مريديهم وما أقل السائرين خلف ذاتهم، بينهم وبين الماء مسافة تساوي المدى بين رجال الرب والرب، فضاع الدين في ذلك البَوْن، هو نفس البعد بين الشعارات وتطبيقها الذي ضاع فيه الوطن، شعر عادل أن الوجود يغرق ولا من احدٍ يستطيع انقاذَه مادامت زوارق النجاة يقودها رجال الدين والسياسة، هكذا غرق في التفكير وهو يتذكر بلقيس وشعر أنه يضيع في تلك المسافة التي تشبه الهاوية؟

بعد انتهاء صلاة العشاء نادى شيخ فتحي عليه، يخبره بسفره إلى البصرة مدة خمسة أيام لزيارة الأهل والاقارب هناك، وسينوب عنه الشيخ جلال لإقامة الصلوات بدلاً عنه، شاهد عادل في عيني شيخ فتحي حزنا خفياً، وشعر أن مكروهاً اصابه لأنه اليوم يكلمه بطريقة مختلفة، وكأنه سيذهب ولن يعود، شعر أنه يخبئ عنه شيئا، لكنه لم يكترث له بل سعد بالخبر، هي فرصته التي ينتظرها للهرب من الجامع والسكن مع صلاح.

بعد انتهاء صلاة الصبح ودع شيخ فتحي (عادل) الذي لملم أغراضه وحزم حقيبته بعد خروجه مباشرة، ثم راودته فكرة أن يسرق صندوق الزكاة واخذ يخطو متجها نحوه يفكر بانتزاعه من مكانه، شرع يتلمسه

بأطراف اصابعه ثم قبض عليه وانتزعه لينزله من مكانه المرتفع، وهو يداعب قفله الذهبي، لكنه تردد خائفا، وارتجفت يداه، فأعاده إلى مكانه متلفتاً حوله ثم تركه وهرول مسرعاً إلى غرفته، سرح يفكر كيف سيسرق وهو لم يسرق يوما بحياته، تعلم في البيت أن السرقة من الصفات المذمومة، لم يقل له والده يوما أنه إذا سرق سيرمى بالنار، أو تقطع يده، أنما علمه أن السرقة هي باب لانحطاط المرء خلقيا، فمن يسرق يستطيع فعل أي أمر قبيح ثانٍ، تذكر لحظة عودته يوما من مدرسته، حين اكتشفت والدته ما يخبئوه في حقيبته من علبة الوان فاخرة، وبعد مساءلتها له اعترف بأنه سرقها من يعرب، فأخذت توبخه وهي تحكي له حكاية عن عاقبة الثعلب الذي تسلل للبستان ليسرقه إلّا أنه كاد أن يدفع حياته ثمن لذلك، جلس جنب أغراضه بعيدا عن الصندوق واخذ يسأل نفسه: كيف يستطيع رجال الدين سرقة أموال الناس؟ وأي نوع من اللعنات سيلاحقهم؟.

عقارب الساعة تقترب من السابعة صباحا، أثناء ما كان يستعد لمغادرة الجامع، وهو يقلّب ذكرياته الموجعة فيه، متسائلا ما فائدة أن يدفع حياته ثمناً لسرير في الظلام، ما أوسع النور وما اشسعَ الارضَ التي تشرق عليها الشمس، شعر أنه نبتة خلقت لتنمو وتكبر في الضوء، فلن يطول عمره في هذا الظلام، اربكته طرقات عنيفة على الباب، ماذا يصنع؟ أيفتح الباب أم يعيد أغراضه إلى مكانها؟ أم يهرول للصندوق ليتأكد من اعادته لمكانه بشكل صحيح؟ ومن يكون الطارق هل عاد شيخ فتحي أم جاء شيخ جلال ليستلم امور الجامع؟ ازدياد الطرق على الباب وبشكل أكبر واعنف لمْ يمهله التفكير أو القيام بأي أجراء، فاغلق

باب غرفته وهرول يفتح الباب خائر القوى، ما أن فتح الباب حتى ظهر له ثلاثة اشخاص بلباس زيتوني تنام على خاصرتهم مسدساتهم، بينما تصطف الاقلام على اذرعهم مثل اقزام وقحة، تكلم من يقف اقرب للباب، بوجه أحمر وشعر اختلطت فيه الخصلات الشقر بالشيب، بوجه حليق وشارب اشقر خفيف:

ـ حضرتك عادل؟

اجاب بتلعثم مرتجفا:

ـ اي.

ـ تعال معنا خمس دقائق؟

أومأ برأسه موافقا، وخرج معهم متعثرا، وسط اثنين منهم مطرقا رأسه صامتاً، يفكر ما الذي اقترفه حتى يعتقل؟ هو مجرد فكر بسرقة صندوق الزكاة، وماذا سيفعلون به، من سيخلصه منهم؟ خطر بباله شيخ فتحي واعتقد أنه يستطيع انقاذه لكن كيف؟ قبل قليل اراد الهرب منه والان يبحث عن وسيلة تصله به، كيف سيساعده وهو الان في البصرة؟ يا له من قدر لعين كلما حاول التخلص منه أصابته مصيبة اجبرته على الاستنجاد به، اخذ يبحث عن الحلول إلّا أن كل الحلول مريضة، وصلا به إلى مركز شرطة باب المعظم في ساحة الميدان، ثم ادخل إلى الغرفة الخاصة بالأمن العامة وسلم لشخصين، احدهما اسمر بشامة تعلو شاربا منسدلا يخفي شفته العلوية، يرتدي قميصا مشمشيا مع معطف جلد فاخرة يتفق لونها مع لون الحذاء الجوزي الفاتح للأصفر، بينما ابصر الشخص الثاني طويل برأس صغير الحجم بدأ له لا يتناسب مع جسمه،

حتى خيل إليه أنه عود ثقاب، ببذلة زيتونية تكاد ربطة العنق التي يتقاطع فيها اللونان الاحمر والابيض على شكل خطوط مائلة تفصل رأسه عن جسده، بعدها ادخل إلى غرفة تحتوي طاولة دائرية صغيرة بكرسيين، أصيب بالرعب حين ابصر قطرات الدماء المتناثرة عليها، يقابلها في الجهة الاخرى مكتب فاخر يجلس عليه شخص بوجه منتفخ يلتصق بجسده وكأنه بلا رقبة بعينين جاحظتين وشارب طويل رفيع يرسم حول فمه حرف (8) يرتدي بدلة رصاصية وربطة عنق كثيرة الالوان والنقوش، اقترب منه وهو يطفئ سيجارته في منفضة بلون فضي تعكس ضوء المصباح الذي يتوسط الغرفة ثم حدثه:

ـ ماذا تفعل في بغداد لحد الان؟

ثم أردف بسرعة وهو متململ:

ـ اجب بدون لف ودوران، ليس لدي وقت لجرذ صغير مثلك.

حرك شفتيه ليجيب، وما أن قال (أنا...) حتى تلقى صفعة قوية منه اسقطته من كرسيه أرضا، ليدفع به الى اربعة رجال نصف عراة يرتدون بناطيل فقط، في يد كل واحد منهم هراوة، شرعوا يلتفون حوله وكأنهم يكونون حلقه، مثل لعبة الاطفال الشعبية التي كان يلعبها صغيرا مع اطفال محلته (شدة يا ورد) وهم يتسابقون على ضربه، غطَ بغيبوبة وصار يصرخ (شدة)بعد كل ضربة ليفقد وعيه، ليجد نفسه خارج دوائر الطفولة، خارج دوائر العالم، لكنه لم يخرج من دائرة الغرق التي صار لزاما عليه ان يبقى يدور في محورها، وجد نفسه في ممر بعد أن سكب عليه الماء، ثم قيد من قبل نفس الرجلين إلى سيارة مرسيدس سوداء

اللون يحيط بها ثلاثة رجال ببدلات مدنية ونظارات شمسية بالإضافة إلى السائق الجالس خلف المقود، ثم سلم لهم ليدفعا به داخل السيارة في المقاعد الخلفية، بعد أن حشر بين اثنين منهم، قام الذي على يمينه بعصب عينيه، شعر بخوف كبير وأحس بطعم مر في فمه، اخذ يتكلم ولا احد يسمعه، حتى هو لا يسمع صوته، وكأن هناك لصوصا يجثمون فوق شفتيه يسرقون الكلمات كلما مدت رأسها من بين الشفتين، هكذا تموت الكلمات بالولادة حين ترتجف الشفتان خوفاً، فكر أنه قد يكون كابوساً ولا زال صوت (شدة) يردد صداه في اذنيه، بينما السيارة انطلقت بسرعة كبيرة وهي تدخل منعطفات كثيرة حتى توقفت أخيرا، فسمع أو توهم نباح كلب، دفعوا به خارج السيارة، ثم قيدت يديه إلى الخلف، وقاده احدهم بعنف وصار أثناء السير يسمع ضوضاء ويشعر أنه في داخل بناية، أو داخل سجن ثم سمع صوت مفاتيح يتبعه صرير باب ليرمى به أرضا بعنف داخل غرفة على وجهه مع ركلة قويه على عجيزته، ثم صوت باب يغلق خلفه بقوة، ولولا صوت الباب لما ظن أنه في غرفة فالمساحة توحي بأنه داخل برميل، جسده ارتطم بجدار وظلَّ ممدا بشكل طولي، حاول مد رجليه فلم يستطع لكنه أخيراً استطاع الوقوف واخذ يتلمس الجدران بجسده ووجهه، ليتعرف على المكان، غرفة بلا نوافذ بمساحة لا تتجاوز نصف متر، أحس برغبة للبكاء لكن الدموع تموت مثل جنين داخل العيون بسبب العصابة المشدودة بقوة حد الألم، قرفص متكئا برأسه على الجدار وغرق في ظلام دامس، دق ناقوس اليأس فيه وشعر أن روحه تختفي في الظلمة التي تخفق راياتها، مقبلة بعساكرها، كأنها تقبض روحه، تخلع عنه

فروة الحياة وتلبسه اكفان الموت، هي اللحظة التي تسبق الموت وهي تشبه اللحظة التي يعيشها الغريق قبل الاختناق، هي الزمن الفاصل بين بطء الحياة وسرعة الموت، هي مسافة الغرق.

(17)

وصل الى بيته في قلب مدينة المشخاب، بيت خفيض يمتد بشكل افقي، تنتصب مقدمته على عمودين دائريين، تحرسه مجموعة من النخلات المتناثرات حول البيت، تتقدمهن نخلتين ملتصقتين كأنهن يشكلن كلمة (لا)، وبعض من اشجار الكالبتوس، اضافة الى حديقة واسعة يحيطها سياج من سعف النخيل المرصوف بشكل محكم، وسبحات من حبات البامية المعلقة على قمة السياج لكي تجففها اشعة الشمس، ونهر صغير يمر قرب البيت وهو يقسم الحقول الى نصفين، تصطف على ضفافه اشجار الصفصاف، وسط فناء مزرعة كبيرة تمتد لعشرات الدونمات ولمسافة بعيدة، كان صلاح كلما نظر اليها تخيل ان الارض قد فرشت ببساط اخضر طويل يتصل بالسماء، بينما يضج البيت بقوقأة الدجاج والبط، وامام البيت ربوة يقف فوقها جرار زراعي (عنتر**71**) وكأنه رجل آلي يصعد مزلق الالعاب متهيئا للانزلاق.

صلاح ينحدر من اسره قديمة، ارتفعت الى مستوى الرفعة، اكتسب اجداده في زمن الاحتلال الانكليزي **1918** لقب (المحفوظ)، من الشيوخ الموالين للاحتلال، حتى ان احد اجداده كان يملك سجا خاصا به، هذا ما كان يستمع إليه من الجالسين في مضيف والده الذي يزدحم مساءً بالرؤوس المغطاة بالكوفية والعقال، في حين ان والدته

من اسرة فقيرة ترجع بأصولها لمدينة الديوانية، كانت هبة لأبيه الذي زوجها لابنه مكرها.

يوم ونصف في المشخاب ولم ير والده، لم يهتم لأنه لا يحب والده بسبب الحكاية التي سمعها من خالته، حين كان طفلا في التاسعة من عمره، بأنه سبب موت امّه، وكلما حدثته عنها نعتتها بالفزاعة، وحين كبر وسألها عن سبب التسمية، هزت رأسها وبينت له أنها كانت مثل الفزاعة لا تفارق الحقل، وليس لها دور خارجه، تعمل فيه من الساعات الاولى للفجر حتى الليل، يحركها ابوه حسب ما يشتهي، كان يشعر بحنق شديد على زوجة ابيه كلما شاهدها امامه، أو ابصرها تحتضن اخوته منها، لذا كلما عاد من بغداد للبيت هرب للحقول، توقف أمام احدى الفزاعات التي كانت تفتح له ذراعيها بملابسها السود، يشعر بالحنق حين يجد غرابا يقف على اكتافها، يركض بغضب ليطرده، فهي تفزع كل الطيور الا ذاك الغرب الذي كان دائما ما يصوره والده، صار يقف امامها وهو يشعر انها امه، يدنو منها شيئا فشيئا حتى يحتضنها، ويخاطبها: سأحميك من هذه الغربان، عليك ان تنامي مطمئنة، وعندما لا تحرك ذراعيها، يعود مسرعا للبيت مثل مجنون يجمع اغراضه بعصبية ثم يرحل دون ان يخبر احدا به.

شهر بأكمله قضاه في سكنه الجديدة عمارة حجي عكَاب، والظرف الضائع بدأ ينسى امره، وبدت تتدحرج في رأسه فكرة ترك غرفته والانتقال لغرفة دكتور يوسف، لا يدفع ايجار الغرفة التي لم يعد يشاركه فيها أحد مقابل الانتقال للسكن في غرفة مؤثثة بشكل مجاني، تذكر صديقه (عادل) الذي وعده بالقدوم للسكن معه، لكنه تأخر وشعر بحيرة، هل

ينتظره أو يستعجل الانتقال؟ لكنه يحبه، وفي حال وفى بوعده وانتقال للسكن عنده سيملي الفراغ الذي خلفه فارس، فقرر الذهاب إليه لمعرفة سبب تأخر قدومه.

أثناء وصوله الجامع طرق الباب أكثر من مرة لكن لا أحد يرد، كان الوقت يقترب من صلاة المغرب، فقرر الذهاب لأقرب مقهى ليعود عند صوت الاذان، انتابهُ حزن غريب وهو يقلب ذكرياته في الاماكن التي يمر فيها، شعر أن الانسان حين يمر في مكان ما يترك جزءاً منه معلقا في الاماكن يشبه العطر، يستقبلك ماداً ذراعيه ليحضنك فيشعرك بالحنين، وبرغبة للبكاء، وكأنما روح الانسان تنجب في الاماكن اطفال يستقبلونها حين رؤيتها، دخل مقهى مزدحماً، قد شغلت جميع المناضد فيه إلّا واحدة قرب الشارع يجلس على إحدى مقاعدها رجل نحيف يضع ساقا على أخرى، يدفن رأسه في جريدة الجمهورية التي تحمل صورة لرئيسها، وهو يبتسم بوجه مترف لا يشبه الوجوه التعسة التي تملأ المقهى، القى عليه التحية وجلس بالمقعد المقابل له، رفع عينيه من فوق نظارته ليرد التحية ثم حياه:

ـ الله بالخير

ـ الله بالخير استاذ

أعاد رأسه مثل نعامة داخل الجريدة وهو يمد رقبته الطويلة، ولقرب الجريدة من صلاح اخذ يقرأ عناوينها، حتى سقطت عيناه على خبر في وسط إحدى صفحاتها (القبض على صاحب فندق في بغداد يقتل أحد نزلائه)، شعر برغبة لقراءة الخبر لكنه تردد في طلب

الجريدة خجلا، وحين قدم صبي المقهى طلب قدحي شاي، ليقدم للرجل الشاي مخاطبا:

ـ تفضل استاذ اشرب شاي.

ـ شكرا للطفك.

رد عليه وهو يدفع الجريدة جانبا واضعا نظاراته فوقها، فيما اتجهت عينا صلاح صوب الجريدة، تنحنح وقال وهو يشير بسبابته نحوها:

ـ أتسمح لي بقراءة العناوين؟

ـ اي تفضل ابني.

ـ ثم ناوله الجريدة وكاد يسقط نظاراته لولا التقاطهن باللحظة الاخيرة.

ـ شكرا استاذ.

رد صلاح وطفق بشكل مباشر يبحث عن الخبر الذي لفت انتباهه، وجد الخبر كما خمن يتحدث عن مقتل نورس، وصف محرر الخبر (رعد) بالمجرم وبأنه يعاني من مرض نفسي وذكر أن جريمته لم تكن الاولى، فقد كاد قبل جريمته هذه أن يقتل طالبا آخر يسكن قرب بيته متهما اياه بأنه على علاقة بزوجته، وتطرق إلى هرب زوجته منه، معللا ذلك بسبب ضربه اليومي لها دون سبب، وقرأ في الخبر أن الشرطة استطاعت القبض عليه بعد أن قتل طالبا من نزلاء فندقه، بالإضافة إلى قيامه بتعذيب عاملة الفندق وابنتها، شعر صلاح بالظلم الكبير الذي وقع على رعد رغم جريمته واعتقد أن والد جنيد قد استغل جريمة القتل ليبرر

فعلة ابنه عن طريق استغلال نفوذه في الحكومة، ثم أعاد الجريدة للرجل، وشعر أن من يحكمون هذا البلد لا يكتفون بتجويعه، بل أن جشعهم يجعلهم يتلذذون بتعذيبه وموته، جنيد الوحيد الذي لم يُظْلم، وهو يمثل النسبة القليلة في المجتمع والكبيرة في حكم البلد والتنعم بأمواله عن طريق سلب خيرات النسبة الاكبر منه، صوت المؤذن (الله أكبر) يخرج من مكبرات الجامع القديم ليقطع عليه سلسلة افكاره ويقطع صوت كاظم الساهر الذي يهمس من اسطوانة صاحب المقهى (زيديني عشقا)، وكأن الحياة لا تستجيب لكاظم الساهر كما لا تستجيب للعراقيين فتزداد الحياة ظلماً وجوراً وجوعاً.

استأذن الرجل وخرج صوب الجامع ليدخل مع المصلين، هذه المرة الثانية التي يدخل فيها الجامع، في المرة السابقة لم يتجاوز الرواق، استوقفه مكان الوضوء، وهو يبصر اكثر من حنفية تصطف بجانب بعض حتى أن عددها يزيد على عدد الذين يقفون للوضوء، حينها تذكر الحنفية الوحيدة في عمارة حجي عكَاب والتي يتجمهر عشرات الفقراء حولها، دخل قاعة الصلاة الفخمة المفروشة بالسجاد والمزينة جدرانه بالفسيفساء والكريستال والآيات القرآنية، وانتبه إلى كلمة (الله اكبر) مكتوبة على الحائط خلف المنبر المزين بالقماش الابيض المزركش بكلمة (لا اله إلّا الله) باللون الذهبي.

بحث عن عادل بين المصلين فلم يجده، فخمن أن يكون في غرفته، خرج فورا باتجاهها عند الرواق ليبصر هناك طير الفاخته، يقف على مقدمة الغرفة يتلفت بحيرة ثم نظر له قبل أن يرفرف بعيدا في السماء، طرق الباب ثلاث مرات حتى يئس، فعاد إلى الجامع ليجد المصلين

يكبرون أثناء صلاتهم، اضطر للعودة للرواق حتى يكملوا صلاتهم، وبعد خروجهم بشكل فوضوي مسرعين، دخل القاعة مطأطأ الرأس يشعر بخوف لا يجد له مسوغاً، شاهد رجلاً على اليمين يجلس منفردا يقرا القران، بينما يقف شيخان يتحاوران مع الشيخ، وفي اللحظة التي اقترب فيها منه راحا يودعانه، انتبه الشيخ إلى قدومه وأحس أن لديه حاجه عنده فوقف ينتظره باسماً، نظر صلاح إليه مذهولا، ابتسامته السمحة، ووقاره لا يوحي بما تحدث عنه عادل، تقدم نحوه وحياه واردف متلعثما:

ـ عفواً شيخنا أنا صديق عادل وجئت لأراه.

فتغيرت ملامح شيخ فتحي وعلا حاجبه الايمن وهو يقبض على لحيته، ثم خاطبه متحريا:

ـ هذه زيارتك الاولى للجامع؟

اجاب صلاح متلعثما:

ـ انا صديقه بالفندق وجئت أبحث عنه.

ادار الشيخ ظهره وهو يتظاهر باللامبالاة، وكأنه يبحث عن شيء نسيه، ليستعد لمغادرة الجامع ثم خاطبه دون أن يلتفت إليه:

ـ من الان وصاعدا، لا تقول أنك صديقه، عادل اعتقل لأنه يعمل لجهة سياسية، أنه خائن وهم يبحثون عن اصدقائه لانهم يشكلون خلية سرية، عليك مغادرة الجامع فورا والا.....

سكت، وهمَّ ليدخل إحدى الغرف التي تطل على القاعة، فطلب منه صلاح بتودد:

ـ هل لي أن احصل على أغراضه؟

توقف وعاد لينظر إليه بنظرة حادة ثم خاطبه:

ـ إن كنت تريد ذلك فعليك البحث في النفايات أو أن تسال عمال النظافة.

تركه ودخل الغرفة ليخرج صلاح خائباً، لكنه تفاجأ باختفاء حذائه الذي يحمل ماركة علاء حداد رفيقه الذي يحمله منذ سنتين والذي تركه في باب الجامع عند دخوله، فلم يهتم لان انشغل باعتقال صديقه، وتيقن أن الجامع الذي يسرق الانسان ليس بغريب أن يجعله حافيا، ثم رمق غرفة عادل بنظرة أخيرة كأنما يودعه وتذكر الة الناي التي جمعت الصديقين في أيام لقائهما الاول وردد: أنا بعدك حافي القدر.

(18)

ضجت العمارة بالضوضاء، اثناء ما كان صلاح ينقل اغراضه إلى غرفة دكتور يوسف التي تقع في الجناح المقابل لغرفته، فبعد اعتقال عادل وابتعاد فارس شعر بغربة كبيرة رغم تعرفه على مروة التي شاهدها أول مرة عند دخوله للعمارة حين اعترض طريقها فارس لتدلهما على غرفة حجي عكَاب، كانت عائلتها تجاور غرفة دكتور يوسف، والتي تتكون من اب يخرج صباحا ويعود ليلا وأم بدينة شبه مقعدة وثلاث بنات، تغريد وتبارك يعملن في عمارة القادسية في الشورجة بينما مروة تعين أمّها، ولحسن حظه فقد سمح دكتور يوسف للعائلة باستخدام ثلاجته التي كانت بالنسبة لهم رحمة نزلت من السماء، لتساهم بدخول مروة للغرفة، فصار يضاجعها كلما سمحت لهما الفرصة، مقابل أن يترك في يدها مبلغاً زهيداً أو مواد غذائية، خرج متوجها نحو الضجيج، بعد ان اكمل نقل اغراضه البسيطة ليتفاجأ ان سبب الضجيج هواعتقال هاشم التكمجي من قبل رجال الحزب، واستغرب هو ومن في العمارة من سبب الاعتقال.

بعد تحوله الى غرفة دكتور يوسف صارت الساعات المتأخرة من الليل تجمعهما على شكل محاورات ونقاشات تدور حول مواضيع فلسفية ولاهوتية، وفي إحدى المرات وجدهُ دكتور يوسف يقرأ كتاباً عنوانه (الفتاوى الميسرة)، فابتسم وحدثه:

ـ ما حاجتك للفتاوى؟

ـ لكي أعرف الحلال عن الحرام.

ـ هههههه هل الشمس تحتاج لفتوى لكي تعطينا الضوء؟ وهل الغيوم تحتاج لفتوى لتمنحنا المطر؟ وهل الورد يحتاج لفتوى لكي يمنحنا العطر؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ نحن في داخلنا شيء حيواني غير منتظم، وغير متعقل، وغير منتمٍ نحاول أن نضع فوقه غطاء، هذه الفتاوى التي بين يديك ليست أكثر من غطاء.

ـ لمْ افهم؟

ـ أنت تتصور أنك غارق بمعصيه ربك، وأن هذه الفتاوى هي من ستنقذك، لكنها ليست سوى قشة ستغرقك.

في كل ليلة يدور بينهما سجالٌ طويلٌ، حول موضوع يحدد بشكل عفوي، يشعر عندها صلاح بمتعة معرفية مع دكتور يوسف الذي بدأ أولَ الأمر مجنونا، حتى اخذ يعجب بأفكاره وثقافته، الفلسفة هي حديثهم الابرز، لم ينس صلاح تلك الليلة حين تصاعدت حدة النقاشات بينهما حول موضوع الفضيلة والرذيلة، فاخرج دكتور يوسف على اثرها ورقة وامسك قلما ورسم له ميزانا اطلق عليه (ميزان الفضيلة) ثم وضع على كفيه كلمة رذيلة وفي وسطه وضع كلمة فضيلة ثم طلب منه أن يذكر له صفة حسنة، فذكر (الصدق) حينها شرع يدونها في وسط الميزان ثم أشار إلى السهم الذي يودي إلى الكفة اليسرى واخبره أن الصدق إذا قل

تحول إلى كذب، فكتب كلمة كذب تحتها، ثم أشار إلى السهم الذي يودي إلى الكفة اليمنى واخبره أن الزيادة في الصدق ثرثرة، واخذ يدونها تحتها، ثم عدل نظاراته الطبية واستقام ظهره في جلوسه واخبره:

ـ ان كل الصفات إذا زادت أو قلت أصبحت رذيلة، لذا قالوا قديما أن الزيادة كالنقصان.

ثم انحنى على الورقة ودوَّن زيادة الكرم تبذير، ونقصانه بخل، زيادة الشجاعة تهور ونقصانها جبن، انبهر صلاح بحديثه وسأله:

ـ لماذا حين نريد فعل الفضيلة نقع في الرذيلة، وحين نحاول اصطياد الفضيلة تصيدنا الرذيلة، والعكس بالعكس؟

ـ لأننا نهتم بالتسميات أكثر من المعنى، هناك شيء يسمى (اللامعنى) سأحدثك عنه لاحقاً.

غرق في تفكير عميق وتذكر عادل ثم سأله:

ـ هل يمكن للفضيلة أن تكون خطرا على فاعليها؟

ـ اعتقد أن الفضيلة أكثر خطرا على الانسان من الرذيلة، فحين يكذب احدهم فالخطر لا يكمن في كذبه وإنما في حسن ظن الناس فيه، أي تصديقه، ألم يكن الصدق وحسن الظن فضيلة؟!

صمتا قليلاً، ثم زفر صلاح تنهيدة وهو يعجب بهذه المفارق وشعر أن تصديق رجال الدولة اخطر من كذبهم، ثم اكمل دكتور يوسف:

ـ كما نسمع الصوت في الصمت، كما نرى النور داخل الظلام هكذا نجد الخطيئة فضيلة متلبسة.

استمرت هذه المحاورات مثل الدروس اليومية، تعلم منها الكثير وتعرف على كولن ولسن وأخذ يقرا له المنتمي واللامنتمي وضياع في ساهو، وراسبوتين الكتاب الذي أحبه كثيرا، أصبح دكتور يوسف مثَله الاول.

***

اثناء ما كان يكوي قميصه، انبهر بدكتور يوسف عائدا بلباس زيتوني، فتمتم مع نفسه بالحمد لأنه لم يتحدث يوما معه عن السياسة، أبتسم دكتور يوسف وهو يتباهى بزيه أمامه ثم خاطبه:

ـ غدا مظاهرة كبيرة سنشارك فيها في ساحة التحرير للتنديد بالحصار الاقتصادي، سنذهب معا.

تردد بالقبول لكنه خاف العواقب، فأومأ له بالقبول، ثم ليتفاجأ بقدوم ام تمارا الى الغرفة، اعتقد انها جاءت إليه، فشعر بالأحراج، لكنها تجاهلته واتجهت تحيي دكتور يوسف بحرارة، اشار إليه بالخروج، شعر صلاح بالحنق عليهما واستغرب كيف استطاع هذا البدين ان يجذبها إليه، بعد خروجه من الغرفة وصل إلى السلم، ثم عاد بعد ان فكر بالتنصت عليهما، وضع اذنه على الباب ليكتشف منذهلا ان ما يدور بينهما حديث سياسي، وان ام تمارا تعمل في الامن بعد سماعها تتحدث عنه وعن هاشم التكمجي وفارس وعادل، حينها تذكر فلم الجاسوسة الذي شاهده معها في غرفتها، وعرف سبب اعتقال هاشم التكمجي، وبدأ يشك في صديقه فارس، قد يكون مثل الدكتور وأم تمارا، ابتعد عن الغرفة وجلس على السلم، وحين خرجت ام تمارا خاطبته:

ـ صلاح وجدت الظرف الذي اضعته في غرفتي.

ـ الظرف؟!

قالها وقد قفز ليقف على طوله ثم اردف:

ـ اين هو؟

ـ موجود في الغرفة.

اخذ الظرف واخفاه في سرواله وشعر بالحيرة، اين يخفيه بعيدا عن يدي دكتور يوسف؟ ثم من يدري ان ام تمارا ودكتور يوسف يعلمان بما يدور فيه؟ تأوه واخذ يلوم نفسه على اهماله، وقرر ان يكمل قراءة الاوراق فيه بأقرب فرصة ممكنة.

صباح اليوم التالي انطلقا إلى ساحة التحرير التي اكتظت بعشرات الآلاف، ونظر صلاح إلى وجوه المتظاهرين يتفحصهم، ما بين متحمس تدفعه العواطف ومتذمر اجبر على المجي وانتبه الى المجاميع المنظمة من الطلبة والطالبات وهم يصطفون على شكل طوابير متجاورة، وشاهد منصة كبيرة ومرتفعة قرب نصب التحرير الذي يتوسط الساحة فأنشغل بهذا العمل الفني الجميل وعجز عن إيجاد تفسير له وفهم رسوماته، لكنه قرأ من خلال رموزه بصمة العراق وسجلا لتاريخه العريق، شعر أنه يقف أمام مسـرح تأريخ العراق أو أمام عرض لفلم تأريخي يرى فيه أحداث العراق بقلب العاصمة بغداد، شغلت المنصة من قبل رجال الدين ولمح بين الواقفين شيخ فتحي وهو يقف جنب رجل دين آخر بعمامة سوداء والى جنبه الآخر وقف رجل دين مسيحي بملابسه الخاصة وصليبه الذي

يتدلى على صدره، وبجانبهم يقف نائب رئيس الجمهورية مع عدد كبير من قيادات الحزب وازلامهم، فاستأذنه دكتور يوسف وطفق يقف قرب مجموعة من رجال الحزب.

تحدث نائب رئيس الجمهورية المحاط بالحماية للمتظاهرين وسط تصفيق وهتافات للقائد وللوطن، بعده خطب أكبر رجال الدين الواقفين خطبة حماسية اشعلت مشاعر المتظاهرين، ختمها بكلمة (الموت لأمريكا.. الموت لليهود) ليرددها خلفه المتظاهرون بحماسة، ثم صعد شاعر شعبي ينشد قصائد بدت لصلاح أنها تافهة، اعقبه مطرب شعبي وراح يغني (فلتسقط امريكا.. فلتسقط)، فرقص المتظاهرون وهم يرددون معه الأغنية، ثم دخلت قافلة من السيارات المكشوفة وهي تحمل على ظهورها جثث اطفال، بينما اعلنت مكبرة المنصة، بأن الأطفال الذين تشاهدونهم ماتوا بسبب نقص الغذاء والدواء، لتعلوا اغنية كاظم الساهر (تذكر) مصاحبة للمشهد، بدأ له مشهد الجثث مأساويا مع أغنية كاظم الساهر وأثر المشهد التراجيدي على نفس صلاح الذي لم يستطع منع دموعه من النزول، اعقبتها قافلة أخرى من الاطفال المشوهين خلقيا وسط صرخات المتظاهرين (الموت لأمريكا.. الموت لليهود).

بعد هذا اليوم المأساوي اتجه دكتور يوسف الى مطعم باجة بمنطقة الشيخ عمر يصطحب (صلاح)، الذي رفض تناولها، وخاطب دكتور يوسف محتجا:

ـ كيف تستطيع ان تتناول الطعام بعد هذا المشهد الفظيع للأطفال؟

أجاب وهو يكفكف ردن قميصه يستعد لالتهام الباجة:

ـ نحن العراقيون ناكل الموت ولا يأكلنا.

وبعد وصولهما الى عمارة حجي عكَاب، عادا لينشغلا بجلساتهم الحوارية، وكانت هذه المرة حول قوى النفس الباطنية وعلاقتها بإرادة الانسان وكيف يمكن للشخص التحكم بقواه النفسية ومسايرتها، زاد إعجابه به يوماً بعد يوم، ولولا هذه الليلة التي نامَ فيها متعبا على أرضية الغرفة بجانب سريره، كما تعود منذ أول يوم انتقل فيه للغرفة، وبينما هو غارق في نومهِ، أحس أن يدا تمتد إلى وتده، وهو بين النوم والحلم وبعد أن أفاق من نومه وجد وتده بين يدي دكتور يوسف ممسكا به يداعبه، فنهض بقوة محتجا يعيد ارتداء بجامة نومه التي انتزعها منه أثناء نومه، بينما شرع دكتور يوسف يتوسل به متقدما نحوه، مما اضطره إلى تهديده:

ـ عد للفراش لا افضحك.

لم يستطع صلاح النوم حتى الصباح، وقبل نهوض دكتور يوسف، نهض يلملم أغراضه، وحين أحس به نهض من نومه رافعا نصف جسده وهو يحك صدره وينظر إليه بعين واحدة مغمضا عينه الثانية مخاطبا:

ـ صباح الخير، ستغادر! إن احببت البقاء لا مانع لدي.

رد دون أن ينظر له وهو مازال منشغلا بتجميع أغراضه:

ـ شكرا دكتور، كنت بالنسبة لي مثلا اقتدي به لكن خاب ظني بك، أتعلم أن أكثر الكذب يأتي من الحكماء والفلاسفة لانهم يتحدثون عن الحقيقة، والحديث عن الحقيقة ثرثرة خاوية، فالطبل له صوت عالٍ لكنه خالٍ من الداخل.

فأثار رده غضبهُ ونهض وهو يرمي الملاءة صائحا بغضب:

ـ أنا مثلّك الاعلى وسأبقى مثلّك، أنا حر بممارسة حياتي، أنت لا

تفهم هذا الشيء لأنك شخص قروي لا يمكن له الخروج من قمقمة القوالب التي وضعه فيها، عليك أن تكون كالماء يتغير مع الظروف، مرة يكون سائلاً ومرةً صلبا ومرةً بخاراً، أُخرج بسرعة لأني لا اطيق سذاجتك.

فرد صلاح وهو يلتفت إليه بعد أن أسقط ما بيده من حاجيات:

ـ دكتور أنت حر بما تفعل لكن دون الاعتداء على حرية الاخرين، أنت افهم مني بذلك يا فيلسوف الفضيلة.

ـ اخرج بسرعة.

صاح بصوت عالٍ، بعد أن نهض على طوله وهو يشير بيده إلى الباب.

اضطر إلى وضع أغراضه عند كشك بيع القرطاسية خارج سور الجامعة قرب بابها الرئيسي، ودخل إليها وهو منشغل بالتفكير بما حصل له ليلة امس، وشعر أن الفلاسفة يضعون الحقيقة في كؤوسهم لكنهم يسكبونها خارج طريقهم ثم يرمون الكؤوس تحت اقدامنا، وينصحوننا بالسير فوقها، لكنهم لا يعلمون كم تجرحنا الحقيقة حين نسير فوقها دون أن نراها.

كانت امتحانات نهاية السنة الدراسية على الابواب فشرع بعد دخوله يبحث عن فارس، ليراه قبل ان يكمل امتحاناته وقبل ان يعود في العطلة لمدينته، وجده جالسا وحيدا على احدى مساطب حدائق كلية التربية، فاجأه فارس بعدم مبالاته بما ستؤول إليه نتائج الامتحانات بعد ان اخبره بأنه سيغادر الجامعة للابد بعد انتهاء الامتحانات، لم يستوعب صلاح الخبر فكيف يترك الجامعة وهو الان في المرحلة الثالثة، لكنه علل

السبب ليساعد والده في ادارة المزارع وحقول الدواجن هناك، كونه اصيب بجلطة ولا يوجد من يساعده، تأفف صلاح قبل ان يتكلم:

ـ اتمنى أن ينهض بالسلامة، هل فعلا تترك الدراسة للابد؟

ـ وما الفائدة منها؟ ارجع للناصرية لأكمل معاملة دفع البدل عن الخدمة الالزامية ثم امسك العمل بدلا عن والدي.

ـ يعني لن أراك ثانية، عادل اعتقل قبل ايام، وصاحبك الدكتور والفيلسوف طلع شاذ جنسيا، مثل شيخ فتحي الذي حدثتك سابقا عنه!

ـ ماذا؟

قال فارس ثم اطلق ضحكة طويلة وهو يضرب بباطن كفه على ركبته، بينما واصل صلاح حديثه:

ـ أثناء نومي وجدته يداعب وتدي، فأخذت أغراضي وجئت أبحث عنك، سوف أعود بعد الامتحانات للنجف، اقضي العطلة الصيفة هناك، أصبحت بغداد غريبة عليَّ بعد اعتقال عادل؟ وانت زدت الطين بلةً.

ـ أين تسكن فترة الامتحانات؟

ـ لا تهتم، عند بيت عمتي بمنطقة عرب جبور.

ودع صديقه واتجه صوب النادي واتخذ مصطبة معزولة قرب الملعب بعيدة عن الانظار، ثم اخرج الظرف من جيبه وراح يسلت الورقة الثانية:

الورقة الثانية

(ولكن .....

في السنة الثانية من الجامعة صار يطلب مني بإلحاح الذهاب معه الى

الشقة، وكلما امتنعت صار يلمح لتركي، وخفت ان يكون امتناعي سبباً ليخلف وعده، وكان يخاطبني محتجاً:

ـ انتِ زوجتي.

ذهبت معه للشقة مرة اخرى واخرى، كثرت طلباته وتكرر خنوعي وموافقتي، حتى صار لا يستأذنني، يقول لي «هيا» وحين اسأل « الى اين» يجيب « الى بيت الزوجية»، كان حريصا على جلب واقي الحمل، واحسست بخوفه من الحمل وحين سالته عن سبب خوفه برر بوجوب الحذر ولا يصح زواجهما قبل التخرج، صار يتمادى في طلباته ولم يبقِ شيءٌ في جسدي لم يجربه، شعرت باني بغي، صار يمارس معي بعنف ووحشية ويضربني اثناء ذلك، وكنت اشعر بخوف كبير منه، وبدأت اكره طريقته واكرهه ولكن لا استطيع ان اتركه او اغضبه، كنت كل مرة اذهب معه اعود للبيت اصلي وابكي وادعو الله ان يغفر لي حتى اسقط من البكاء، وحدث مالم اتوقعه ابدا من شخص احببته، وسلمته كل ما املك، في احدى لقاءات الشقة، استأذنني بحجة شراء سجائر، من المحل القريب من الشقة، سمعت صوت بالغرفة الثانية للشقة، دخل عليَّ صديقه وكنت عارية الا من الشرشف الذي كنت الفه حول وسطي، واخذ ينظر اليَّ بعينين واسعتين مبتسما ابتسامة ماكرة، ورمى سيجارته وبدأ يفتح ازرار قميصه ويقترب نحوي، فأمسكت الوسادة وضربته، لكنه امسكني بعنف من يدي فصحت به: « انا زوجة حسن»، قهقه قهقهة طويلة، وقال وهو يضغط على اسنانه:» لو كنت زوجته لما سمح لنا بالتلصّص عليك من ثقب الباب» ثم وضع يده تحت حنكي واردف» من يتزوجك يا قحبة؟»، حينها ضعفت وخارت قواي وشعرت اني اسقط

الى الهاوية، شعرت اني سقطت من مرتفع عالٍ، كان جسدي يهوي بسرعة مع ضجيج اصوات وصرخات، بينما الذكريات تمر من جانبي، هل انا التي كنت اهوي بسرعة او الذكريات كانت تهوي الى اللامستقبل.

في هذه الاثناء عاد حسن الحوراني الذي لم ينزل من الشقة حسب زعمه، وانما كان في الغرفة الثانية التي جاء منها صديقه، دخل يكمل المسرحية التي اتفق على سيناريوهاتها ومشاهدها مع صديقه، دخل متفاجئا بوجود صديقه عاريا معي، واخذ يصرخ ويضرب صديقه، وهو ينعتنا بالخونة، مثل هو وصديقة ادوارهم بكل حرفية، ثم اتجه صوبي وامسكني من شعري واخذ يضربني بقسوة كدت افقد وعيي، ثم ضرب رأسي بالحائط، وتركني مع صديقه، كنت انا الشخص الحقيقي الوحيد بالمسرحية اكتمل بي العرض بشكل مباشر دون بروفات او تمارين، وعند الباب وقف ورفع سبابته وصرخ بأنه من اليوم لا يعرفني، وحذرني ان تحدثت لاحد فاني سأخسر حياتي، وعائلتي، قال لي بالحرف الواحد: « سيذهب والداك للسجن بجرة قلم، اما انتِ فستتسولين في الشوارع او تصبحين مومسا في البيوت «.

خرج وتركني بالشقة، ارتديت ملابسي واسرعت بالخروج وانا خائفة ان الغرفة قد تكون ممتلئة بطلاب اخرين، اما صديقه الذي لا اعرف من هو وكيف يكون شكله، كنت اسال نفسي وانا داخل الجامعة، هل هو طالب في جامعتنا، هل يراني كل يوم، صرت اشك بكل طالب ينظر نحوي بأنه هو، عشت اياما عصيبة.

حسنا صلاح، اعرف بانك كرهتني وانت تقرأ اعترافاتي المجانية،

لأنك الان امام صورة فتاة عارية في شقة طلاب يتناوبون على مضاجعتها مثل مومس، ولكنك ستكرهني اكثر لو قرأت الورقة الاخيرة).

شعر بحزن شديد وتساءل كيف لفتاة بجمال فلورا ان تسقط بيد شاب قبيح مثل حسن الحوراني؟ ثم ماذا سيكون بالورقة الاخيرة اكثر سوادا مما قرأت بالورقتين السابقتين؟، اعاد الورقة الثانية الى مكانها ووضع الظرف في جيبه وقرر عدم قراءة الورقة الاخيرة الا بعد اكمال الامتحانات كي لا تؤثر عليه.

(19)

مر يوم بكامله على عادل او مرت سنة حسب توقيت السجون وضواحيها، هكذا بدا له، فالعينان معصوبتان، والوقت يمر دون أن يأتي احدٌ، شعر بعطش شديد وحاجة للتدخين، وبدأ الجوع يقطع أمعاءَه، تذكر أمّه وكيف كانت تخبئ له السيجارة، تذكر والدهَ ووصيته التي أراد أن يهضمها لكنه تقيأها متوجعا، ماذا سيحصدان من ابنهما الذي طرد من المعهد، ورمي بزنزانة الظلام، تذكر شهد كيف كانت تنظر إليه في المرآب وهي تبعث من تحت عينيها ابتسامة خجلة، تذكر بلقيس واخذ يردد اسمها: بلقيس يا بلقيس الا زلنا فوق الغرق، متى نخرج من هذا البحر الاسود؟ كيف ينتهي هذا الاختناق المر؟ ضرب بقدميه الباب بكل ما تبقى له من قوة، فاحدث صوتاً لم يتوقع أن يكون له هذا الصدى العظيم، سمع على أثره أصوات اقدام تقترب نحوه ثم أصوات مفاتيح تضاجع الاقفال التي راحت تتأوه مستسلمة، ما أن فُتح الباب حتى تلقي ضربا عنيفا متواصلا أفقده الشعور بالضربات المتلاحقة وأحس أن جسده في حاله خدر وصوت صفير يُصدي في اذنه، قد يكون الموت هكذا استسلم للفكرة، هو لا يريده لكن لا خيار، شعر أن روحه تغادره حين غطس جسده بمياه دافئة، ثم بدأ يفقد وعيه وكأنه يسمع أصواتا كثيرة تدنو منه وتبتعد، غريبة مثل الضجيج، وكأن هناك اناساً يسمع أصواتهم يهرولون كالخيول، رفع رأسه وشعر بثقله، يا ترى

هل استبدلوا رأسي؟ هكذا صار يهلوس، أراد أن يحرك جسده، يديه، رجليه لم يستطع، اكتشف أن العصابة قد ازيحت عن عينيه اللتين لا زالتا ملتصقتين بمادة شبه دبقة، احس بتحرر يداه من القيد، سأل نفسه هل ما زالت في نفس المكان؟ وهو يستشعر الألم في كل جسده، لم يترك مكانا فيه دون أن يضرب اكثر من مرة، سمع من جديد أصوات اقدام تتجه نحوه، فُتح الباب وشاهد الضوء لأول مرة منذ قدومه، يدخل في عينيه مثل الدبوس، وهو غير قادر على فتحهما، سأل ـ وما أكثر اسئلتنا حين نكون وحيدين تحت الظلام، وما اكثر حديث النفس حين يكون الحديث بصوت مسموع جريمة ـ نفسه: هل جاء الضوء ليطلق سراح الظلام من الزنزانة أم ليطلق سراحي؟ ثم سمع صوت صحنّ يرمى قربة، وشمَّ رائحة اكل ثم خرج الضوء مع اغلاق الباب ليعود الظلام رفيقا له، سأل نفسه: متى تنتهي لعبة الضوء والظلمة؟ أراد أن يمد يدَه نحو الصحن، بعد أن غزت انفه رائحة الرز والعدس، فلم يستطع، حرك رأسه واخذ يلتهم ما في الصحن بفمه ولسانه كالحيوان، وبعد مدة حضر شخصان وقاما برفعه ثم قيداه خارج الغرفة وكاد يسقط لولا الذراعان القويتان اللتان تمسكان به، وشعر ان جسده المتهاوي بينهما مثل يافطة معلقة بين عمودين، أدخل إلى غرفة لم يستطع تميز الأشياء بشكل دقيق، فالعينان منتفختان، أقعداه على كرسي أمام منضدة مربعة كان يجلس عليها شخصان بملامح حادة، وببدلات أنيقة، أحدهم يمسك بقلم وأمامه أوراق بقيافة كاملة، بينما كلمه من يرتدي رباطة متروكة مفتوحة فوق القميص المفتوح الازرار سائلا:

ـ ما الذي فعل بك هذا؟

لم يدرك عادل انه يتغابى في سؤاله، ثم أكمل:

ـ هل أنت بخير؟

أجاب عادل بصعوبة:

ـ كما ترى.

قدم له سيجاره، اثناء دخول رجل منحني الظهر يحمل قدح ماء مع أستكان شاي، فأشار إليه أن يضعهما أمامه، شعر بارتياح وظن أنهم أخيراً قد فهموا خطأهم بأنه لم يفعل أي شيء، شرب الماء ثم ارتشف الشاي وذهبت يداه وهي ترتجف نحو السيجارة، ما أن وضعها في فمه حتى أوقدها له، وطفق يرتشف بسرعه دون أن يترك الدخان يخرج من جسده، بينما اخذ يتفحصه بنظرة غريبة ثم سأله:

ـ الان أفضل؟

ـ شكرا لفضلك.

ـ ما قصة الغرق؟

جفل عادل منذهلا، ولا يصدق كيف عرفوا بموضوع الغرق، ثم اجاب مرتبكا:

ـ اي غرق؟

ـ قصة غرقك ليومين في الحلة، وقصة الحورية التي انقذتك، احكي لي القصة.

ـ سيدي لم تكن هناك قصة، انا هربت من البيت وعشت يومين تحت الجسر، ولا ادري من حاك هذه القصة؟

ـ والدك شيوعي معروف في الحلة؟

ـ كان شيوعيا.

ـ ومعاديا للدولة لكننا روضناه، ماذا تفعل في بغداد بعد فصلك من المعهد؟

ـ لا شيء.

رد متلعثما ثم أكمل:

ـ اردت أن أعمل وأن ابقى في العاصمة؟

ـ انا لست طفلا.

حدثه وهو يضرب بيده فوق المنضدة وأردف:

ـ عليك الاعتراف بحقيقة ما تفعل، انتم مجموعة شباب تكونون حلقة سرية معادية للدولة، لا تظن الدولة بعيدة عما تخططون.

ـ سيدي، اقسم بالله، لا انتمي لأية مجموعة.

ـ هههههه ابن الشيوعي يقسم بالله!

ـ اذا اردت أن تتأكد فأسال شيخ الجامع فتحي.

ـ انجب غبي اعرف شغلي.

ثم نهض من مكانه، وضغط على جرس فوق مكتبه، حينها انتبه عادل لسترته المعلقة في شماعة عمودية بزاوية مكتبه، دخلا الاثنان نفسهما اللذان قاداه إلى هذا المكان، فصاح بهم بنبرة هادئة وهو ينظر للنافذة ويضع رجلا فوق اخرى:

ـ كونا رفيقين به.

ما أن أخرجاه حتى لقيَّ من الضرب أشد مما سبق، هكذا كانا رفيقين به اكثر مما توقع، غاب عنه وعيه، ليجد نفسه هذه المرة بين حشود من الموقوفين وهم يرشون الماء على رأسه وفي فمه وهو يتقيأ دما، وبعد ثلاثة ايام أخذ من جديد وعصبت عيناه، ووضعت في يده الأصفاد وسيق بالركل حتى دفع به داخل سيارة وهي تنطلق به إلى محكمة الثورة، وبعد أن دخلت السيارة المحكمة، أنزل وقام أحد رجال الشرطة بفتح العصابة وسيق مقيد اليدين داخل قاعة الانتظار بعدها أدخل إلى القاضي وأوقف داخل القفص، رفع القاضي رأسه دون أن ينظر إليه وسأله:

ـ متهم أم برئ؟

ـ والله برئ سيدي.

ـ اخرج.

صاح القاضي امرا، فأخرج إلى قاعة الانتظار وبعد أكثر من ثلاث ساعات، بدأت المحكمة تصدر احكاما للموقوفين معه في قاعة الانتظار، نودي على ثلاثة أسماء، واخذ القاضي يردد (حكمت المحكمة حضوريا باسم الشعب على المتهمين علي جواد عودة وياسين محمد علي سوادي، وكاظم عبد العباس تايه بالإعدام رميا بالرصاص....) ما أن سمع بالإعدام حتى أصيب بالذعر والخوف الشديد، وأحس أن موته حتمي، فأستسلم للفكرة، وقيد المحكوم عليهم بعد وضع الجوامع المشترك بيديهم ثم سيقوا إلى باب جانبيه تقع على يمين القاضي، ثم نودي على مجموعة أخرى هو من ضمنهم، سار إلى القاعة وهو يرتجف ودخل مع الباقين، شرع القاضي يتلو:

ـ حكمت المحكمة حضوريا باسم القائد على المتهم عادل ياسر نصيف ومهدي مزهر عبد علي و.....

ارتفعت حرارته وصار يتعرق بغزارة، توقفت عنده الحياة ولم يكن يسمع ما يتلوه القاضي بعد ذكر أسمه، انقطع اتصاله بالقاضي وبمن حوله، وكأن حواسه توقفت، يسمع صدى لصوت يردد بعيدا عنه مثل صوت مذياع، وشاهد بلقيس تغرق في مياه سوداء وهي تقاوم الغرق كلما غط في الماء رأسها طفقت تخرجه بإصرار، حتى شعر بيدٍ تمسك ذراعه بقوة تجره إلى قاعة الانتظار، هو لم يسمع الحكم الصادر بحقه ولكنه استشعر من خلال إرجاعه لقاعة الانتظار أن حكمه يختلف، لكنه لا زال غير مطمئن ،بعدها قيده لغرفة جانبيه لتؤخذ بصماته، ثم وضعت الأصفاد بيديه وعصبت عيناه من جديد ودفع به إلى داخل سيارة، شعر أنها واسعة ثم بدأت تمتلئ بالأشخاص حتى ضاق التنفس وانطلقت بهم دون أن يعرف المصير أو الجهة، لكنه عرف ممن حوله أنه حكم عليه بالسجن المؤبد، فطفق يبكي فرحا، لأنه لا يريد الموت، فرح بفقده حريته مقابل ان يبقى حياً.

وصلت بهم السيارة إلى مكان مجهول وهم مقيدون، انزلوا وهم يضربون بوحشية، نزعت عنهم العصابة وفكت اصفادهم، ودفع بهم مجتمعين في زنزانة واحدة يصعب فيها الحركة والتنفس، واخذوا يستدعونهم الواحد تلو الاخر، حتى تم استدعاءه فادخل مع شخص يحمل فايل إلى مكان مزدحم برجال الامن، بعدها سيق إلى زنزانة ملأى بالسجناء ليبدأ حياة جديدة مع أشخاص جدد، بدأ بالتعرف عليهم، وجد أن أغلبهم متهمين بتهم سياسية، كل واحد فيهم يحكي له قصته، كانت

وجبات التعذيب تفوق وجبات الغذاء، وحين يعود السجين محمولا بالملاءة، يبادر النزلاء في الغرفة لإسعافه حتى يحين الدور لآخر، ما شد انتباهه شخص، كان يعمل سكرتيرا لوزير التجارة اتهم حسب ادعائه وحديثه معه زورا أنه مشترك مع إحدى الدول بصفقة تجارية مشبوهة، لاحظ أنه أكثرهم اتزانا وصبرا وحكمة، وانتبه الى رجل مسن ابيض الشعر ينادونه (أبو امل) يعمل مدرس اسلامية في مدينة الثورة كما اخبره، اعتقل بسبب ابنه الذي اغرته الدرجات الحزبية من قبل رفيقه ومدير الإعدادية التي يدرس فيها، ليكتب تقريرا عن والده، بتهمة الاستماع لإذاعات معادية ومعارضة للدولة، القصص المؤلمة التي سمعها داخل الزنزانة كان لها وقعها المر لتنسيه رطوبتها.

(20)

خيبة الورقة الثانية تأتي مكملة لكل الخيبات التي مر بها صلاح وبشكل سريع جعلته يعيش غربة تزامنت مع تهديدات دولية للعراق بسبب أزمة المفاعل النووي وطرد لجان التفتيش الدولية، فالأسطول الامريكي يرسو مثل تمساح مسن في الخليج والقوات تتحرك باتجاه الحدود والمفاوضات بدت تتعثر والحكومة تحشد للحرب بوسائل الاعلام والاناشيد وراح المطربون بأغانيهم الشعبية يتسابقون، واحد يتوعد بسقوط امريكا (فلتسقط امريكا... فلتسقط.. كالتها الجماهير بالزحف الكبير.. فلتسقط)واخر يطالب رئيس الجمهورية في الإسراع بخوض الحرب (فوت بيها وعلى الزلم خليها)، فتحت مراكز لتدريب الطلبة على حمل السلاح، فكل الاحداث توحي له باقتراب البلد من حرب جديدة، كل هذه الاحداث دفعته للمغادرة بعد الامتحانات إلى أرضه ومشخابه، وقلبه يخفق لصديقه عادل، ولفلورا التي لم يكمل قراءة اوراقها، رغم مجازفتها واصرارها في ايصال الظرف أليه، فهو قرر ان يقرأ الورقة الاخيرة بعد اكمال الامتحانات.

بعد وصوله للمشخاب كعادته انطلق الى الحقول، هو مغرم بها وبالطبيعة هناك، منذ طفولته، كان مولعا ببناء اكشاكٍ صغيرة، وكهوف اصطناعية فيها، وكان يطلق على الحقول اسماء شاعرية، فهناك حقل

الهدوء، وحقل الحنان الذي تنتصف فيه فزاعته المفضلة الام، وحقل النسيم، واسماء كثيرة، حتى ان باقي الاطفال اخذوا يستخدمون هذه التسميات منه، كان كثير الهوس باصطياد الطيور والاسماك، حتى انه يقضي يوما كاملا في ذلك، اتجه الى مكانه المفضل حقل الحنان، وبعد ان اتخذ له مكانا للجلوس، اخرج الظرف يتفحصه، ثم حدثه: لم يبق منك الا القليل لأتخلص من هذا القلق، ثم نظر الى الفزاعة وضغط على شفته السفلى بأسنانه، ومد اصابعه ليخرج الورقة الثالثة والاخيرة:

الورقة الثالثة

(هل نحن نشبه الحقيقة التي نخلقها، او ان الروح تشبه من يفهمها ولا تشبه حقيقتنا؟ اعتقد ان الحقيقة اثبتت صلاحيتها لكل ما يشبهها، فانا يا صديقي مجرد صورة شبحية للحقيقة، فبعد الذي جرى اليّ، عشت اياما عصيبة، وكلما فكرت بمصارحة اهلي، خفت ردة فعلهم حتى اختي سارة لم استطع مصارحتها، لأنها ستخبر امي حتما، وكنت اخاف عليهم من جرة قلم حسن الحوراني، ولكي يعيش اهلي بسلام عليَّ ان اقتل هذا السر الذي يقتلني، لذا قررت ان اعيد ترتيب حياتي وان ادفن الماضي وانسى الانشغال بالمستقل، والتفكير بالزواج وتكوين اسرة، وانسى ان يكون لي طفل، وبدأت اتأقلم مع حياة واهمة لكنها افضل من واقعي الخرب، وحين صادفتك وتقربت إليك كنت اجد فيك الرجل المختلف الخجول، ولكن حظي الذي يكرهني جعل حسن الحوراني يراني معك في النادي، وحينها قادني خارج النادي، واخذ يهددني بانه اذا شاهدني مع اي شخص بالجامعة سوف يقتلني، وحذرني من ان التقي بك ثانية وكأنه يعرفك، فابتعدت خوفا عليك منه، وعند عودتي للبيت قررت ترك

الجامعة للابد، كان يوما صعبا عليّ، بكيت فيه كثيرا، اقتنعت انني يجب ان اموت، وقررت الانتحار، نعم قررت الانتحار وخططت لكل شيء، لم انم تلك الليلة، انهكني التفكير والخوف، صرت افكر كيف يكون الموت، وهل سيسامحني الله؟، لكني قررت ان انتحر في الصباح، فلم اذهب للجامعة بحجة المرض، حينها سأكون وحدي في البيت، لان والديَّ يذهبان لوظيفتهم، وسارة ستكون بالجامعة، وحين دنت ساعة التنفيذ كنت ارتجف وصوت طقطقة اسناني مسموعة، امسكت الموس وحاولت قطع الوريد ولكني فشلت، لا اريد الموت وكنت بحاجة لان اعيش من جديد، لو كان هناك احد يضمن لي العودة لهذه الحياة من جديد، لما انتحرت، الحياة جميلة لولا اخطاؤنا وسذاجتنا، لكن واحدة مثلي هل تعتقد انها تستحق الحياة؟، فكرت بطريقة اسهل للانتحار وذهبت لعلبة الادوية واخذت اول شريط، ورحت افرغ اول خمس حبات منه، لكني شعرت بالغثيان وتقيأت، لقد فشلت واضعت الوقت ولم انجح، عدت للسرير ورميت نفسي فوقه واخذت ابكي، ولم يبق امامي الا ساعة لأنفذ قراري، ففكرت ان افتح الغاز في المطبخ واغلق بابه، وعدت لغرفتي لحين امتلاء الغرفة بالغاز، وحينها سيكون الامر سهلا نقرة بسيطة بالإبهام على زر القداحة تنهي كل هذه المعاناة، انتظرت على سريري وكنت منهكة فأخذتني سنة نوم، لم اصحُ منها الا على صوت انفجار، هرعت الى المطبخ لأجد شخصاً يحترق ولا استطيع تميز من الذي يحترق امي ام ابي ام سارة، كان جسدا مثل ظل يشتعل تحاصره جيوش النار، وسقطت على ركبتي اصرخ واحفر خدي بأظافري لا اعرف ماذا افعل؟ كان يذوب امامي مثل اية قطع بلاستيكية، بينما اخذ كل شيء

حوله يحترق، هرعت من باب الصالة ورحت اصرخ في الشارع، فجاء الجيران لينقذوا البيت، ولأكتشف ان التي احترقت سارة.

لقد قتلت اختي بسبب حماقاتي، هل تصدق ذلك؟ لقد قتلتها، ماتت ابشع موته، لا انسى جسدها المتفحم، لازالت رائحة شواء جسدها في انفي، ليس هناك انسانة نقية مثل سارة، لكن لماذا كان قدرها بشعا الى هذا الحد؟ اليس من المفترض ان يكون هذا القدر لي؟ اتعلم بعد الذي جرى تيقنت ان الحياة غير عادلة تخذل الانقياء، وتكرم المبتذلين مثلي.

صلاح لا ادري لماذا اسرد لك قصتي، انا الان اعتكف بالبيت ولا اريد ان ارى بشرا بعد اليوم، هذه اوراقي بين يديك، انت امام ان تحرقها كما احرقت اختي، او تساعدني في الهرب خارج البلد، أو تبوح بها للناس لأخذ عقابي، لكن قبل ان تفعل اي شيء فكر بوالديَّ.

فلورا)

اعاد الورقة للظرف واخذ يمشي صوب النهر، اقترب من المياه، وقرفص على الضفة وامسك الظرف وراح يغطسه في الماء، ثم صار يمزقه قطعا صغيرة، حتى انتشرت الاوراق وسط النهر، واخذ مجرى النهر البطيء يباعد بين بعضها البعض، نظر الى الماء بخيبة وحزن شديد، ثم لمح وجه فتاة في المياه، هز رأسه فاختفت.

***

تذكر صلاح كل تلك السنوات التي مرت بسرعة في العاصمة وهو يقف في طابور المجانية لاستلام الكتب المنهجية للمرحلة الاخيرة،، شعر أن هذه المرحلة في الجامعة لها طعم الفراق، هي مجموعة خطوات محسوبة للوداع، هل يودع بغداد هذه السنة أو أنه يفكر بالتأجيل أو

الرسوب ليمنح نفسه سنة أخرى من التفكير قبل التخرج، كما أن تخرجه يعني التحاقه بالجيش تحت مسمى الخدمة الالزامية، فقرر أن تكون هذه السنة للنزهة فقط، وبعد استلامه الكتب، عاد الى بيت عمته في منطقة عرب جبور، كاد ان ينسى صديقه عادل لولا خبر العفو العام الذي صدر من رئيس الجمهورية، استمع إلى البيان بشكل مركز وهو يتابع وزير الاعلام يتلو القرار، سمع أن الافراج سيكون عن جميع السجناء بما فيهم المعتقلين السياسيين والمتهربين من أداء الخدمة العسكرية والمحكوم عليهم بالإعدام والمدينين ماديا للدولة، فلم يستثنِ القرار سوى المحكوم عليهم في جرائم قتل إلّا أنه اعطاهم الفرصة لاسترضاء عوائلهم، فقرار العفو مكرمة من رئيس الجمهورية للشعب الذي انتخبه بنسبة **100 %** في الاستفتاء الذي اجريَّ قبل العفو بأسبوع وقد تكون الغاية تبييض السجون قبل الحرب.

طفق صلاح لا يصدق الخبر وصاح بصوت مسموع وهو يجالس التلفاز لوحده: (سيخرج عادل!)، ثم تذكر رعد لكن تهمته القتل، لم يهتم كثيرا لأمره بقدر فرحته بخروج عادل من السجن.

أربعة اشهر بالتحديد قضاها عادل حتى جاءت المعجزة وجاء العفو الشامل، حين اعلنت الحكومة بقرار من قيادة الثورة بتفريغ السجون، ألمه الاقل عمرا وتاريخا بالنسبة إلى السجناء، عاش جزءاً بسيطاً من ألآمهم، فقد أكلت السنوات كل أعمارهم وأحلامهم، صاروا يحصونها بالكابل والفلقة وكل وسيلة من وسائل التعذيب التي تركت وشما لا ينمحي من ارواحهم، صار الوقت مهم لديهم وهم يحصون الساعات بانتظار اطلاق سراحهم.

القسم الثاني

تحت الغرق

صوت يعوي
داخل طفلٍ في صدى ذاكرته
يركض به الى ماضٍ بعيد
عكس رصاصات المستقبل
يهرب به الى ماضي حربٍ أقل وحشية
فيتعثر بحقول الدخان السماوية
وأصوات شظايا تقطّع أمنية امسكتها يد المجهول
الى اي صوبٍ نهرب؟
ونحن بين ضفتي حرب
الحرب.. الجوع.. الظلم
واسماء اخرى
شواهد رسمت على جدران الوطن
أكثر من أسماء الموت الحسنى
تحمل عنوانا واحدا
«إنّا للغرق ..وإنّا اليها راجعون»

(1)

اطلق لها السيف لا خوف ولا وجل اطلق لها السيف وليشهد لها زحل

بليلة يصبح رئيس الجمهورية شاعر القبيلة وفارسها، يحمل السيف وينشد شعراً حماسياً يتحدى به الاحداث التي اخذت تتسارع، وكأنها تمتطي مهرة وتركض صوب العراق، الذي اعلن على لسان رئيس حكومته أنه جاهز للحرب، ويتهم المفتشين بأنهم جواسيس، وزير الدفاع البريطاني يعلن نشر طائرات وقوات جوية تابعة للقوات الجوية البريطانية في الخليج، تسارعت الأحداث أكثر في شهر شباط، مفتشو الأسلحة يعلنون عن اكتشاف صواريخ غير قانونية تتجاوز المدى المسموح.

في عيد الحب من سنة **2003** وبينما العشاق في العراق وخارجه يتبادلون التهاني، يفاجئ هانز بليكس ـ رئيس فريق مفتشي الأسلحة ـ العالم بتقرير الامم المتحدة المرقم **1441** بالتزام العراق، ليضع امريكا وبريطانيا في حيرة لإيجاد مسوغ لاجتياحه، بعدها تجهز الولايات المتحدة وفي نفس اليوم مسودة قرار يضع الإجراءات العسكرية العراقية المحظورة تحت الانتداب الامريكي، بعدها أعلنت الأمم المتحدة سحب رعاياها من العراق، فيضطر صلاح إلى لملمة أغراضه ليعود إلى مدينته التي ستكون بمأمن عن الحرب اكثر من العاصمة، بعد أن يئس من معرفة أي خبر بخصوص عادل.

لدى وصوله للمشخاب، اهتم بمتابعة الاحداث من خلال التلفاز مرة، وعن طريق الراديو مرة حين يبتعد عن البيت داخل الحقول سيرا على الاقدام ليستمتع بأصوات النسيم الذي يداعب النباتات ويحدث أصواتا تدغدغ قلبه تذكره بفلورا، أخذ يغمض عينيه كلما هب النسيم ليشاهدها تأتي قادمة بين النباتات تلتف مثل سنبلة بين اطراف رداء النسيم، كأنها ترقص وتدور لتسقط خصرها بين يديه، تأوه وشعر أنه يحتاج لكي يهرب من هذه الحرب لرحلة على الخطوط الجانبية لخصرها، تعود قضاء أغلب أوقات فراغه في المزارع الممتدة بمساحات شاسعة، يفترش الأرض قرب امّه الفزاعة، برفقته كتاب وراديو يتابع منه الأخبار التي تصعد من وتيرة الحرب.

***

في القبو الذي يهجع فيه عادل ومن معه، كانوا شبه مقطوعين عن العالم الخارجي، نادى حراس السجن على أسماء زنزانته، حتى جاء دور اسمه، ليدخل غرفة مكدسة بالملفات، بينما يتناثر على مكتب الشخص الذي يقف أمامه مجموعة أخرى من الملفات، واخذ يدقق في معلوماته، بعدها سلمهُ كتاباً بمظروف، وطُلب منه أن يحمل الكتاب إلى دائرة أمن المنطقة خلال مدة اقصاها عشرة ايام، خرج عادل من السجن دون أن يكون هناك شخص ينتظره على عكس زملائه في الزنزانة، فقد شاهد عوائلهم تستقبلهم بدموع الفرح والهلاهل ونثر الحلويات، تمنى أن يجد أمّه أو أباه أو شهد أو (صلاح) أو بلقيس أو حتى شيخ فتحي، فهو في حاجة إلى ذراعين تطوقه، أو ظل يستقبله، يسأله عن حاله، أو يهنئه بعودة الحرية له.

في نفس اللحظة كانت شهد تجلس امام شاشة تلفزيون الشباب، وهي تضع طفلها قربها على الاريكة، وفي يدها صحن من الرز، تخرج منه الشوائب، تكلم معها زوجها يعرب لكنها لم تعره اية اهمية، كانا يتخاصمان كثيرا، وحاولت التركيز في التلفاز وهي تشاهد مسلسلا عراقيا، ليقطع المسلسل بأغنية وطنية، ثم ظهر المذيع عماد الدليمي بالغترة والعقال ليعلن نقلا حيّا ومباشرا لعملية العفو العام وتفريغ السجون، ابصرت شهد مشهد السجناء وهم يحضنون بعضهم البعض بالدموع والصراخ في مشهد سريالي لم تألفه، كانت الكامرة تقترب من السجناء وهي تقرب وجوههم لتنتبه لعادل وهو يقف وحيدا دون ان يستقبله احد، توقفت يداها عن التقاط الحبات بينما بقيت اصابعها ممسكة بحبتين وهي فاغرة فاها، كانت لقطة سريعة، واخذت تشك هل هو عادل أو انها صارت تتوهم، حتى اقتنعت بانها توهمت فماذا يفعل عادل بالسجن؟

وصل عادل إلى مرأب العلاوي ولا يدري إلى أين يتجه؟ شاهد نفسه في مرآة مغاسل المرآب فلم يستطع التعرف على نفسه، لم يكن (عادل) نفسه قبل دخول الزنزانة، أصبح انحل بكثير لدرجة الهزال، برأس حليق ووجه عبوس، شعر ان ذاته تحطمت كثيرا وهو ينظر في المرآة، احس انه كيس التبن نفسه مهما تغيرت ملامحه، سمنّ أو نحلّ، ما بداخله خواء، نظر في المرآة صامتا وكأنه يتذكر ما فعلت به الأيام، لقد مرَّ بعدد كبير من المرآيا، لم يتعرف على نفسه فيها، شعر أن عليه أن يتعرف على نفسه خارج مرايا البشر، وأن هناك مرآة واحدة ليست أمامه ولا خلفه، اعتقد انها في داخله، غرز سبابته في صدره يشير لذاته

مخاطبا: إنها ذاتي، أنا وذاتي لا يمكن لأحدنا أن يرى الآخر، مثل العملة النقدية لا يرى وجهها ظهرها.

على هذا النحو قرر أن لا يعود إلى الحلة، فبأي وجه سيرى أهله، بكل تأكيد لا أحد هناك يعرف بأنه سجن، قبل اعتقاله بأسابيع حين كان في زيارة خاطفة للأهل، اخبرهم أنه وجد عملا لا يؤثر على دوامه ولن يعود لهم في العطلة الصيفية، قرر بشكل سريع البحث عن العمارة التي يسكن فيها صلاح، ركب إلى مرأب باب المعظم وبعد وصوله، سأل عن الباصات التي تمر بمنطقة الطالبية وبعد ركوبه الباص طلب من السائق انزاله عند أول عمارة تقع بعد جسر الطالبية، بعد الوصول للعمارة التقى بحجي عكَاب، فابلغه أن صلاح وزميله قد غادرا البناية منذ مدة دون معرفة واجهتهم، فلم يكن أمامه خيار آخر غير الجامع، أنه الخيار المر لكنه افضل مما كان فيه وافضل من أن يتسكع في الشوارع.

بعد انتظار طويل في باب الجامع شاهد شيخ فتحي قادما من بعيد، فناداه فرحا، لم يهتم لأمره لظنه شحاتا أو محتاجا، فمظهره لم يوح اكثر من ذلك، حتى اقترب منه يحدثه:

ـ كيف حالك شيخنا؟

فرد الشيخ وهو يسير دون توقف:

ـ الحمد لله، أنت شاب فتي لماذا لا تعمل، المساعدة يجب أن تكون للشيوخ والعجزة والايتام.

ـ شيخ الم تعرفني؟

توقف الشيخ وشرع يزرع نظراته فيه متفحصا واصابعه تنبش لحيته:

ـ وجهك ليس بغريب، من عادل؟

اجاب بفرح غامر:

ـ اي شيخنا عادل.

ـ اذا خرجت.

رفع يده وهو يلوح بسبابته مخاطبا:

ـ لا مكان لك هنا، هذا الجامع مكان مقدس لا يأوي من يخون وطنه، ابتعد من هنا، اياك أن تريني وجهك القبيح ثانية، ثم اتجه يفتح الباب، وقبل أن يدخل التفت إليه واكمل:

ـ حينها لن تلوم إلّا نفسك.

صدمة كبيرة وشعور باليأس، إلى أين يمضي؟ اخذ يهيم ماشياً لا يدرك غايته، تنهمر الدموع في عينيه، لم يبق له خيار غير العودة للحلة، لكنه فضل الموت على العودة، ردد بصوت مسموع: أين أنت يا صلاح؟ أين أنت؟ اتعبه المسير ولا يدري كم من الوقت قد مضى سيرا، حتى وجد نفسه دون شعور في شارع ابي نؤاس، على ضفة نهر دجلة جلس تحت إحدى الشجيرات، لمْ ينتبه إلى من حوله من الجالسين، لا يرى إلّا المه وحيرته وقد اقترب الليل من السدول، انتبه إلى شخص قريب منه يحدثه:

ـ ما بك؟

لكنه لم يجبه، اقترب الشخص منه وهو يحمل في يده زجاجة عرق شبه ملأى، كان ثملاً لدرجة أنه تحدث بصعوبة، وكاد أن يسقط فوقه لولا أن تمكن من التحكم بجسده في اللحظة المناسبة وتحدث إليه بصعوبة:

ـ لا شيء يستحق، خذ هذا العرق هو الحل الوحيد لكل مشاكلنا، اشرب وارتاح.

ـ شكرا.

قال عادل بعد أن أخذ زجاجة العرق، وشرع يشربها دفعة واحدة، وكأنه يريد قتل نفسه، بينما أخرج الرجل سيجارة وناوله أخرى وأردف يخاطبه:

ـ اسمي قيس.

ثم اخرج قداحة، وأراد أن يوقدها لكنها سقطت منه، تناولها عادل وشرع يوقدها له ثم لنفسه، سأل قيس وهو يتحدث بصعوبة:

ـ ما قصتك؟

لم يجب عادل وإنما اخذ يفرغ زجاجة العرق في جوفه، بينما مدد قيس جسده في الارض واضعاً رأسه على فخذه، اخذ الخدر يغزو جسد عادل وصداع قوي ملأ رأسه، فهو لم يشرب بهذه الكمية وبهذه الطريقة من قبل، بعد نوم قيس ازاحه من على فخذه، ثم نهض من مكانه بعد أن احسّ بارتفاع حرارته وصار يتعرق بغزارة، اتجه يتعثر صوب نهر دجلة ثم سقط ليتدحرج على ضفتها ممسكا بنباتات القصب الكثيفة التي تصدر وسوسة مع رقصة متقلبة على الجانبين مثل ام تلوذ على فقيدها، تردد خلفها الضفادع بنقنقة متناغمة وكأنها كورال، حاول النهوض لتمتد نحوه يد بيضاء ناعمة امسكته بلطف وهي ترفعه بهدوء دون تكلف، رفع رأسه لينظر نحوها:

ـ بلقيس؟

ابتسمت واخذت تتمشى على طول ضفة النهر، ابتعدت ثم عادت تمد ذراعيها وهي تغمض عينيها، بينما هو يراقبها تقترب منه حتى توقفت، واخذت تجثم بقربه تجلس على عجيزتها وتلف رجلا داخل اخرى واضعة يديها فوق ساقيها، رأسها صوب النهر مغمض العينين:

ـ الحرب.. الغرق.. إليه راجعون.

ـ انا متفائل بالحرب، سينتهي الظلم، سنتحرر.

ـ الحرب ظلام والظلام لا يزيح الظلم، الحب فقط هو من ينقذنا، الحرب يا صديقي ستجعلك تحت الغرق .

ـ وما الفرق ألم نغرق سابقا؟

ـ تخيل ان جسدك يغرق كله، لكنه يعيش ويعوم مثل سمكة صغيرة جدا، بينما تمر الدبابات والمدرعات والهمرات مثل حيتان.

ثم فتحت عينيها واخذت ابتسامتها تختفي واكملت امام صمت عادل:

ـ ستظهر اسماك كبيرة وجديدة لم تسمع بها، انواع كثيرة وأشكال غريبة، ستتبدل كل الوجوه وكل الاسماء، وستقابل اشخاصا تعرفهم سابقاً بوجوه وأسماء لا تعرفها، فلديهم القدرة على تغيير اشكالهم باستمرار مثل إله البحر عند الاغريق بروتويس.

يخيم صمت طويل، ثم تكمل بلقيس:

ـ آه .. من هذا العالم الذي ستغرق فيه، انه عجيب بكائناته التي تبدو لك متشابه لكنها مختلفة الارواح والنوايا.

ـ اين تختفين في كل مرة؟

ـ انا تحت الماء، اغطس بالحقيقة افضل من ان عيش بالوهم.

ـ هل نحن نعيش بالوهم؟

ـ كل من يتوهم الغرق يغرق، انتم الان في مرحلة انتقالية من فوق الغرق الى تحته.

ـ اشعر انك متناقضة، تقولين انك تحت الماء، واننا سنكون تحت الغرق، هل هناك فرق؟

ـ من يعيش تحت الماء يعيش الحقيقة، اما انتم فستغرقون بوهم الخلاص والحرية، حينها ستغرقون وتسبحون تحت رحمة الحروب والرصاص والموت والقتل والخطف، آه .. في الغرق الطريق واحد، وفي الماء الطرق تحمل اكثر من اتجاه، اتذكر حديثنا عن (فوق الغرق)؟

ـ لازال صداه في ذاكرتي.

ـ كنتم تتفرجون على اجسادكم دون ان تفعلوا شيئا، كان بالإمكان ان تفعلوا شيئا ما دام رأسكم يرى جسدكم يغرق، اما القادم فكل اجسادكم ستغرق.

ـ كيف اكون تحت الماء مثلك؟ خلصيني؟ خذيني معك؟

ـ كلكم ستأتون الى (تحت الماء)، لكن الامر ليس بيدي.

تموجت مثل صورة في ماء، بينما هو شرع يفرك وجهه وعينية براحة يده حتى اختفت، شعر بحاجة للنوم، وألقى بجسده على الارض لينام وهو يحتضن أوجاعه وحيرته.

أشعة الشمس القوية توقظه، والجوع يمزق أمعاءه، والصداع يأكل رأسه، شعر بأن رأسه سينفجر، نهض مستغربا كيف نام بالعراء، بينما مازال قيس نائما، شعر بحاجة للتبول فمثانته تكاد تنفجر، اختار مكاناً خلف شجرة ليفرغها، سار وهو منهمك داخل إحدى الأزقة التي تطل على شارع أبي نؤاس، ليصل به إلى شارع السعدون دون معرفته بذلك، شعر بدوار كبير وبحاجة لان يتقيأ لكنه لم يتوقف، وشعر أن ليس هناك ما يملكه وليس هناك ما يستحقه، لاشي يستحق أن يكون له، كل الاشياء لا تريد أن تكون له، هل عليَّه الاستسلام أو التفكير بالتعويض، فالموت هو الشيء الوحيد الذي يستطيع الحصول عليه، شعر أن البنايات تدور حوله والشارع يرقص تحت قدميه، أصبحت المناظر أمامه تتحرك مثل مقطع ميديا لمدينة يضربها زلزال، ثم بلحظة أحس أنه يسير بالمقلوب فالشارع فوق رأسه، بينما رجلاه تسيران في الفضاء ثم ساد الظلام وسكن كل شيء.

وقفت شهد أمامه، وطفقت تركض وهي ممسكة بيده، وصلا جسرا مغطي بالعشب الاخضر، بحواجز بيض تشع نوراً، يطل على نهر خلاب، تملأ ضفافه أشجار نظرة، تجري فيه المياه بلون ازرق صافٍ بسكينة وهدوء، يتناغم مع أصوات عذبة للطيور، وموسيقى ساحرة تعزفها بلقيس وهي تمسك قيثارة عاجية تشع نورا، بينما الفراشات ترقص حولهما، مدت شهد يديها الشفافتين وطوقت رقبته، لتطبع على شفتيه قبلة نهمة طويلة.

استفاق من غيبوبته ليجد نفسه ممددا فوق سرير ابيض، وفي يديه الكانيولا وألم شديد في رأسه، وبطنه، وشعور بالبرد، ثم سمع أصوات تقترب منه وحوله، فعرف أنه في المستشفى، اقترب منه صوت ناعم يحدثه:

ـ حمد لله على سلامتك

وجه باسم، وعينان زرقاوان، وشعر ذهبي ربط بكماشة على شكل فراشه فضيه صغيرة، لينام بهدوء على ظهرها وهو يعبر رقبة من رخام تخنق بسلسة فضية يتدلى منها صليب بلون لازوردي ينتهي بقميص أحمر يختفي تحت الصدرية البيضاء، امتدت باطن كفها تتلمس جبينه ثم بظهر الكف تتلمس خديه وخاطبته:

ـ كيف تشعر الآن؟.

ـ تمام.

رد بصعوبة وهو يبلل شفتيه، بعدها ابتسمت إليه، وهي تبدل الكيس المعلق في الحمالة قرب سريره، ثم أردفت قبل أن تغادر:

ـ ستكون بحالة افضل.

قضى ليلة كاملة فيها، وتحسنت حالته بعد أن حصل على وجبات خفيفة من الطعام المخصص للراقدين، رغم أنه لم يحبذ طعمه، في الصباح عادت الفتاة ذات الصليب وهي تحييه تحية الصباح، انتابهُ شعور غريب اتجاهها، بدأ يراها أجمل من ليلة أمس بكثير، تشع حيوية وجمالا وانوثة، شده ثغرها الصغير المنمق بأحمر شفاه خفيف، بينما عطرها زرع بذورا جديدة للحياة انسته كل تيبس من ماضي أيامه، شعر برغبة كبيرة لتطويقها وسلب عطرها ولثم شفتيها، خجلت من نظراته الفاضحة ونطقت تداري خجلها:

ـ تحسنت حالتك والآن يمكنك الخروج.

ـ لا أرجوك.

صرخ وهو يمسك يدها، سحبت يدها متفاجئة، فأردف:

ـ ليس لدي مكان لأذهب اليه، أرجوك ساعديني، اتركيني أرقد ليلة أخرى.

ـ لكن هذه مستشفى وليست فندق.

ـ أرجوك.

شعرت بعاطفة نحوه، وبرغبة لتلبية طلبه ثم عقدت حاجبيها وهي تدخل شفتها السفلى في فمها وتمسكها بأسنانها ثم اطلقت سراحها لتحدثه:

ـ ماهي قصتك؟

فحول نظره من عينيها إلى السقف، ثم أخذ يقص عليها قصته وشعر بأن حزنه رواية، سيكتب عندما يموت، نهضت من عنده، وهي متألمة لسماع حكايته وحدثته:

ـ الفقراء سنابلٌ مقطوعة الرأس، ومواسم الحصاد جوع، والموت خبزٌ لمن يتجرأ على قدره، فجسد المسيح بيع في قداس الدمِ، والعشاء الأخير كان صدر الامِّ.

سكتت وهي ترسم علامة الصليب مرددة بصوت خفيض:

ـ شمت بابا وبرونا روحا خنجا خالد امين.

ثم اخرجت ورقة وقلم وحدثته:

ـ لا تهتم سأساعدك، هذا عنوان مطعم لأخي ايشو، قرب المسرح الوطني، اذهب إليه وقل له أنا من طرف ريتا.

ثم اخرجت مبلغاً من المال، فرفض أخذه رفضا شديدا، لكنها أقنعته

أنه دين وعليه إعادته لها، تبادلا ابتسامة واخذت تداري نظراتها صوب كيس المغذي وخاطبته:

ـ عليك أن تخرج الان.

ودعها بامتنان، فلم يتذوق منذ قدومه إلى بغداد طعم السعادة كما تذوقه من ريتا، شعر انها ملاك للرحمة.

وصل إلى المطعم، ما أن وقعت عيناه على ايشو، حتى اكتشف بأنه يشبه اخته لولا الصلعة التي تأخذ المساحة الامامية، تاركاً شعره الخلفي الأشقر يمتد على عنقه وهو يشدّهُ بطريقة مذهلة، كأنه خلق ليكون عازف جيتار وليس صاحب مطعم، القى عليه التحية وصافحه معرفا عن نفسه، فرحب به وأخبره بأن ريتا اتصلت به واخبرته بقصته، لكن الوضع مرتبك والحرب على الابواب، وبين له أن المطعم لا يسد مصاريف الايجار، ثم أشار إلى الطاولات القليلة محدثا:

ـ كما ترى مطعم بسيط، نقدم فيه الدجاج المشوي فقط، وأنا اعتمد على وديع العامل الوحيد كما تشاهد.

شعر بحزن شديد وأطرق برأسه، ثم خطرت له فكرة فقال:

ـ أنا لست بحاجة للمال، سأعمل مقابل السكن والمأكل، أن سمحت بذلك.

طرق ايشو رأسه، يفكر بالأمر مترددا وهو يمسد صلعته بيده ثم أبتسم له وقال:

ـ اوكي.

فرح عادل كثيرا، لأنه وجد مكانا يأويه ويقدم له ما يسد به جوعه، وشرع يعمل بكل ما يملك من طاقة ليثبت وجوده وإخلاصه لايشو، بعد انتهاء اليوم الاول من العمل ودعه ايشو، وهو يغلق عليه المطعم لينتهي به الليل مع الطاولات، افترش له مكانا بينهن بعد ازاحة المقاعد، ثم جلس بمكان ايشو واشعل سيجاره وهو يرفع رجلا فوق أخرى، بينما يده تمطي رأسه، وطفق يستكشف المكان فلفت انتباه صورة لمريم العذراء وأخرى ليسوع وهو مثبت بمسامير على الصليب بينما الدماء تسيل منه، ثم صورة أخرى للعشاء الاخير والتي قرأ عنها سابقا في كتب والده، انتبه لصورة قديمة لم يفهم مغزاها، شرع يكتشفها، عبارة عن غيوم هناك تجاور الافق البعيد داخل اللوحة التي امسكت بيد واحدة ياقة الجدار الهرم، بكسل واضح وضعت تلك الغيوم اقدامها على الجبال التي تتوسط اللوحة، ثم بان معبد قديم بمنارة طويلة تشبه حربة بوجه السماء تناثرت حوله البيوت كأنها تحتمي به، وأخذت الاشجار تتناثر من أسفل الجبال حتى السور الكبير الذي يحيط المدينة، بينما الشجرة الاقرب إلى السور تأخذ الحيز الايسر من اللوحة وهي تبدو اكبرهن، قرب السور هناك امرأة تقف بمفردها بجوار نهر، تحمل كتيبا صغيرا على ما بان له، أو ربما شيء آخر، ترتدي فستان ابيض طويل يختلط مع الغيوم، وفي الزاوية الاقرب للشجرة الكبيرة، يقف رجلان وهما يتهامسان، كأنهما يخفيان أمرا خطيرا، تخيل عادل أن الذي يبدو أصغر سنا يلتفت إليه وهو ينبه صاحبه مشيرا بسبابته نحوه، فيرد عليه:

ـ لا تهتم له، لا أحد يفهم كلامنا إلّا الرسام الذي ورطنا بهذا الوجود الحقير!

فتتحرك الفتاة وتقترب من الرجلين اكثر، فينظران إليها بحنق ثم ينزلان على وجهيهما اقنعة، فيندمجان سويا وتنبت لهما رؤوسا جديدة، شعر عادل بخوف شديد وارتفعت حرارته ثم اصابه دوار شديد وهو يتصبب عرقا، اخذت الفتاة تقترب منه اكثر واكثر حتى اكتشف انها بلقيس نفسها، ابتسمت له ثم خاطبته:

ـ ستموت رؤوس وتنبت رؤوس اكثر، ولكن يا صديقي ستخدعك الرؤوس، تموت ثعبان وتولد من تحتها الالف ثعبان، حين تكون تحت الغرق، تتشابه الوجوه، وتتشابه الالوان.

ـ انت دوما تخيفيني، صرت أتشاءم كلما ظهرتِ، ماذا تريدين مني ولماذا تلاحقيني؟

ـ ليس لي ذنب يا صديقي، ليس لي ذنب، انا ازيح السخام عن الحوادث واقرأها رغم انها كتبت باللون الاسود، انتم دائما اتجاه الحرب تكونون اوغادا.

ـ مللت تفسيراتك ووعودك اخبريني كيف انقذ نفسي؟

ـ كي تنقذ وجودك عليك أن تغطس بالماء دون أن تغرق.

ادار ظهره لها وهو يحرك كرسيه وكأنه لا يريد أن يراها او يستمع لها، فالتفت حول نفسها وهي ترفع يدها الى الاعلى، اخذت تغطس اكثر واكثر حتى اختفت في النهر داخل اللوحة.

(2)

اسبوعان متواصلان من العمل بدون أجر، ولحسن حظه فقد اعتذر وديع العامل الذي يساعد ايشو في المطعم عن مواصلة العمل لأنه سيسافر إلى الشمال وبالتحديد إلى قرية اشاوا في محافظة دهوك هو وعائلته هربا من احتمال وقوع الحرب التي اصبح صوت ضجيجها يقترب اكثر، لان المحافظات في شمال العراق خارج سيادة الدولة منذ **1992** وخارج حدود الخطر، ليصبح هو العامل الوحيد للمطعم مقابل مبلغ الف وخمسمائة دينار، تطورت علاقته بايشو وصار يعامله كصديق حميم، وذات مره وجد نسخة من الكتاب المقدس في احدى مجرات مكتبه، يتضمن العهدين القديم (التوراة)والجديد (الانجيل)، واخذ يقرا كل يوم جزءاً بسيطا منه، وعندما وجده مرة ايشو يقرأ فيه، شرع يناقشه سائلا:

ـ كيف وجدت الانجيل بالنسبة للقران؟

ـ لمْ اقرأ القران كاملا.

ـ عجيب ألست مسلما؟

ـ لا ادري، لكني مسلم في الجنسية.

ضحكا معا، ثم اكمل عادل:

ـ أنا من بيئة مسلمة لكن والدي لم يكن متدينا، دائما ما يردد أن التدين رأس مال الانسان الخاوي، وحين سألته مرة ما هو الدين؟ أجاب:

ـ إن الدين كالشمس، لا يمكن لك أن تبصر بها الوجود إذا وضعت ضوؤها فيك، يجب أن يكون ضوؤها حولك لكي تبصر.

ـ لم افهم شيئا!

قال ايشو فرد عليه:

ـ الدين أكبر من أن نحصره في داخلنا كما الشمس، يجب أن تبقى في السماء، أتعلم بعد قراءتي للعهد القديم والجديد، اكتشف شيئا مهما، أن الاديان مصدرها واحد، جاء به رجل ما في زمن ما، حمله في صدره، وبعد زمن ضعف هذا الرجل فقام من هو اقوى منه بشق صدره وسرقة الدين منه، ليحمل بعده باليدين بعد أن كان يحمل في القلب، واستمر يسرق من يد إلى يد اخرى، وكل من يحمله يدعي أنه وصي من الله، نحن أصبحنا نترك ضوء الشمس والقمر ونتبع من يحمل بيده المصابيح، الحقيقة تظهر في العتمة لا حاجة للمصابيح، هكذا تركنا الله وأصبحنا نتمسك بمن نعتقد أنهم يمثلونه! الله كما تتحدث الكتب انزل انبياءه لكي ينقذ البشر، لكن الآن عليه أن ينزل انبياءً ليخلصوه منهم، أصبح مستعبدا من قبل المدعين الانتماء إليه.

ـ كلامك جميل، أنه يشبه كلام يسوع.

ـ هههه ليس كل ما كتب عن يسوع خرج من يسوع ولا باقي الانبياء.

ـ الانجيل هو الحقيقة.

رد ايشو بعد شعوره بأن (عادل) يتهم الانجيل بأنه ليس كلام يسوع، فأجابه بهدوء:

ـ الحقيقة؟ الحقيقة هي اكثر من ترغب بالخداع، انا لا احتاج إلى حقيقة تدخلها في عقلي، أنا احتاج لحقيقة تدخلني فيها، كل من يريد الذهاب لسرب ما، عليه أن يصنع جناحه، لا أن يطير بجناح غيره، حينها سيعرف أنه لم يكن يطير بل كان يحمل فقط.

ـ دعنا من حوار الدين لأنه سيقودنا للخصام.

ـ نحن دائما ما نتكلم عن خصام الاشياء ولا نسعى لتوحيدها، لأننا متخاصمين مع أنفسنا فكيف نرضي الاخرين.

ـ نحتاج إلى تنظيف انفسنا من الشيطان ولا ينظف النفس إلّا الدين.

ـ لا ينظف النفس إلّا النفس كما البحر لا ينظفه إلّا امواجه.

ـ هل أنت شيوعي؟

ـ هههه الشيوعية دين آخر، حسنته الوحيدة أنه استبدل المصحف بالخبز، كان والدي شيوعيا، لكنه اكتشف بعد فوات العمر بأنه كان يلهث خلف شعارات لا أكثر.

ـ اذا انت ملحد؟

ـ هل تسمح ان اجيب على سؤالك بسؤال؟

ـ تفضل

ـ هل الله مؤمن أم ملحد؟

تفاجأ ايشو بالسؤال وشعر بالإحراج لا يدري ماذا يجيب، فحاول ان ينجو بجواب لا يدري صحته:

ـ لا مؤمن ولا ملحد، الله هو الله، خالق المؤمن والملحد.

لكن الاسلام والمسيحية يعتبرون الله مؤمن، يوصف الله بالمؤمن عند المسلمين ضمن اسمائه الحسنى لديهم، اما المسيحية فقرأت نصا في الانجيل على لسان الرب يقول: (ان لم تكن تؤمن بي فأنا اومن بك)، وهنا اود ان اسألك الله بمن يؤمن؟

ـ لا ادري.

ـ انه يؤمن بالإنسان حسب القول السابق (يؤمن بك)، اذا الله يؤمن بالإنسانية، لمَ لا نؤمن بالإنسانية كي نكون مثل الله.

ـ يجب ان تؤمن بالله.

رد ايشو وهو ينهض وكأنه يريد ان يهرب من هذا الحوار الذي شعر انه يزعزع ايمانه ومعتقده، بينما انتبه عادل الى ان جميع الكتب السماوية تتحدث عن السلام وحدث نفسه: «آه ... كثيراً ما تحدثت السماء عن السلام، ولكن إله الحرب ابتسم أخيراً».

(3)

بدأت الطائرات تحجب السماء بتزاحمها، وهي ترفرف كأفاعي الكرنفالات الورقية فوق رؤوس البنايات، فالقنابل في الليل تضيء السماء وهي ترسم بدخانها الملون لوحات كيف ما تشاء، في حين يكثر ازيز الطائرات كأنها اصوات دبابير غاضبة، الطائرات الأمريكية البريطانية تكثف من قصف العاصمة وميناء البصرة، تحولت سماء بغداد إلى شاشة تلفزيونية للعبة الكترونية بيد طفل مراهق يريد أن يدمر مدينة افتراضية ليشبع غرائزه بانتصار افتراضي، روسيا تلمح إلى استخدام حقها في الفيتو، وتعلن مع المانيا وفرنسا في بيان مشترك اعتراضهم لأي قرار يمرر ضربة عسكرية ضد العراق، بينما بوش يظهر مبتسما باستهزاء ليعلن في خطاب تلفزيوني أن الحرب باتت وشيكة، اضطراب دولي بسبب تصريح وزير الدفاع الامريكي، أن امريكا قد تهاجم العراق لوحدها، لكن ما يضر الحوت اذا اضطرب البحر؟، فيظهر رئيس وزراء بريطانيا ويعلن أن بلاده ستحارب إلى جنب امريكا، تصاعدت الاحداث والاجتماعات والتصريحات، حتى أعلن البيت الابيض أن الرئيس بوش أعطى اوامره ببدء العمليات العسكرية ضد العراق صباح يوم **19** من اذار بعد لقاء مطول مع مساعديه.

قرعت الحرب طبولها لتسقط بغداد مثل تفاحة نخرتها الديدان، وسقطت باقي المحافظات الواحدة تلو الاخرى مثل حبات مسبحة،

قطع الخيط الذي يرصفها جنبا إلى جنب، واعلن وزير الدفاع الامريكي أن جميع المحافظات العراقية تحت سيطرة القوات الأمريكية ليصبح العراق الولاية الأمريكية الحادية والخمسون.

فرح صلاح بسقوط النظام الحاكم متفائلا بمستقبل زاهر للبلاد، وشعر أن العراق سينفتح على جميع دول العالم، وسيصبح ولاية أميركية من حيث الكهرباء والماء وتطور البنى التحتية وقطاعات المال والتجارة، تخيّل ان بلده سيكون منافسا لدول المنطقة، لكن الاحداث المتلاحقة أشعرته بالحزن وبخيبة أمل كبيرة، فالبلد يتعرض لسلب ونهب وحرق للبنى التحتية، بدءاً بالمتحف العراقي والمصارف العراقية، وشاهد على شاشات التلفاز كيف يتقاتل الناس فيما بينهم على السرقات، ثم لحقت بعمليات السلب والنهب والحرق، عمليات قتل وتفجير، ادت بالبلد الى فقدان الامن والاستقرار، لم ينس اللحظة التي مرت فيها الدبابات الأمريكية في مزارع مدينته المشخاب وهي تسحق المحاصيل الزراعية بدون اهتمام، ودهشه احد الجنود المارينز حين صوب بندقيته صوب الفزاعة الام، وهو يمطرها بوابل من الرصاص لتسقط بهدوء على وجهها، شعر ان طريقة سقوطها تشبه سقوط تمثال الرئيس السابق كما شاهده في التلفاز، اصيب بحزن شديد وكأن البلد سقط بسقوط الفزاعة لا بسقوط النظام فيه، بينما شرع الاطفال يستقبلونهم فرحين بعد أن يرشقهم الجنود بزجاجات الماء وقطع الحلوى وتوزيع الكرات أحيانا، اصبح لمنظر الفزاعة وهي صريعة في الارض ومنظر النباتات وهي مهشمة السيقان، منزوعة الاوراق، متناثرة حبات سنابلها وقع سيء على نفسه، شعر وهو يمسك إحدى السنابل التي دهستها الدبابات، أن البلد

مقبل على خطر شديد، امسك قلبه وهو يتذكر فلورا وخشى أن يصيبها ما أصاب النباتات.

***

استمر عادل يعمل في المطعم حتى وقعت الحرب، اختفى ايشو في البيت بعد سقوط بغداد، ولم يعد يأتي بينما عاش هو صفحات جديدة من الرعب، وشاهد بعينه كيف تسرق الدوائر والمحال والمصارف وبأم عينه شاهد القتل والجثث التي تتكدس على الارصفة، رجالا ونساءً وكبارا وشبابا واطفالا، دماء واجساد متعفنة في الشوارع، شعر ان بغداد تغرق بالدخان والموت لكنه سعد بسقوط النظام الذي سرق حبيبته ودراسته وشبابه، ورماه خارج حدود الامل يتسكع بين الشوارع وحيدا.

قضى اكثر من عشرين يوم داخل المطعم، ايام مرعبة صاحبتها عواصف ترابيه حولت النهار إلى ليل وكأن بغداد استعدت للسواد فارتدى نهارها الليل، لكن عزاءه الوحيد وجود عمال أكراد من محافظة السليمانية يعملون في المطعم المجاور له، يدعونه في أوقات الطعام، ويجالسهم اوقات الليل، قرر ترك المطعم والعودة إلى مدينته الحلة حين تنتهي الحرب وتهدأ الاوضاع.

(4)

في الشهر الخامس عادت الحياة تنبض من جديد في العراق بعد انتهاء الحرب، لكنها لازالت تسعل دخانا، حزم صلاح حقيبته عائدا لجامعته بعد اعلان عودة المدارس والجامعات لفتح ابوابها لإكمال الموسم الدراسي مع تغير بسيط في المناهج، في نفس الوقت حزم عادل أَلَمَهُ مسافرا إلى مدينة الحلة، بعد اشتياقه لوالديه كثيرا.

جلس عادل في إحدى الباصات المتجهة إلى مدينته الحلة، واخذ يقارن بين السفر للحلة امس واليوم، انتبه الى أن كل شيء تغير مكان السيارات، قيمة الاجرة، بعد تغير قيمة الدينار العراقي ففي السابق كانت قيمة الاجرة مائتين وخمسون دينار، بينما أصبحت بعد التغيير خمسة آلاف دينار، كما تغير نوع السيارات، فشحت الباصات الكبيرة وكثرت الباصات الصغيرة (ميكروباص)، كما تغير زمن الوصول إلى أكثر من ضعف الوقت، فكان الطريق لا يتجاوز الساعة والنصف بكل الاحوال، اما الان فقد يستغرق الطريق في الوضع الطبيعي ثلاث ساعات، كذلك المدن، البيوت، المناظر على طول الطريق بدت جميعها مختلفة، كثرت نقاط التفتيش، فمرة نقطة للشرطة العراقية، ومرة للقوات الامريكية، ومرة لقوات مشتركة، كثرتها أشعرته بالملل، عند منطقة اللطيفية توقفت السيارة لمدة أربع ساعات، بسبب قطع

الطريق من قبل القوات الأمريكية بعد اكتشاف عبوة ناسفة من قبلهم، فصار على الركاب الانتظار داخل السيارة، انتبه عادل إلى شجرة كالبتوس تراقصها الرياح بين مجموعة من الاشجار الميتة عطشا، بينما تتكدس حولها عشرات من زجاجات الماء الفارغة، اطمأنّ وهو يبصرها، فمازال هناك امل بالحياة مادامت الشجرة تراقص الريح، رغم الجفاف الذي يمتص الزجاجات الفارغة حولها.

رغم كل هذه الاحداث، ورغم الموت المزروع على طول الطريق، تذكر عادل الرحلة الاولى إلى بغداد قبل سنتين، واخذ يعيد كل الاحداث التي مرت به خلالها، شعر أن حبه لبغداد اصبح لعنةً عليه وعلى العاصمة نفسها، فلقد دُمرت كما دمر هو أيضا، ها هو يغادرها لعلها تعود كما كانت، وأثناء انشغاله بالتفكير، لمح أو توهم أنه شاهد صديقه صلاح قرب نافذة إحدى السيارات المتوجهة إلى العاصمة بغداد، التفت خلف السيارة وشعر أن روحه تغادره وتلحق بالسيارة العائدة إلى بغداد.

***

الخراب الذي عم بغداد شغلَّ صلاح، فالبنايات والبيوت اما محروقة، أو مهدمة، أو تملأُ جدرانها الثقوب، جلس قرب نافذة السيارة وهو يمني النفس برؤية منزل دون أن تدفن على جدرانه رصاصة، فجدران البيوت تحولت إلى مقابر للرصاص، وتحولت بغداد إلى خربة، شعر ان الحرب تلك العجوز الشريرة التي جاءت لتذكر ناسها أن بغداد مدينة خلقت لتغزوها جيوش الطامعين، خلقت لتنهب وتحرق، تاريخها يحمل ثلاثين غزوا، أكثر الغزوات قسوة ووحشية في العالم، عزا ما تعرضت إليه بغداد على مدى التاريخ من غزوات متكررة إلى جمالها واختلافها عن جميع

مدن العالم بخصوصيتها ومعالمها الطبيعية والاثرية، وصورها مثل ثمرة شهية تكون عرضة لكل الديدان والطيور والمخلوقات الاخرى.

وجد صلاح بغداد بحلة جديدة وبأزياء لم يألفها ولا تليق بها، بغداد تلبس المدرعات والدبابات والأسلاك الشائكة والصبات الكونكريتية، كأنه اشتبه في المدينة التي قصدها، امتلأت أرصفة الشوارع بالمواد المسروقة، والاجهزة الكهربائية والالكترونية المسروقة من دوائر الدولة، لفت انتباهه اجهزة صحية تعود للمستشفيات تعرض على ارصفة السلب والنهب والفرهود، واستغرب حين شاهد وهو يمر في شوارعها كيف تباع الأسلحة الخفيفة والثقيلة بأنواعها وبشكل علني، وأمام ابتسامات القوات الأمريكية، شعر بغصة في القلب وهو يشاهد الكتب المسروقة من المكتبات العامة، والتي تعتبر ثروة وطنية لا تقدر بثمن، تفترش الارصفة وبأسعار تدل على عدم فهم قيمتها من قبل بائعيها، كما سمع حديث ركاب الباص وهم يمرون من امام المواد المعروضة، من انها سرقت من المتحف العراقي والمكتبات الكبيرة والمهمة في بغداد.

وصل الى بناية الاقسام الداخلية، فلا شيء يمنعه بعد اليوم من السكن فيها، لكنه اكتشف أن إحدى كتائب القوات الأمريكية قد استولت على مجمع السلام، التابع للأقسام الداخلية لطلبة جامعة بغداد، والمجاور لمجمع البعث الذي يسكن فيه، اصبح الوضع خطراً جدا، والطلبة يعيشون حالة خوف وقلق، وعلم بعد وصوله أن الكثير من طلاب المحافظات لم يغادروا الاقسام أثناء الحرب، تعرف على من قتل منهم، وعلى من مازال على قيد الحياة، وتفاجأ أن بعضهم ممن لم يكن يمتلك أكثر من قميص وبنطال، أصبح يملك سيارة حديثة وسلاحا خفيفا

لقيامهم بالاستيلاء على مصرف الجامعة بالإضافة إلى نهب ما فيها من أجهزة كهربائية وإلكترونية.

حين دخل إلى الجامعة لأول مرة بعد تغير النظام، شاهد آثار الخراب والنهب والحرق ولفت انتباهه إزالة الصورة الكبيرة لرئيس الجمهورية المخلوع، ووضعت مكانها أكثر من صورة وبشكل مزدحم، أغلبها لرجال الدين، وكأن المشهد أمام عينيه يوحي إلى التنافس بين العمائم من أجل الحصول على المساحة الابرز التي خلفتها الصورة السابقة، انتبه لنظراتهم والتفاتاتهم وحركاتهم في داخل صورهم، ثم حاول جعلها لوحة واحدة في مخيلته، فتخيلهم يتخاصمون فيما بينهم، فواحد يرفع سبابته، وآخر يصرخ وهو فاتح فاهه، بينما آخر ينظر إليهم بنظرة حادة وهو يعقد حاجبيه.

أصبح الوضع مرتبكا أكثر كلما مرت الأيام، فتكررت عملية اقتحام الاقسام الداخلية من قبل القوات الأمريكية، ودائما ما ينتهي الاقتحام باعتقال شخص وبعد ذلك يتم اطلاق سراحه، كما تكررت عملية اقتحام الحرم الجامعي بشكل عنيف واستفزازي، وشاهد إحدى المرات كيف قام جندي امريكي اثناء اقتحام سريع بضرب أحد عمال الخدمة الذي بدأ له يناهز الخمسين من العمر، وانتبه إلى تغير غريب في لباس الطالبات، أصبح عدد السافرات لا يتجاوز أصابع اليد، ولم يشاهد كما كان سابقا لباسا قصيرا، كما أصبح اللون الأسود اللون الطاغي على لباسهن، شاهد أمام عينيه الصراعات بين الطلبة حسب انتماءاتهم الحزبية، وما أثار استغرابه أن من كانوا يمثلون حزب البعث في الفترة الماضية، هم انفسهم من ترأسوا الحركات الطلابية الكثيرة التي تمثل الاحزاب

السياسية الحالية، ولفت انتباهه حسن الحوراني حين شاهده يحمل صورة لاحد المعممين من الذين يمثلون أحد الاحزاب الاسلامية الجديدة، وهو يتسلق ساعة المستنصرية، ليضع الصورة مجاورة للساعة وسط تصفيق وصلوات من قبل مؤيديه من الطلبة، اصبحت الأجواء مشحونة وامتحانات آخر السنة على الأبواب، فصارت الرغبة لديه شديدة للتخرج، لكن رغم انقلاب الوضع في البلد على عقبيه الا ان فلورا لازالت مختفية، اختفت من كل الاماكن الا قلب صلاح، الذي لازال يبحث عنها ولا يدري لماذا؟ وماذا يريد منها؟.

(5)

وصل عادل مدينة الحلة لأول مرة بعد التغيير الهائل للبلد، بعد مرور أكثر من ستة أشهر من آخر زيارة للمدينة، تغيرت كثيرا، كأنه غادرها قبل عشرات السنين، صور ولافتات تملأ المدينة، الطرقات قطعت أغلبُها، القوات الأمريكية تملأ المداخل والاماكن الرسمية المهمة، يقف لجانبهم قوات من الشرطة العراقية بأزياء مختلفة عن الشرطة المنحلة، استأجر سيارة لم تكن سيارة أجرة، بلوحات فحص سوداء لتوصله إلى منطقته، ما أن وطأت قدماه المكان حتى بدا قلبه ينبض باضطراب لوالديه واخذ يتخيل كيف ستكون زيارته مفاجأة كبيرة لهما، ثم تذكر شهد وسأل نفسه: يا ترى كيف هي الان؟ هل لازالت في الحلة؟ هل انجبت اطفالا؟.

سار متوجها لبيته وهو يمشي بخطوات متواترة بعد ان دخل الزقاق وصار يعدُّ البيوت الواحد تلو الاخر بخطوات ثقيلة وكأنه لا يسير في شارع وانما يصعد سلالم، صار كلما يعدَّ بيتا كأنما يصعد خطوة في السلم، بينما هناك صدى خشن لنبضات قلبه، مثل صدى لصوت حبيس داخل غرفة مظلمة، وكلما دنا من البيت اكثر ازداد قلبه اضطرابا، ليتفاجأ بوجود أسلاك شائكة، وصبات كونكريتية، توقف خطواته ودقاته لتقطع عليه الطريق، لمح لافتة في أعلى البيت كتب عليها (حزب الرغبة

الاسلامي)، وقف مبهورا لا يدري ما الذي يحدث، فنادى علية رجل يحمل بندقية، بلباس مدني صائحا به:

ـ تفضل اخي؟

ـ عفوا، هذا بيت أبو عادل؟

فرد عليه الرجل بعنف:

ـ انت أعمى؟ لو جاهل ما تقرأ؟

أراد أن يخبره أن البيت بيته، لكنه تراجع لأنه صوب بندقيته في وجهه، ليعود في نفس طريقه متجها صوب (دكان أبو فهد) الصديق الحميم لوالده، دخل لدكانه، وألقى عليه التحية، لكنه لم يسمعه، كان منحني الرأس منشغلا بتنظيف نظاراته الطبية بمنديل أبيض تتقاطع فيه مربعات بلون أزرق فاتح فصاح:

ـ عمو أبو فهد، عمو أبو فهد، فأجابه:

ـ نعم عمو.

ـ دون أن يميز الصوت، وراح يلبس نظاراته وينظر إليه ليتعرف عليه، ثم خاطبه:

ـ اتفضل ابني ماذا تريد، فأجابه:

ـ تعرفني؟

ـ لا صغرا بمقامك ابني!

ـ انا عادل

ـ عادل؟! يا عادل؟!

ـ عادل ابن ياسر صديقك وجارك.

ـ عدولي!

ثم طفق يحتضنه وهو ينشج بالبكاء، انهمرت الدموع بغزارة، وأشار له ليجلس، استمر يبكي بشكل متواصل وهو ينزع نظاراته ويضع كفه اليسرى فوق عينيه، لكن (عادل) سأله مستغربا:

ـ لماذا تبكي؟

ـ لا ادري ماذا اقول لك يا ابني، الحمد لله انك ما زلت حيا، كلنا توقعنا انك قتلت.

ـ شكرا عمو، اين انتقل والديّ.

فانفجر ابو فهد مرة أخرى بالبكاء، ولم يجب على سؤاله، شعر عادل بالخوف وعلت نبرة صوته:

ـ هل اصابهم مكروه؟ تكلم اين ذهبا؟

ـ ذهبا إلى رحمة الله، قالها بصوت متكسر ونهض ممسكا برأس عادل الذي لم يستوعب الخبر وسأل مستغربا:

ـ اثنينهم؟

ـ نعم وفي وقت واحد، قصة غريبة يا ابني، تعال لنذهب إلى البيت لترتاح، ثم سأحكي لك القصة، فرد عادل:

ـ لا لن اترك مكاني، قبل أن اعرف كل شيء.

عاد أبو فهد لمكان جلوسه، وتكلم بصوت ملؤه الوجد:

ـ بعد دخول القوات الأمريكية مدينة الحلة، انقسم ابناؤها قسمين القسم الاكبر يرحب بهم والاقل يقاتلهم في الشوارع وهم بعض بقايا حزب البعث والفدائيين، فأخذ الجنود الامريكان يمشطون الشوارع أثناء دخولهم بالرصاص، لكن هذا لم يمنع البعض من الخروج للشوارع للترحيب بهم، من كبارٍ وصغارٍ، والبعض خرج بدافع الاستطلاع والفضول، وفي لحظة مرورهم في زقاقنا، وحين كنت اختبئ داخل بيتي سمعت صوت رصاصات بالقرب من بيتكم، لكني توقعت أنها في الفضاء.

سكت قليلا بعد أن غلبه السعال، بينما عادل ينتظر كلامه بفارق الصبر حتى أكمل:

ـ هذا المرة الاولى والاخيرة التي مرت فيها القوات الأمريكية من هنا، بعدها عم الهدوء ومرت عشرة ايام ولم يخرج والدُك ولا والدتك، وبدأ الموضوع يقلقني، فخرجت وطرقت الجرس والباب ولم يخرج أحد، صحت بما أملك من صوت، فلم يجبني أحد، شرعت أتساءل: هل سافر ابو عادل؟ لكن كيف ولماذا لم يخبرني، لم اقتنع بالفكرة، ثم حاولت دفع الباب لكن قوتي البدنية لم تسعفني، فناديت على بيت جاركم (أبو تحسين) وخرج أولاده، شرحت لهم الموضوع، فأصيبوا بالهلع، واقترحت أن يقفز أحدهم على الحائط ليفتح الباب، وحسنا فعلنا، فبعد دخولنا البيت لم نجد أي أثر لهم، لكننا شممنا رائحة غير طيبة.

راح بكاؤه بصوت عالٍ يقطع حديثه، فصاح به عادل:

ـ أرجوك اكمل.. اكمل.

مسح دموعه وأكمل:

ـ انتبه تحسين إلى باب السطح المفتوح، فهرولنا إلى السطح، وابصرنا مالم نتمناه! لقد وجدنا والديك قد تكوّما الواحد فوق الاخر، وهما منتفخان فلم نستطع أن نقاوم الرائحة.

وشرع يبكي من جديد، لكن (عادل) لم يبك ولازال ينظر بنظرة غريبة إليه، ثم سأله:

ـ من قتلهم؟

ـ وجدنا قرب جثتيهم هناك تناثر لقطع الطابوق وبعد تفحص المكان، شاهدنا ثقوب لرصاص تخترق ستارة البيت، فاعتقد الجميع، أنهما كانا يستطلعان من خلال السطح، لحظة دخول القوات الامريكية، وعند اكتشاف أمرهم من قبل أحد الجنود الامريكان، لم يتوانَ في رميهم، ظنا منه انهم من العناصر التي تختبئ للنيل منهم.

اخيرا انفجر عادل بالبكاء وسقط إلى الأرض، بكي بصوت مرتفع، بينما طفق أبو فهد يصيح:

ـ لاحول ولا قوة إلّا بالله.

وهو يساعده على النهوض، ثم قاده لبيته، ما أن جلس عادل حتى طلب من أبي فهد أن يتركه لوحده.

هل هي طعنة القدر الاخيرة التي أسقطته؟ او أن هناك طعنات أعمق جرحا والما تنتظره؟ فقدان أعز ما يملك بلحظة واحدة ببندقية واحدة وقد يكون برصاصة واحدة، استسلم للبكاء وهو ينظر سقف البيت، فانتبه الى

لوحة معلقة من رقبتها على الجدران وكأنها شنقت منذ ان خلقها الرسام، نظر يتفحص اللوحة المؤطرة بالخشب والزجاج، اخذ يتفحصها، طوف نجاة وسط البحر والعواصف والغيوم التي تتعانق مع غضب الماء وكأن السماء والبحر تتحالفان على الجموع البشرية المتهالكة التي تتزاحم فوق الطوف، كان هناك فيهم من استسلم للموت وهناك من يتشبث بصاحبه وهناك من لازال يقف وهو يلوح بملابسه، متأملين ان يراهم احد لينقذهم، ولمح في نهاية طرفها كتبت عبارة (غرق الميدوزا)، لم يفهم ماذا تعني؟ ارتفعت حرارته وصار يتصبب عرقا بغزارة، وشعر ان جدران الغرفة تطوف حوله وهي تردد صوتا غريبا ومزعجا، هكذا دائما يكون الطواف حول الألم والسواد والحزن، بدأ له البحر يتحرك، وان صوت العاصفة يعوي، وصراخ الخوف والغرق تتعالى، وشاهد الريح تحرك الشراع الذي مال الى الجانب ثم تحول الشراع ليكون جسد فتاة تفتح ذراعيها وهي تنظر لهما مغمضة العينين، نهض وهو ينظر صوبها:

ـ بلقيس؟

ـ اهلا صديقي، انقل لك سلام والديك؟

ـ هل التقيت بهم؟

ـ هما يسبحان بأمان؟

سكتت وهي تشير إلى الاشخاص الهلعين فوق الطوف، ثم اردفت:

ـ ليس مثل هؤلاء الذين تراهم؟ انهم يخشون الغرق وهم فوق الطوف، لقد اكل بعضهم بعضاً فغرقوا الى الابد، لا تكون مثلهم، كن مثل والديك.

ـ اين هم؟

صاح بعصبيه فردت بهدوء:

ـ انهما يسبحان بأمان.

ـ من قتلهما؟

ـ العراقيون.

ـ بل الامريكان.

ـ لا .. لا يا صديقي، لو ابصرت اللوحة جيدا لعرفت من قتل والديك، ما حدث للميدوزا، حدث لوالديك، هناك من اكل لحمهما ليعيش.

ـ انت تكذبين، كلهم قالوا ان الامريكان قتلوهم.

رد بعصبية وامسك منفضة زجاجية ثم رماها بعصبية على اللوحة، فتناثر زجاجها واحدثت صوت تكسر عالٍ، جاء على اثره يركض لاهثا ابو فهد، ليجد (عادل) منحنيا وهو يتصبب عرقا، شرع يجلسه في فراشه، ونادى على ام فهد أن تأتي له بقدح ماء، بعدها استسلم للنوم، حتى نهض صباحا، وهو لا يدري أكان في غيبوبة أم كان نائما، نادى على ابي فهد الذي بادره يسأله:

ـ هل أنت بخير؟

لم يجب وانما أخذ يسأله:

ـ البيت؟ من هؤلاء؟ وهو يشير بأصبعه إلى بيته.

ـ لا اعلم يا ابني، بعد حادثة والدك التي انتشر خبرها في المدينة، كما انتشر خبر مقتلك في بغداد أثناء العزاء، جاء أشخاص بأسلحتهم،

واحتلوا البيت، ولم يقف بوجههم أي أحد لانهم لا يرحمون، آه يا ابني مات فرعون فتفرعن علينا القريب والبعيد، ثم نهض عادل وشرع يصرخ:

ـ سأخرجهم بنفسي.

وهم بالخروج، فاعترضه أبو فهد وتوسل به:

ـ لا تتهور، لانهم سيقتلونك وانصحك باستشارة محامٍ لتحصل على بيتك.

بحث عادل عن محامٍ ليعيد إليه بيته، إلّا أن كل المحامين الذين ذهب إليهم مع أبي فهد، رفضوا ذلك بعد أن أعلمهم أن من يتخذ البيت هو حزب الرغبة الاسلامي، بعدها ودع أبا فهد بعد أن اقنعه أنه يستطيع تدبير أمره، ومشى يذرع الشوارع، لا يدري إلى أين يذهب فهو لم يبق له أحد ولم يكن يملك سكنا، اخذ يسير بلا قصد ويدندن مع نفسه اغنية:

«نفيت واستوطن الاحزاب في بلدي.. ودمروا كل أشيائي الحبيبات»

تغيرت طبائعه وبدت تصرفاته غريبة، وقرر الذهاب لزيارة شهد متجها صوب بيتها، لم يعبأ أن خرج له زوجها، دخل الشارع الذي يقود إلى بيتهم الخالي من أي أحد، ماعدا رجل خمسيني يجلس في باب إحدى البيوت، على كرسي وهو يمسك انبوبة ماء يرش بها الرصيف، بينما اتجه عادل صوب بيت شهد يطرق الباب بطرقات خفيفة، سمع أصوات اطفال خلف الباب لكن لا أحد يجيب، أعاد الطرق بشكل اقوى، سمع صوت اقدام تقترب من الباب، فظهر له رجل يناهز الثلاثين من العمر لم يكن يعرب، يرتدي دشداشه امارتية بيضاء تكشف عن زنديه، بصر في وجهه ثم خاطبه:

ـ تفضل!

ـ عفوا بيت يعرب؟

ـ يعرب البعثي؟ لا بيوت للبعثية في العراق، ارني عرض اكتافك.

ثم اغلق الباب بوجهه بشكل عنيف، عاد خائبا، بينما الرجل الذي يجلس في الباب يراقبه، ما أن مر بقربه حتى نادى عليه يخاطبه:

عفوا، حضرتك تسأل على(أبو يعرب)، توقف عادل ليجيبه:

ـ اي، أنا صديق يعرب؟

ـ قتل ابو يعرب من قبل الناس الغاضبة وسحلت جثته في الشوارع، وتم الاستيلاء على بيتهم.

ـ وعائلته؟

ـ هربت إلى سوريا.

ـ تقصد يعرب وزوجته بسوريا؟

ـ اي وابنهم الصغير؟

ـ ابنهم؟!

ـ اي ابنهم احمد.

ـ هههههه احمد يعرب، هههههه احمد يعرب... اسم حلو.... اسم حلو.

ترك الرجل واخذ يكرر الاسم، يصيح: اسم حلو ويضحك، بينما اخذ الرجل يبرطم وهو يهز يده لظنه أنه مجنون، استمر يضحك ثم

اصيب بنوبة بكاء، وهو يسير متجها صوب السوق القديم لمدينة الحلة، فشاهد مجموعة من الملثمين يحملون اسلحة خفيفة وهم يختفون داخل السوق بينما اخذت الأليات العسكرية الأمريكية تمر بهدوء، حتى سمع صوت إطلاق قذيفة فر على أثرها من في السوق، وسط صيحات النساء، فقوبلت القذيفة برشقات رصاص من قبل الجنود الامريكان، ثم توقفت الآليات، ونزل الجنود يهرولون داخل السوق، وهم يطلقون الرصاص بشكل عشوائي، شعر بحقد كبير وهو ينظر صوب الجنود، متصورا أن قاتل والديه قد يكون بينهم، لكن كيف يستطع التعرف عليه؟ تمنى أن يقتلوا جميعهم أمام عينيه من قبل الشبان الملثمين، هو الوحيد الذي لم يهرب فصاح به شاب من داخل المحل الذي يقف أمامه:

ـ ادخل للمحل، لا يقتلونك.

تحرك مسرعا ودخل محلا يحتوي على مجموعة من الاقمشة، في احدى زواياه مكواة تمتطي ظهر منضده مستطيلة، بينما يجلس في وسط المحل خلف ماكنة خياطة شاب يناهز العشرين من العمر، يرتدي دشداشة سوداء بوجه ابيض ناعم، وشعر بني سُرحَ على الجانب الايسر، أشار إليه أن يجلس مرحباً:

ـ الله بالخير

ـ الله بالخير

ـ سيرحلون لا تخف، صار المشهد يتكرر كل يوم.

رد عليه وهو ما بين الانشغال بماكنته ومراقبتهم من خلال زجاج المحل:

ـ شكرا، هؤلاء الشبان من البعثية؟

هههههه أتعتقد أن هكذا عمل شجاع يفعله البعثية؟ لا يا اخي هؤلاء الشبان مؤمنون، ويرفضون المحتل الذي جاء ليسرق اموالنا، ويقتل رجالنا واطفالنا، ويستبيح نساءَنا.

ثم ترك ماكنة الخياطة، وسكت للحظة وهو يركز بصره في وجهه ثم خاطبه بصوت منخفض:

ـ أنها علامات الساعة.

فسأل عادل:

ـ من يقودهم؟ وهل هم مدربون أو يفعلون ذلك بشكل فوضوي.

ـ طبعا.. طبعا، يقودهم رجال الدين الشرفاء الذين رفضوا كل مغريات المحتل، ويدربون على شكل فصائل ومجاميع ويمارسون عملهم بكل ايمان وعقيدة.

فاجأه عادل قائلا:

ـ أود الانتماء إليهم، أريد الثأر من هؤلاء الامريكان.

ثم سكت قليلا وهو ينظر باتجاه الدبابة التي لازالت واقفة وأردف:

ـ لقد قتلوا والديَّ.

فطفق الشاب يترك عمله واقترب منه، وهو يربت على كتفه ثم قال:

ـ البقاء في حياتك، انهما شهيدان في الجنة، أن كنت جادا سأوصلك إليهم، انتظر هنا حتى يمضي الامريكان.

انخرط عادل مع المجاميع التي تقاتل الامريكان دون معرفته من

يكون هؤلاء؟ وما هي اهدافهم؟ وما الاسباب التي تدفعهم لمقاتلتهم؟ المهم لديه الانتقام لوالديه والاخذ بثأرهم، أُرسِلَ ليتدرب لمدة شهر داخل معسكر خاص في صحراء مدينة النجف، عاش فيه ظروفا قاسية، لم ينس الصورة القبيحة لسيد زهير المسؤول عن المعسكر، حين استدعاه ليلا لغرفته، وهو يجبره على مضاجعته تحت التهديد، كلما شاهد وجهه بالتدريب، اشمأزّ منه وهو يتذكر كيف نزع عمامته، وراح يلتهم قضيبه، بعد أن انهى شهرا من التدريب تغيرت ملامحه، أصبحت له لحية طويلة بشارب خفيف، وأصبح من العناصر الفاعلة فيها، بسبب اندفاعه الشديد ليضحي بنفسه كي ينتقم لمقتل والديه، فلم يكن يهمه ما يعتقده المسلحون، بقدر ما كان يريد الانتقام لوالديه، وكم تمنى أن يرسل لمدينته الحلة ليستطيع قتل ما يستطيع من الجنود هناك.

اخذ يفكر بالانتقام، وهو ممسكٌ بندقيته يتفحصها، يقرب فوهتها من عينه، كأنه يريد أن يرى كم رصاصة خرجت منها؟ وكم شخصا قتل بها؟ امتدت يده تتلمس ثقوب السبطانة فتذكر آلة الناي التي تركها مع أغراضه في الجامع وكيف كان يمسك بها وبحلمه ـ أن يكون عازفا –ليتحول عكس احلامه قاتلا، بعد انفلات الناي والحلم من بين يديه، وكأنه يمسك ماءا في كفه فكيف لا يسقط، هكذا تموت الاحلام وينبت تحتها الحقد والقتل والموت، هذا ما تحدث به للبندقية، وهو يعيش صراعا بين العودة لأحلامه التي فقدت خضرتها وبين الانتقام لوالديه اللذين لم يبخلا بكل خضرتهما من اجله.

(6)

استلقى صلاح على ظهره، ينبش أسنانه بعود التقطه من الارض، يفترش سطح البناية الجميلة التي تتوسط حي القاهرة، بينما بصره يطالع النجوم باهتمام، شعر أن كل النجوم تشبه التماع عينيها اللوزيتين، هو يشاهد فلورا في سكون السماء وهدوء ليل بغداد الدامس، هكذا بدت بغداد ليلا تنام مغلقة عينيها وفمها فلا تكاد تسمع صوتا، لولا رشقات الرصاص القريبة منه وصوت الاباتشي التي اخذت تمحو ما رسمه في السماء من خيالات.

تجاذبت صلاح الافكار بعد تخرجه بمعدل جيد يستطيع المنافسة فيه على التقديم للدراسات العليا، أصبحت له رغبة في اكمال الماجستير، كي لا يعود لمدينته المشخاب، وفكر بعد حصوله على شهادة البكالوريوس بالبحث عن وظيفة مناسبة في العاصمة، تحدث عن أهدافه وعن امكانية حصوله على وظيفة لأقرب زملائه حيدر الكعبي، الاقرب له في السنة الاخيرة من الدراسة الجامعية، هو بعيد وغريب كل سنوات دراسته عن زملائه، لأنه لا يراهم إلّا في المحاضرات التي كثيرا ما يتغيب عنها، لكن حيدر الكعبي في آخر مرحلة صار يقترب منه، ليجد فيه بديلا لعادل وفارس فنشأت بينهم صداقة حميمة، وحين عرف برغبته للحصول على وظيفة في العاصمة،

وعده بالسعي لتحقيقها، وبعد تفعيل خدمة الجوال لأول مرة في العراق اصبح من السهل الاتصال بينهما بعد التخرج، لكن (صلاح) لم يصبر كثيرا، وشرع يبحث بشكل يومي عن عمل ليحصل على عقد في إحدى الشركات التي تروم عمل دليل سياحي للعراق، لكنه لم يستمر أكثر من أسبوع، بعد اتصال حيدر الكعبي به، وهو يدعوه للذهاب معه إلى قصر المؤتمرات، للتقديم على عمل في إحدى الشركات الامنية الاجنبية، وبالفعل تم قبولهم براتب مجزٍ سبعمائة وخمسون دولار لم يتوقعه صلاح، تلقى دورات مكثفة داخل المنطقة الخضراء وأصبح موظفا فيها بصفة حارس امني مساعد لـ (سام) الحارس الشخصي لأحد اعضاء الشركة المهمين، ورفيقته مترجمة عراقية، علم أن مهمة الشركة الامنية التي يعمل فيها هي تدريب الشرطة العراقية، لم يكن عملا سهلا، لأنه يعرض حياته للموت في أية لحظة ولم يبال بذلك، وفي اليوم الاول لعمله بعد انتهاء التدريبات، تفاجأ وهو يسمع احدهم ينادي على المترجمة العراقية باسم (فلورا)، التفت نحوها كانت منشغلة مع احد اعضاء الشركة، نظر لها بقميص انيق يكشف ذراعيها وتنورة قصيرة، هي نفسها نفس الطول ونفس العينين اللوزيتين، لكن الفرق انها الان بدون حجاب، وانتبه الى بطنها كأنها اصبحت بارزة اكثر، وفسر ذلك بالترف الذي تعيشه، لم يتوقع ان يكون لها شعر طويل وجميل واشقر بهذا الشكل، اذا فلورا لازالت حية، لكن كيف عادت أليها الحياة؟ وكيف وصلت الى هذه الشركة؟ انتظر قدومها نحوه ليختبر ذاكرتها، هل ستتعرف عليه، تشاغل عنها يقلب بجهازه اللاسلكي، وكان يسمع صوت خطواتها تقترب منه وهي تحيه:

ـ صباح الخير

رأسه باسما نحوها، كانت تريد ان تكمل حديثها، لكنها توقفت وهي تضع يدها على فمها الذي فغرته متفاجئة، واردفت:

ـ صلاح؟

ـ اهلا فلورا.

ـ لكن كيف؟

ـ انا من اسال كيف؟ كل شيء ممكن توقعه الا ان اراك ثانية او اجدك هنا؟

ـ كيف حالك؟

ـ بخير، وانت؟ انشغلت عليك كثيرا؟

ـ انا الان افضل مرت عليّ ظروف قاهرة، الاشياء الجميلة المتأخرة عندما نعيشها فإن الوقت قد يكون بالنسبة للحياة والصحة قد فات، لا يغريك مظهري، اصبح داخلي عبارة عن موقد منسي عبارة عن فحم ورماد، كل أشيائي أُحرقت وانطفئت ولم يتغير شيء، لكن لا عليك، ماذا فعلت بالأوراق؟

ـ الاوراق غطست في نهر مدينتي.

فرح صلاح بفلورا، لكن فرحته لم تكتمل فبعد مرور حوالي الشهر على عمله الجديد، قتل صديقه حيدر الكعبي، أثناء عودته للبيت من قبل الجماعات المسلحة التي تقتل كل من يعمل أو يتعاون مع القوات

الاجنبية بتهمة الخيانة، فمنطقته من أكثر المناطق التي تنشط فيها الجماعات المسلحة، كان لمقتله ألم عميق في نفس صلاح، وتنبأ بأن مصيره سينتهي مثل مصير صديقه، لكنه وضع في الحسبان منذ اللحظة الاولى التي فكر فيها بالبقاء في العاصمة، أنه لا يعيش وسط مدينة وانما وسط دوامة الموت التي ستبتلعه بعد وصوله إلى الدورة الاخيرة منها نحو الهلاك.

(7)

اختير عادل مع مجموعة من المسلحين لتنفيذ عميلة كبرى على الطريق الدولي بين بغداد وبابل، فالمعلومات الدقيقة التي حصلت عليها الجماعات المسلحة تؤكد وجود رتل لقوات امريكية كبير يحمل مجموعة من الأليات لينتقل من محافظة بابل، وترتكز خطتهم على زرع عبوتين ناسفتين على الطريق المتوقع مرورهم فيه، على أن تكون المسافة بين العبوتين بحدود المائة متر، مع زرع عناصرهم على مسافة قريبة من الشارع مزودين بالقذائف والهاونات والاسلحة الخفيفة.

نفذت العملية بشكل دقيق، ودمرت بعض الأليات إلّا أن القوات الأمريكية التي نجت من العبوات والقذائف والرصاص، استطاعت قتل بعض المسلحين وأسر الفارين منهم، شعر عادل بخوف شديد لحظة مسكه مع العناصر التي تم القبض عليهم، وبعد تعرضه لضرب شديد قيدت يداه إلى الأمام، ووضع كيس أسود في رأسه، أدخل مع الباقين داخل سيارة عسكرية وهم يتلقون الركل والضرب بمؤخرات البنادق، اخذوا إلى معسكر قريب في منطقة الرشيد، ثم نقلوا إلى سجن (أبو غريب)، أدخل في زنزانة قذرة ومظلمة وحيدا، تذكر ليلته الاولى حين سجن قبل تغير النظام، وشعر أنه يعود إلى عالمه المجهول الذي لازال يدور فيه، كيف ستكون النهاية هذه المرة؟ وسط هذه الدوامة من

التفكير، طرق مسامعه صوت نسائي يتكلم بلكنة عربية لمجندة امريكية، بادرت بالحديث معه:

ـ لم نتوقع حين جئنا لمساعدتكم وتحريركم من العبودية والظلم أن تقتلوا جنودنا الذين تركوا أطفالهم ونساءهم لينقذوكم! لِمَ تقاتلوننا؟

فتح فاه ليفسر لها الظروف التي مر بها محاولا أن يقص عليها قصة مقتل والديه، حتى تلقى ركلة قوية منها، ثم قامت بأمطاره بسيل من الشتائم، دخل جنديان وشرعا يضربانه لأكثر من ساعة، بعدها اعطي زجاجة عصير علم فيما بعد أن في داخلها مخدر، عاش غيبوبة وكأنه قد فارق الحياة، شاهد جسدا ممددا في الماء بين يدي بلقيس التي شاهدها هذه المرة معصوبة الرأس بلفاف ابيض بينما في وسطه بقعة حمراء، وهي تضع الكمادات على جراحه، نظر نحوها متوجعا وخاطبها سائلا:

ـ من الذي فعل بكِ ذلك؟

ـ لا تهتم يا صديقي انا افضل حال منك، عليك ان تأتي معي.

ـ كيف؟ خديني معك ارجوك، لا شيء يدعوني للبقاء.

واخذت بكفها تغرف من النهر الماء وهي ترشه على وجهه وتصيح:

ـ عليك أن تغطس، اغطس ..اغطس..

فاق بعد ان وجد من يسكب الماء البارد على وجهه، لكنه لم يعرف كم كان في غيبوبة يوم أو اكثر ليجد نفسه قد جرد من ملابسه، وشعر بالألمَ في دبره مع بعض الدماء، فانتابته نوبة من الهستيريا، بعدها دخل عليه خمسة جنود تقودهم المجندة نفسها، انهالوا عليه ضربا وتعاقبوا

على اغتصابه وهم يضحكون وسط موسيقى صاخبة، ومع مرور الايام تكرر سيناريو الاغتصاب بشكل يومي تقريبا، واخذوا يخترعون في كل مرة طرقا جديدةً أكثر وحشية من التي سبقتها.

بعدها دخل عليه مجند زنجي ورمى عليه قطعتين من الملابس العسكرية الأمريكية وأشار عليه ليرتديها، ثم اقتاده بعد أن وضع كيسا في رأسه إلى الحمامات الصحية، وطلب منه الاستحمام ثم اقفل الباب وانصرف، وعلى الرغم من شعوره بالتعب والالم من الكدمات المنتشرة في انحاء جسده، سكب بعض الماء على جسده، وقبل أن ينهي استحمامه عاد الزنجي، وشعر عادل برغبة مفاجئة لضربه، فضربه على وجه بالإناء، إلّا أن رده كان قاسيا، ثم اغتصبه بوحشيه وبصق في وجهه وخرج ليعود بمجندين اخرين قاما بإرجاعه إلى الزنزانة، وبعد اربعة شهور جاءت المجندة التي عرف اسمها (باتي) من خلال حديثها مع باقي الجنود وقالت له:

ـ أمامك فرصة ذهبية، فسيزورنا ضباط برتب عالية فاذا تعاملت معهم بإيجابية فربما يطلقون سراحك، رغم اننا متأكدون انك غير بريء.

ـ ان كنتم متأكدين اني غير بريء، كيف تطلقون سراحي؟

صرخت بعصبية:

ـ الطريقة الوحيدة التي تكفل لك خروجك هو أن تكون ايجابيا معهم.

ثم اخذ من قبل أحد المجندين للحمامات واشرف على استحمامه وبيده هراوة يضربه كلما رفض الانصياع لأوامره، بعدها قيد إلى غرفة

صغيرة خالية إلّا من فراش وضع ارضا وبعد ساعة جاءت باتي ومعها اربعة جنود يحملون معهم كامرات، وشرعت تخلع ملابسها واخذت تعتدي عليه وكأنها رجل، وسط ضحكات الجنود الاربعة ونغمات الموسيقى الصاخبة وهم يلتقطون الصور بكافة الاوضاع ويركزون على وجهه وهي تطالبه بالابتسامة مهددة اياه بالقتل، إلّا أنه لم يبتسم، فأخدت مسدسا من أحد رفاقها واطلقت اربعة رصاصات بالقرب من رأسه، ثم اقسمت بأن تستقر الرصاصة الخامسة في رأسه، بعدها تعاقب الجنود على اغتصابه وسط تصوير مستمر، فأفقدهُ وعيهٌ، ليجد نفسه في زنزانته وآثار أظافرهم وأسنانِهم ولسعاتِ السجائر في كل مكان من جسده، بعدها جاءت باتي لتخبره أنه سينقل إلى زنزانة جماعية، لكن قبل ذلك عليه أن يشاهد الفلم الذي صورته له، فشاهد الفلم بألم وراحت دموعه تنسكب، نظرت إليه وعلقت:

ـ هذا ما اردنا، تصيرك إلى حيوان اليف، فانتم لمَ تخلقوا لتكونوا نداً لنا، بل لكي نستمتع بكم، كما يستمتع الاطفال بالقردة في المتنزهات، أو كما يستمتعون باسماك الزينة وطيور الاقفاص.

ثم سلمته بدلة بلون برتقالي وهي تنظر إليه باسمة ومدت يدها لتصافحه لكنه تجاهلها فقالت:

ـ لقد كنت رائعا.

وهي تتبع كلماتها بقهقهة طويلة، ادخل إلى زنزانة تمتلئ بالسجناء، وجد أغلبهم من الملتحين، الزمن يعود به إلى اعتقاله الاول قبل تغير النظام عندما زج في نفس المكان، قد تكون نفسها الزنزانة، هل

هي الصدفة التي اعادته لها أو الحظ، أو القدر، ورغم كل ما مرَّ به من أحداث، إلّا أنه تذكر المكان جيدا، لم يتغير شيء فيها الرائحة، الجدران، الكتابات المتمردة عليها، لم يتغير شيء إلّا النزلاء، بعد يومين من السجن اكتشف أن من معه في الزنزانة جميعهم من تنظيم القاعدة ولا يدري كيف زج به بينهم، لان الجماعة التي ينتمي اليها على صراع وقتال معهم، حدث نفسه سائلا لماذا زج بي بينهم؟ هل اخطأ الامريكان وهم الذين لا يخطؤون؟ وأين انتهى المصير بزملائي؟ هل حدث لهم ما حدث لي أو كتب عليَّ أن اكون الضحية في كل زمان؟

تعرف على نزلاء زنزانته وبدت اسماؤهم بالنسبة له غريبة، فكلها كنى ماعدا شخص بدين توسطهم يسمى الامير يوسف سلوم، حليق الشعر بعينين حادتين ولحية طويلة لكنها خفيفة تكاد تختفي في الاماكن القريبة من أذنيه التي بانت له اليمنى فيهن خالية من الصِوان، نظر إليه يتفحصه، وهو يشبه بينه وبين الساموراي البدين الذي انتشرت صوره على ماركة الستلايتات سترونك بعد تغيير النظام، وجده يتحدث بمعرفة كبيرة وفلسفة جميلة اعجب بها، واخذ يتقرب له وأولاه اهتماما كبيرا، عظمت العلاقة بينهما بمرور الوقت، وشرع يقص قصته له:

ـ أنا احمل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، وبعد دخول القوات الأمريكية، وجب عليَّ حمل السلاح ضد من اغتصب أرضَنا وعرضَنا ومالَنا، لينشر الكفر والالحاد من النصارى واليهود ومن ساعدهم من الرافضة.

ـ دكتوراه بالفلسفة، كيف أصبحت رجل دين؟

ـ هناك شخص تجتمع فيه كل الصفات تجعله يكون صورة صادقة لعصره، فمرة يكون بطل عصره، وثائرا في عصر ثان، وأحد رجال السلطة في عصر ثالث، ورجل دين في عصر رابع، فنحن اليوم في عصر رجال الدين.

استغرب من كلامه ولم يفهم مقصده لكنه اراد ان يعرف ماذا سيكون بالمستقبل، فسأله:

ـ وماذا هناك بعد عصر رجال الدين هذا؟

ـ اعتقد سياتي عصر اللامنتمي.

ـ وماذا تقصد باللامنتمي؟

ـ ان تنتمي للفوضى والاضطراب، وان ينحصر تفكيرك في حدود الاحتمال.

أعجب بكلامه، وصار جليسه الدائم، وصار ينادينه دكتور يوسف على عكس الباقيين، وحين غطَّ الجميع في النوم ما خلاهما، طلب منه أن يدلك له صدره مدعيا شعوره بضيق التنفس، وسحب يده ليضعها على صدره يحركها بهدوء وهو يطلب منه النوم بقربه، شعر عادل بالإحراج وشكك بنواياه متذكرا شيخ فتحي في الجامع، وسيد زهير في معسكر النجف، وضع رأسه قرب رأس عادل وامتدت يده تلمس بطنه، لكن عادل ظلّ ساكنا، فامتدت يدهُ لوتدِ فاستسلم له وتركه دون أية محاولة للاعتراض، لكنه يأس وهو يحاول جعل وتد عادل ينتصب، ثم استخدم فمه ومؤخرته لكنه فشل، شعر بالغضب وطلب منه الابتعاد، فتركه، وأخذ ركنا قرب الباب يوقد سيجارته متسائلا هل افقدوه فحولته

أثناء شرب زجاجة العصير؟ أو أن حالته النفسية قتلت فحولته؟ ثم نظر إلى دكتور يوسف وهو يصدح شخيرا، وانشغل يفكر بالسر الذي يجعل رجال الدين يمارسون اللواطة، سأل نفسه أن كانت تخالف شرائعهم فلمَ يفعلونها بالسر؟ وان لمْ تخالف شرائعهم لمَ لا يفعلونها بالعلن؟ لِمَ يظهرون التقوى ويخفون قذارتهم؟ شعر انهم دجالون، دعك سيجارته بالجدران ومدد جسده يتهيأ للنوم، وهو ينظر الى الاجساد النائمة قربه والتي تتشابه باللحى والازياء وراح يقارن بين فعله الشاذ الذي يخالف مبادئ دينه، وبين تضحيته بنفسه وهو يعرض نفسه للموت؟ حتى استسلم للنوم.

(8)

ـ أي مصير ينتظرني؟ وفي أي مكان سوف أقتل؟ وفي أي يوم من أيام الاسبوع؟ هل سيكون اليوم الذي أحب؟ وكيف سيكون الشخص الذي يقتلني ولأي مجموعة ينتمي؟ وما نوع الرصاصة التي ستفصل روحي عن جسدي؟ حيدر لماذا لا تجيب على تساؤلاتي؟ الكل يعتقد بأن الاموات يبصرون ويسمعون كل شيء؟ لا أشك في ذلك، وانا مؤمن أن علينا الحديث معهم، لانهم يسمعون لنا أكثر من الاحياء.

هكذا كان يتحدث صلاح لصديقه حيدر كلما استذكر مقتله، وصار على يقين ان مصيره قريب مادام يسكن في بناية جامعة البكر العسكرية في حي القاهرة التي تحولت إلى اقسام داخلية بعد استيلاء القوات الأمريكية على مجمع البعث، ليتم نقل الطلبة إليها، لم يكن هو طالبا لكنه سكن مع مجموعة من الطلبة بالخفاء ولم يعرف الحراس ولا الطلبة الآخرون أنه أكمل دراسته، وتخرج، وبانه أصبح موظفا في شركة أمنية، بل توهموا بأنه مازال طالبا مثلهم، لم يكن هو الشخص الوحيد الذي يتواجد في الاقسام الداخلية بعد تخرجه بل هناك الكثير من الطلبة الذين حصلوا على وظيفة أو عمل في العاصمة وبقوا يسكنون غرفهم القديمة كي يتخلصوا من عبء الايجار.

بعد مقتل صديقه أصبحت فكرة الموت تراوده، فكان لابد من ايجاد

سكن أكثر أمانا واقرب مسافة لعمله، وحصل على ما كان يحلم به بمساعدة فلورا، بعد أن توسطت له للحصول على موافقة للمبيت في مكان العمل داخل المنطقة الخضراء، فالمبيت فيها يشعره بالأمان، ولن يكون هناك خطر يهدد حياته ما خلا خروجه المتكرر مع الفريق الذي يعمل معه.

شغلت فلورا قلبه من جديد، وكأنه نسى ما قرأهُ عنها في اوراق الظرف، واخذ ينتظر قدومها كل صباح ليستنشق عطرها الذي لا يغادر كل مكان تمر فيه، بعينيها اللوزيتين وانفها الصغير جدا وقامتها الرشيقة وشعرها الذهبي اللامع المنسدل تماما وهو ينام على طول ظهرها هي دائما ما تشتكي من تسريحه وتصف تسريحه بالمستحيل واخذ صلاح يناديها بذات الشعر الحريري فتبتسم سعيدة بهذه التسمية، تميزها أقواس صدرها التي ينمقهما سرب من الخال التمري اللون وهما يتحركان أثناء سيرها، اما ساقاها المكشوفان العاجيان يشعرانه ساعة ينظر إليهم بالراحة والهدوء، تتمايل في مشيتها مع صوت حذائها العالي الذي يشبه دقات قلبه الذي خطفته وأشعلت فيه السهاد، ولولا معرفته بها سابقا لاشتبه بانها مواطنة أمريكية تعمل في الشركة، هي تشعر أن مشاكساته لذيذة، بدأت تهتم به رغم كثرة المهتمين فيها، ولعل السبب معرفتها السابقة به وما تربطهم من ذكريات، تستمتع بنظراته وبكلمات الغزل المتكررة، هي ودودة ولطيفة ومنفتحة مع الجميع، سحرها وانوثتها ودلالها مثار اهتمام للجميع حتى الاعضاء الرئيسين في الشركة وبالأخص سام الاصغر سنا والاكثر وسامة بينهم.

قدم صلاح لها زهرة حمراء جميلة قطفها من حدائق الخضراء

القريبة، لم يتوقع أن يكون لهذه الزهرة هذا التأثير الايجابي، احمرت وجنتاها ونظرت إليه نظرة باسمة عذبة عبرت له عن سعادتها:

ـ شكرا صلاح أنت افضل صديق.

ـ صديق؟ إلّا يمكن أن نحلم بأكثر من ذلك؟

ـ عليك أن تكون واقعيا حتى في احلامك، ولنفرق بين الحلم والوهم.

ـ اذا كان الوهم جميلا يستحق أن نعيشَه في الحلم.

ـ علينا أن نفرغ انفسنا من الوهم، لان الواقع يحتاج لكاس فارغة.

منذ اول يوم عمل مع الشركة الامنية وهو متيقن أن عمل الشركة تدريب الشرطة العراقية، فتوقفت معلوماته عند حدود عمله، بسبب سياسة الشركة التي تعمل بسرية تامة ولا تسمح لأي موظف بالتدخل بأمور خارج مهامه الوظيفية، وفي إحدى المرات حين تحدث سام مع فلورا سمع من خلال حديثهم اسماء لمواقع اثرية بابلية، فاقتنص أقرب فرصة ينفرد بها ليسألها:

ـ سمعتكم تتحدثون عن الآثار.

ـ ماذا سمعت بعد؟

سألته وهي تضع قطعة شوكولا في فمها.

ـ سمعتكم تتحدثون عن منطقة الكفل.

لم تستجب لاستفساراته، ثم نهضت وهي تتظاهر بعدم أهمية موضوعه، وقالت وهي تغادره:

ـ احذر من إقحام فضولك في أشياء لا تهمك قد تعود عليك بما لا تحمد عقباه.

كل صباح يتابع الاخبار في التلفاز داخل الشركة أثناء العمل، رغم أن الاخبار تشعره بالكآبة وتفقده الامل بعودة الامان والاستقرار، فالأحداث من سيء إلى أسوأ، الشعور بالملل والتفكر بالعودة إلى المشخاب افكار دائما ما تراوده، كانت عينه في التلفاز وقلبه ينبض لها، حتى استوقفه خبر من محافظة ذي قار وطفق يفغر فاه، وهو ينظر لصديقه القديم فارس ببذلة سمائية، وهو يقف متحدثا أمام العشرات من لوكات القنوات، وانتبه إلى الكتابة التعريفية أسفل الشاشة (الدكتور فارس الزيدي نائب المحافظ) استغرب كثيرا كيف استطاع أن يكون نائباً للمحافظ وهو لم يكمل دراسته؟ ومن أين حصل على شهادة الدكتوراه؟

نهض وتوجه إلى مكتب فلورا، دخل ليجدها وحيدة تقف عند مكتبة الملفات تمسك ملفاً ووجهها صوب المكتبة، ترتدي قميصاَ ابيض شفافاً، يظهر لون حمالتها الانيقة، بينما تنورتها الزهرية القصيرة التي تغطي مؤخرتها المثيرة ببروزها غير المنطقي واهتزازها اللطيف، اقترب منها، شعرت باقترابه لكنها تغافلت، وقف خلفها دون لمسها مغمضَ العينين، وهو يشم عطرها، ثم مد يده ليمسك يدها التي تمسك إحدى الملفات وهمس قرب أذنها:

ـ أحبك.

جفلت وتراجعت بحركة إلى الخلف لتسقط دون قصد في أحضانه، وهي تستلطفه ليتركها، لكنه طوقها كالمجنون وهو يلصق جسده

بجسدها بقوة يقبلها من خدها، فكت ذراعيه والتفت واضعة يدها على صدره لتدفعه بهدوء متجهة صوب الاريكة التي تقع في نهاية الغرفة والمخصصة للضيوف، وقد أحمرت وجنتاها، وهي تضع يدها على عنقها تتحسس الحرارة التي غزت جلدها ثم نظرت له متسمرا في مكانه وخاطبته:

ـ انت صديق عزيز عندي، ما كان المفروض أن تتصرف بهذا الجنون.

ـ عطرك جيوش من الشياطين اطاعتها تدخلني الجنة، كل شيء فيك يثيرني، انت تسلبين عقلي وقلبي.

التفتت تنظر إليه وهي تستلذ بكلماته، ثم نهضت بدلال إلى حقيبتها ولتخرج منها قطعة كاكاو، ثم عادت لتجلس بنفس الاريكة بينما لايزال متسمرا في مكانه خجلا من فعلته، فنادت عليه:

ـ انت اليوم ليس على ما يرام، تعال تذوق الكاكاو ليهدأ جنونك.

شعر بالخجل والندم، وخَطا ليجلس بقربها تاركا مسافة ليظهر لها حسن نواياه، بينما دنت تقترب منه وهي تنزع قطعة الكاكاو من غلافها ثم اخذت تقضم جزءها العلوي بأطراف شفتيها وتقدمها له وهي تنظر بعينيه، مد صلاح يديه ليأخذ القطعة لكنها ظلت ممسكه فيها وهي تنظر ما بين عينيه وشفتيه، سحر نظرة عينيها اذاب روحه، وشعر بدفء أنفاسها يتسلق وجهه مثل البخار، طبعت بهدوء تام شفتيها على شفتيه، ففرقهما لتحتضن شفتها العلوية، ثم اخذ يكلمها وهو يقبلها:

ـ عنبر المشخاب يحمل عطرك وحقول الرز تنحني لنسيم عذوبتك، كأني بحقولي الان تركع صوبك.

اخذت يده تتسلل لفتح ازرار قميصها، فأمسكت يده وقالت بدلال:

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد كل شيء ولا أريد أي شيء.

ثم انحنى على رقبتها يقبلها، لتهوي على الأريكة مغمضة العينين، إلّا أن طرقات خفيفة على الباب أيقظتهما من لحظة امتزجت فيها أرواحهم بأجسادِهم.

(9)

بعد اشهر طويلة في الزنزانة، نظر عادل إلى قضبان السجن وهو يقترب منها ممسكا بها وشعر وهو يتلمسها، بأن هذا الحديد صهر من جديد ليصنع قضبانا له، ما أسهل كسر الحديد حين يعاد صهره، وما اسهل كسر الانسان حين يعاد حبسه، تأوه وهو يشعر بأنه تاريخ للمأساة وصورة سيئة للحظ، فعيناه تكتب بالدمع على الجفون، لكن من يفهم لغة الدمع، ومن يبصر الجفون حين تتحول إلى ورق مدون بماء الروح، شعر بيأس كبير وأن لا مفر من هذه الظلمة حتى آخر نفس يخرج منه.

استشعر دكتور يوسف في عينيه اليأس فخاطبه:

ـ لا تقطنوا من رحمة الله.

رفع رأسه ونظره نحوه، لم يقتنع بكلامه، فلا مخرج من هذا النفق الأسود الذي رمته فيه متاهات الأيام، ناداه دكتور يوسف:

ـ تعال بقربي.

جلس بقربه يائسا، فدنا منه وأردف:

ـ غدا سيحدث أمر مهم قد يحدد مصيرنا.

تطلع في وجهه يبحث عن جديته في الكلام يسأله:

ـ ماذا سيحدث؟

ـ خير أن شاء الله.

ـ قالها وهو يربت على كتفه، ثم نهض وشرع يصلي.

وفي اليوم الثاني وقبل غروب الشمس شعر عادل بقلق دكتور يوسف الذي اخذ يذرع الغرفة طولا وعرضا، فتوقع أن هناك أمرا سيحدث كما ذكر له، وعند المغيب هرع الجميع على أصوات قذائف تسقط على السجن، بينما طفق دكتور يوسف يحمد الله مرددا:

ـ نصر من الله وفتح قريب.

اهتزت جدران السجن لدوي انفجارين هائلين، تبعهما اطلاق نار كثيف، بعدها دوى انفجار ثالث، واطلاق نار كثيف، صار يزداد ويقترب أكثر منه، كما علت صرخات الجنود الامريكان، اقتربت المواجهات من زنزانته وبعض الرصاص بدأ يقتحم الزنزانة، ثم حدث انفجار صغير قرب الزنزانة حول المكان إلى غبار فصاح على اثره دكتور يوسف:

ـ الله اكبر

وهو يخرج مهرولا من الزنزانة منادا على من فيها بأتباعه، كان الاشتباك مروعا وشعر عادل وهو يهرول أنه سيقتل في أية لحظة وتمنى لو أنه بقي في زنزانته، تمكنت القوات الأمريكية من كسب الاشتباك واخذت العناصر التي اقتحمت السجن تفر منهزمة بينما راحت بنادقهم تحصد الفارين، نجا دكتور يوسف وعادل وآخرون بأعجوبة، وبعد هروبهم من السجن انطلقت بهم السيارات التي تنتظرهم خارج السور مع ما تبقى من المسلحين، علم عادل من خلال حديثهم أن اغلبهم من جنسيات

عربية، سارت السيارات بسرعة جنونية وبعد مسافة طويلة انعطفت في طريق زراعي داخل المزارع، ليكون في استقبالهم مسلحون آخرون وهم يباركون بعضهم البعض، طلب أحدهم مناديا عليهم بالدخول إلى البيت الذي توقفت قربه السيارات:

ـ الامير أبو احمد الحلي ينتظركم.

بيتٌ قديمٌ يمتد بشكل افقي يشبه بناية مدرسة مهجورة، تقدمهم دكتور يوسف في الدخول، فاستقبله الأمير بحرارة واخذ يضمه بشدة، ثم بدأ يصافح القادمين، نظر عادل في وجهه يتفحصه وهو يسأل نفسه هامساً أين شاهدَ هذا الوجه؟ وأين سمع هذا الصوت؟

جلسوا داخل مجلس كبير يفيض بالمسلحين، بينما أخذ دكتور يوسف مكاناً جنب الامير، عاد ليسأل نفسه مجددا وهو يعصر ذاكرته أين شاهد هذا الوجه؟ حتى انتبه إلى الوحمة التي على جبينه والتي غطت نصفها عمامته الافغانية، حينها تعرف على هذه الوجه الذي طالما رافقه في الحلة، أنه يعرب! الذي كان في إحدى الايام من أعز أصدقائه! يعرب الذي سرق منه شهد! خاطبه هامسا مع نفسه: إذا أنت لست في سوريا؟ لكن أين تركت شهد؟ آه من يأتي لي بأخبارك؟

تناولا وجبة عشاء باذخة، اكل فيها المسلحون بشراهة وبطريقة بدوية، استأذنهم الأمير مع مرافقيه، ليحين وقت النوم فاقترب منه دكتور يوسف ونظر إليه باسما وخاطبه متفاخرا:

ـ أنت مدين لي بحياتك.

ـ لا نكران لإحسانك وفضلك، لكن لازلت غير مستوعب الأمر

وكيف حدث، فابتسم دكتور يوسف بثقة مفرطة وهو يمسد لحيته يسرح فيها متحدثا متفاخرا:

ـ هذه لم تكن المحاولة الاولى، لقد حاول المجاهدون بقيادة (ابو انس الشامي) قبل هذه المحاولة ولكن لم يكتب لهم الله النصر واستشهد على اثرها ابو انس، ثم مدد ساقيه وهو يدفنهن تحت الغطاء واكمل:

ـ تم التخطيط هذه المرة بشكل افضل واسندت المهمة لابي خباب الفلسطيني، لكن المهمة لم تحقق النتائج المطلوبة كما شاهدت بسبب السواتر الترابية التي وضعت خلف الأسوار، فكان الهدف منها اطلاق سراح جميع من في السجن.

فسأله عادل مستفسرا:

ـ وكم عدد الذين هربوا معنا؟

ـ فر بحدود عشرين سجيناً، ولكن أغلبهم قتلوا إلّا سبعة استطاعوا عبور السور من ضمنهم أنا وانت، لكن القوات الأمريكية أعلنت ـ حسب ما ذكر لي الأمير أبو احمد ـ أن عملية الاقتحام فشلت ولم يستطع المسلحون دخول السجن، هكذا يسيرون الاعلام في جانبهم، فلو شاهدت طيرا يحمل سمكة لأقنعوك أنه ينقذها من الغرق.

غطَّ عادل في التفكير وهو يعود ليستذكر لحظات الاقتحام وكيف كان الموت قاب رصاصتين أو ادنى منه، حتى أيقظه صوت دكتور يوسف:

ـ عليك النوم، فجر غد سننتقل إلى منطقة اللطيفية، وسنعمل مع (الأمير أبو تبارك البصري)، عليك أن تكون مستعدا ذهنيا وجسديا، تصبح على خير.

(10)

ـ صباح الخير

ـ صباحك امريكي ست فلورا.

رد صلاح دون أن ينظر إليها، بعد أن قضت بحدود الساعة وهي تجالس سام وهما يتهامسان قريبا منه، بينما هو ينظر نحوهم ويتقلب بنيران الغيرة، يتفحص سام من بعيد، وجهه المحدب من الجبين والمقعر من الاسفل، انفه الذي يشبه منقار يمامة، عيناه الزرقاوان البراقتان مثل بريق وجهه الاحمر، ذقنه الطويل المعقوف، بلون شعره الاحمر الفاتح، نظر الى ظله الاسود الذي يلتصق خلفه على الحائط الابيض، وتخيل ان هذه روحه الحقيقية والتي لاتشبه وسامته وضخامته التي تجعله حين يمشي يكون بارز الصدر، على عكس ظله الذي بدا له منحنيا، كان يبغضه بحنق، نظرت له فلورا وشعرت أنه ليس على ما يرام فحدثته:

ـ صلاح! ما بك اليوم؟

ـ لا شيء.

اقتربت منه وهي تسحب كرسيا لتجلس جنبه، بينما أدار وجهه للصوب الآخر متظاهراً بالانشغال بأوراق اخذ يقلبها في يده، فخاطبته:

ـ أرجوك انظر إليَّ وواجهني بشجاعة، أحب شجاعتك.

شعر أن النساء كالمعابد تتزين بالذهب والالوان ويسكنها الشيطان، رفع رأسه ونظر إليها بغضب وقال بحده:

ـ أعرف نوع الرجال الذين تحبين!

ذهلت لكلامه وفهمت سبب تعصبه، ثم أطرقت رأسها ونطقت:

ـ صلاح منذ أول يوم وأنا اقول لك نحن ليس اكثر من أصدقاء، أنتَ من اخترت أن تكون حبيباً، وقد نبهتك أكثر من مرة أنا لست بحاجة لحبيب، لكنك لا تريد فهمي.

ـ اعرف انك تحبين سام، لا يختلف سام عن حسن الحوراني، لكن هل من الممكن أن تفسري ما حدث بيننا، أن كنت لا تحبيني؟

ـ سام؟!!! هههههه، انظر لجنون غيرتك، سام صديق حبيبي.

ـ صديق حبيبك؟!

صاح بصوت عالٍ، وطفق الجميع ينظر إليهم باستغراب، فسكتت فلورا للحظة وهي تحاول أن تخفي وجهها ثم أردفت:

ـ سام هو صديق تومس، انت تجبرني على ان ابوح بالقصة؟

ـ اي قصة؟

ـ ألم تسالني سابقا كيف اتيت الى هنا؟ حسنا، انت العراقي الوحيد الذي سيعرفها بشرط أن لا تصدر بحقي الاحكام، وتستند بأحكامك على الاوراق التي قرأتها عني، لأني لست مستعدة لاستقبال أي كلام لا يعجبني، ثم شرعت تبكي بينما أمسك يدها ويواسيها:

ـ انا اسف حبيبتي.

ـ لا تقل حبيبتي أرجوك، وسحبت يدها، وشرعت تقص عليه ما جرى لها:

ـ بعد تغير النظام، وفي إحدى أيام بغداد، حولت العواصف الترابية لون السلام فيها إلى لون الغضب والحقد والدماء، كان أبي مسرعا في سيارته التي تسير خلف رتل أمريكي، وهو يقترب منه، بينما يجلس فوق سيارة الهمر جندي امريكي يدعى تومس ماسكا رشاش الموت متيقظا أيما تيقظ لإمطار من تسول له نفسه الاعتداء على دوريته بوابل لا ينتهي من الرصاص، بينما والدي لا يعدو أن يكون عراقيا في حالة عجالة، وعدم انتباه، ليصبح بلحظة بنظر تومس العدو المفترض، فلم يتوانَ ولو لثوانٍ في إطلاق رصاصاته المتهيئة لصنع الموت، وأسفرت عملية التفتيش التي قامت بها الدورية لسيارة والدي عن وجود عشرة أرغفة خبز وكيلو خيار مخلل وثلاث قناني ببسي كولا، تركت الحادثة في نفسه ألماً كبيراً وهو يقلب جثته، ويحصي أرغفة الخبز، فطلب زيارة عائلتنا وهو يرسم على محياه علامات الأسف، وبعد دخوله بيتنا وجد أن للمغدور ابنةً وحيدةً، انتهت الزيارة بأن اعطاني رقم تلفونه في حال احتياجي إليه، وفعلا تعرضت أنا ووالدتي بعد مرور أسابيع من مقتل والدي لمضايقة من بعض أفراد المليشيات المسلحة التي تسيطر على منطقتنا، وبالأخص عدنان الذي يقود المليشيات في منطقتنا والذي كان يلحقني منذ ايام الاعدادية، وبعد مقتل والدي استشعرت الخطر الذي ينتظرني منه، فاتصلت بالضابط على الفور، وبعد أقل من نصف ساعة طوقت المنطقة عدد من الهمرات لنجدتي، وبعد حوار قصير دار بيني وبين ضابط الدورية وتومس، اقترح الضابط بعد أن اندهش بلباقتي في

اللغة الانكليزية للعمل مترجمة، وبعد ان حدثته عن الظروف التي منعتني من اكمال دراستي، فكنت سعيدة للمقترح وابلغتهم فوراً بموافقتي، وتم تعييني لأكون مترجمة مع نفس الدورية التي قتلت أبي، وعملت معهم أكثر من ستة أشهر، اعجبت بشهامة توماس وشجاعته رغم انه لم يكن وسيما بنظر والدتي التي لم يعجبها انفه الافطس ولا شفتيه الغليظتين، لكن سمرة بشرته الطاغية وطوله وضخامته التي تشعرني مرة بالخوف ومرة بالالتصاق به، وراسه الحليق مع جسده المفتول العضلات، احببت كثيرا الوشم الذي على عنقه والذي يمتد حتى منتصف ظهره، كما كنت مدمنه على رائحة الـ (ردمان) التبغ الذي يستخرجه من كيس صغيره ويضعه بين اللثة والشفه السفلى، كنت انتظر اللحظة التي يستخرج فيها التبغ لأقبله، عشنا فيها أنا وتومس قصة حب وبعد انتقاله مع دوريته إلى مدينة الفلوجة، ولخطورة المكان وصعوبة مفارقة والدتي اقترح تومس أن اعمل مترجمة مع الشركة، وتم ذلك بمساعدة صديقه سام، تنهد صلاح وسألها:

ـ تحبين جندي امريكي؟

ـ وراح أتزوجه.

ـ تتزوجين قاتل أبيك؟

ابتسمت وهي تشير إلى بطنها:

ـ نعم، أنه اب لطفل في أحشائي.

صعق صلاح للمفاجأة ونسى الاتفاق المبرم بينهما، ليطلق كلماته مثل رصاص تومس:

ـ في بطنك ابن لقاتل ابيك؟! هل ستخبرينه يوما إن سأل عن جده؟ هل ستقولين له بأن والده قتل جده ليتزوجني وأنجبك!!

ثم سكت، واردف مكملا رصاصه:

ـ ولا تنسي ان تخبريه انك قتلتِ خالته لتعيشي.

(11)

بعد وصول دكتور يوسف وعادل ومن يرافقهم إلى منطقة اللطيفية، استقر بهم المقام ببيت حديث فخم بطابقين وسط المزارع، بينما الطرقات ملأى بالمسلحين، استقبلهم الأمير أبو تبارك البصري، وقد ذهل عادل للمفاجأة التي لم يكن يتوقعها، وهو يتعرف على ابي تبارك البصري والى ضرسه الذي لازال يتحرك كلما تحدث، فحدث نفسه وهو ينظر في وجهه: إذا أبو تبارك هو نفسه شيخ فتحي! استقبلهم بحرارة وهو يصافحهم الواحد تلو الاخر يتقدمهم دكتور يوسف، وعند وصول الدور لعادل صافحه وهو ينظر بعينه فابتسم له عادل وكاد ينطق اسمه لكن شيخ فتحي تدارك الموقف بسرعة بعد أن تعرف عليه، ليغض الطرف عنه متصنعا عدم معرفته به وهو يحول نظره إلى الشخص الذي يقف خلفه.

دخل دكتور يوسف منفردا بشيخ فتحي إلى إحدى غرف البيت، بينما أشير لعادل ورفاقه للدخول إلى قاعة كبيرة كانت ملأى بالأسلحة والمتفجرات واستقبلهم عدد من المسلحين وهم مستلقون على ظهورهم داخل القاعة يعبثون بأسلحتهم.

في صباح اليوم التالي استدعيَّ ليمتثل أمام شيخ فتحي، وأَبلغ من قبله بأنه سيكون المسؤول الاول عن تنفيذ العمليات التي يخططون لها قرب

جسر اللطيفية، والتي تتمثل بزرع عبوات ناسفة على الجسر والتصدي للعجلات والسيارات التي تمر بها القوات الأمريكية ومن يتعاون معهم، وكذلك المجموعات المسلحة المعادية لهم، استغرب عادل من اختياره لهذه المهمة، وقلب الأمر مع نفسه حتى شعر بأن شيخ فتحي يريد وضعه في واجهة الموت ليتخلص منه.

(12)

ابلغ صلاح بأن الشركة ستذهب في مهمة خاصة وسيكون مرورهم في مناطق خطيرة دون معرفة المكان المقصود والهدف من الذهاب، لكنه علم من خلال العجلات أن هناك وفداً يرافق بعض أعضاء الشركة، وعرفَّ أنهم سيتجهون صوب منطقة الكفل في محافظة بابل عن طريق فلورا، اخبرته سراً لأنها تثق به كثيرا، لكنه بعد سماع قصتها مع تومس صار لا يعيرها أهمية، واخذ يربط بين ما فعلت سابقا ولاحقا، بل وصل الأمر به إلى احتقارها في داخله، صار يعتقد بأنها ليست جديرة بالاحترام، وبأنها امرأة مبتذلة بلا مبدأ، فبدل الاخذ بثأر أبيها، منحته نفسها، ثم لماذا لا تنتقم من حسن الحوراني وهي الان تعمل بمركز يمتلك السلطة، ومن الممكن ان تطرح قضيتها الى اعلى المستويات.

اختير وقت العاشرة صباحا لانطلاق الوفد، ترافقهم قوة حماية من الشركة التي يعمل معها، وقوة حماية خاصة من القوات الامريكية، ركب سام وصلاح وفلورا في نفس السيارة، سام في المقعد الامامي بينما هو وفلورا في المقاعد الخلفية، وانطلقت السيارات متجهة إلى منطقة الكفل متخذة طريق بغداد بابل.

أثناء مرورهم بمنطقة البياع، راحت فلورا تذرف الدموع وهي تردد كلمات ببسبسة خافته تخرج من تحريك شفتيها، فانتبه لها، واستفسر بحركة من وجهه، فأجابته فلورا:

ـ لقد مررنا من قرب المكان الذي قتل فيه والدي.

ـ أتبكين على والدك أم اشتقت لقاتله؟

خاطبها وهو يدير وجهه للنافذة، كانت لكلماته وقع أليم عليها، فغضبت وأخذت تداعب بطنها وهي تحدث ابنها لتغيظَهُ:

ـ أنت فقط من يعطيني الأمل بحياةٍ جميلةٍ بعيدةٍ عن الأحقاد، سنترك هذه الارض اللعينة لعاداتها وتقاليدها وسنّها التي أوصلتنا إلى الموت، يجب أن تكون في وطن أبيك، لا في وطن عبارة عن قطعة إعلان لمزايدة تتصارع عليها عيون الفضائيات، نحن وطن لتصدير الموت والاخبار العاجلة.

ابلغ شيخ فتحي عن طريق الاتصال، أن هناك رتلاً من العجلات العسكرية والمدنية يتجه صوب اللطيفية، فقد زرعت عيون من المسلحين على طول الطريق مهمتها مراقبة مرور العجلات وايصال المعلومات إلى المجموعات التي تمثلها وبعد دقائق من الاتصال، أعطيت اوامر لعادل وجماعته بزرع عبوة ناسفة قرب الجسر، وتوزيع المسلحين على جانبي الطريق، ورسمت الخطة له بتفجير العبوة بعد مرور العجلات المدنية.

سام يتلقى اتصالا لاسلكيا، ويبلغ فلورا أن هناك جماعات مسلحة تعترض طريقهم، شرعت تضع يدها على بطنها وهي ترتجف، شعر صلاح أن هناك أمراً يقلقها، لكنها هذه المرة لم تعره أهمية بسبب كلماته الجارحة، تحدث إليها سام مرة أخرى، وهو يشير لصلاح، فأبلغته دون أن تلتفت إليه:

ـ سام يأمرك أن تكون اكثر حذراً وانتباهاً، هناك مجموعة من مسلحين قد تهاجمنا.

قبض على بندقيته وهو يلصق رأسه في النافذة يراقب الطريق، انتبه للدمار الذي أصاب الاحياء السكنية والبيوت على طول الطريق، واخذ يتسأل كيف عبر هذا الوطن إلى الحياة على جسر يرتكز على بساطيل جنود ضاع حلمهم لمدة ثمان سنوات في نهر الحرب، الذي جرف أحلامهم، وصار يركض بها من حرب إلى أخرى، ثم وزع تلك الاحلام على ضفتي حرب، إنه وطن يتحدى مسلة الرب، اطلق تنهيدة وشعر بأن بغداد رئة في جسد هذا الوطن الذي دخن الموت المستور دون الانتباه إلى التحذير أسفل ماضيه تحت خط الموت الاحمر (الطائفية سبب رئيسي للموت).

في هذا الوقت اسندت فلورا رأسها للخلف ويديها على بطنها، مغمضة العينين وهي تردد مع نفسها كلمات وربما دعاء أو تعويذة، خيم صمت طويل بينما سام يضع سماعات الهتفون في اذنيه ويهز رأسه مع رابه الصاخب، ويعزف بأصابعه على بندقيته الممددة بين رجليه، في الوقت الذي اخذت فيه السيارات تقطع الطريق مسرعة، يتكون الرتل عن أربع سيارات همر وسيارتين مدنيتين، سيارتا همر اثنان في المقدمة وأخريان بالمؤخرة بينما تتوسطهن السيارتان المدنيتان، السيارة المدنية الاولى تضم الوفد، أما الثانية فتضم اعضاء الشركة، تم اتخاذ طريق مختلف في منطقة المحمودية، هكذا اكتشف صلاح إلى أن الطريق لم يكن نفسه حين يذهب إلى مدينته المشخاب، اجتازوا منطقة المحمودية واقتربوا من منطقة اللطيفية، انتبه إلى فلورا فابصرها تتصبب عرقا فعرف أنها خائفة، أراد أن يطمئِنَها إلّا أنه تردد، وصل الرتل إلى منطقة اللطيفية ،وخفف سرعته بسبب ضيق الجسر الاضطراري الذي انشئ بديلا

للجسر القديم الذي تم نسفه من قبل المجاميع المسلحة التي تسيطر على المنطقة.

مرت ساعة على عادل ورفاقه وهم ينتظرون وصول الرتل، وضع البندقية بين ساقيه، بينما يده على زر العبوة الناسفة التي يجب تفجيرها عند اقتراب السيارة المدنية الاولى، لفت انتباهه كلب يسحب بصعوبة رأس رجل بلا جسد، شعر بالغثيان وحول نظره صوب النهر، لكن المنظر لم يكن أفضل من سابقه، فأبصر كثرة الجثث التي تطفو على سطح النهر، فكأنما يشاهد أمام عينيه اسماكاً وليست أجساداً بشريةً، فمشهد الجثث الطافية أعادَ إلى ذهنه ما شاهده حين كان صغيرا ذات مرة في أحد انهر مدينته، الاسماك وهي تطفو بعد أن رمى أحد الصيادين حبات من الرز المنقوعة بالسم، لم يستوعب فكرة أنها اجساد بشرية، وشعر وهو يراقب النهر أن من حسن حظ الانسان أن تحفر له قبره المياه، لأنه يحتاج لأيادٍ طاهرة لتدفنه، لا اطهر من المياه شيء، ابصر الجثث تتدافع داخل النهر، اغمض عينيه وشعر أن ما يبصره أكبر من الموت نفسه، وكأنه يعيش مرحلة ما بعد الموت، فالموت الحقيقي حين نفقد أشياءَنا، شعر أنه مات منذ الولادة، تركت هذه الصور- الجثث التي تملأ النهر، والكلب الذي يسحب الرأس ـ انطباعا سيئا في نفسه، أنساه مراقبة الطريق، حتى سمع صوت قريب من احد مساعديه يناديه:

ـ أنهم يعبرون.

التفت فشاهد السيارتين الهمر والسيارة المدنية يتجاوزن مكان العبوة، فضغط بسرعة على الزر لتنفجر العبوة في مقدمة السيارة المدنية

الثانية لسوء حظ سام وعادل وفلورا، احترقت مقدمتها وانقلبت على الجهة التي تجلس فيها فلورا، وشرعت الجماعات المسلحة بأطلاق النار بينما رد الجنود الامريكان دون توقف، بعد أن أفلتت سيارتا الهمر الاولى والثانية، وكذلك نجت السيارة المدنية الاولى مع تهشم زجاج النوافذ الخلفية، التفت سيارتا الهمر اللتين في مؤخرة الرتل حول السيارة المقلوبة، فخرج سام بوجه محروق وهو يهرول هربا إلى داخل إحدى السيارتين الهمر، بينما قام صلاح الذي اصيب بجروح طفيفة بإخراج فلورا التي صبغتها الدماء وقام بسحبها، ثم حملها بصعوبة إلى داخل الهمر، وسط وابل من الرصاص، وحين اراد الصعود انفجرت قربه قذيفة هاون، شعر أن جسده يطير في الفضاء ليرتطم بعنف، وأحس بألم في الظهر، أراد النهوض لكنه لم يستطع الحركة، بينما فمه ممتلئ بالتراب والدماء.

هربت سيارتا الهمر بعد سقوط القذيفة، وطفق المسلحون يتقافزون على السيارة المقلوبة وهم يطلقون ما تبقى لهم من رصاصات فيها حتى انفجر خزان الوقود لتحترق مع سائقها الذي لم يتحرك منذ اللحظة التي انقلبت فيها السيارة، انتبه أحد المسلحين إلى صلاح ممددا على ظهره، ملطخا بالدماء والتراب، وصوب سلاحه في وجهه، فرفع يديه يستنجد به تكلم بصعوبة:

ـ لا تقتلني أرجوك لا تقتلني.

احاط به المسلحون، وقاموا بسحبه بعد أن امرهم عادل بحمله إلى داخل الطريق الترابي الذي يمتد على النهر، وصلا به عند حافة النهر

كما يفعلون في كل مرة بأية ضحية تقع في يدهم، يستجوب ثم يفرغ الرصاص في رأسه بعدها يلقى في النهر، صاح عادل آمرا:

ـ ابحثوا لي عن هويته.

اثنيت ركبتاه، وقيدت يداه إلى الخلف، وهو يصرح مستغيثا خائفا:

ـ لا تقتلوني.

انتبه عادل لصوته، لم يكن غريبا على مسمعه، حتى جاءه أحد المسلحين بهويته، تحمل صورة صلاح، بينما دونت كل معلوماتها باللغة الانكليزية وقرأ يتهجى الاسم salah، اصيب بدهشة، وأخذ يتحدث مع الهوية وهو يتفحص الصورة: صلاح! نعم هو صلاح، ثم شرع يقترب منه يأزف وجهه من وجه، نظر بعينيه وخاطبه وهو يمسكه من تحت حنكه:

ـ صلاح إلّا تذكرني؟

نظر بوجهه، واراد أن يتذكر هذا الصوت وهذا الوجه الذي يبدو أنه يعرفه فأجاب:

ـ كأني أعرفك لكن لا اذكرك، أرجوك انقذني.

وشرع يبكي، رفع عادل رأسه وقرب وجهه ثم صاح بنبرة قوية:

ـ صلاااااااح، أنا عادل

ـ عادل!!

ـ يا نذل كيف سمحت لنفسك أن تعمل مع المحتل، مثلك لا يستحق الحياة.

نظر إليه وتذكر قصة مقتل والديه وتذكر كيف امسكت به القوات الامريكية وماذا فعلوا به، بينما زاد بكاء صلاح وهو يتوسل به:

ـ عادل أنا صديقك لا تتهور، ارجوك اسمعني.

بينما حمل عادل سلاحه واخذ يتراجع إلى الخلف ثم صوب سلاحه باتجاهه وهو يعض شفتيه بعصبية، ثم ضغط على الزناد ليفرغ ما فيه من رصاصات بغضب، فسقط صلاح على وجهه بعد أن طفقت رجلاه تنثران الغبار.

سقط السلاح من يده وهو يشاهد دماء صديقه تسيل، ثم سار باتجاه جثته ودموعه تنهمر، حتى جثا عليها، يحضنها ويبكي بصوت عالٍ ويصرخ باسمه، وعيناه تراقب الدماء التي تتدفق من جسده إلى ثقوب القصبات التي احدثتها الرصاصات، تصب فيها بتدفق ودفء، تأملها فارتسمت صورة ناي يشرب الدماء، تذكر نايه الذي فارقه قسرا في الجامع، ثم نظر إلى عيني صلاح التي مازالتا مفتوحتين، وراح يعيد ذكرى ذلك اللقاء الذي عزف له فيه أغنية سيرة الحب، وكأن نايه يسرد له قصة حبه الاولى التي لم تكتمل، في حين كان يغني له (طول عمري بخاف من الحب وسيرة الحب)، وكان عليهما أن يخافا من الحرب وسيرة الحرب، أخذ يلمس دماءه بكفه، يستشعر دفأها ويتذكر دفء ابتسامته، دفء مصافحته، دفء مجالسه وكلماته، ودموعه تنهمر على أصوات القصب، التي حركتها الرياح، لم يتوقع وهو عازف الناي أن للقصب المملوء بالدماء صوتا اكثر شجنا حين تحركها رياح الشر الاتية من خارج حدود الوطن، والتي غيرت مناخه والحانه ونایاته، وتاريخه

وتراثه، اخذ ماء النهر الممتلئ بالجثث نصيبه من الدماء، راح يتصبب عرقا وحرارته ترتفع واخذ يشعر بالدوار وهو يراقب مشهد الجثة والدماء، حتى ظهرت صورة والده متكوما بجانب أمه على قارب من الألم يسير في طابور الجثث وسط النهر، وهما ينزفان خليط من دماء ودموع يرسمان طريقهما فيه، احتضن جثة صديقه يقبله، ثم طوقه بقوه واخذ يدحرج نفسه مع جثته في النهر حتى اختفيا، تلاطمت أمواج النهر الساكن، وتحركت القصبات وتحركت الجثث وكأن روحاً بعثت فيهما، ثم عاد السكون من جديد وابتسمت الشمس في الماء، بينما نبتت قصبتان بأوراق حمر لازالت تعزفان لحنا حزيناً كلما مرت رياح بقربهما، تنذران بحروب قادمة لا يحتويها وجع الوطن:

ـ على طابور هذا الوطن حروب كثيرة قادمة.

النهاية

ـ هل كل الأشياء تنتج من مبدأ واحد؟

سأل صديقه وهما يسبحان في فضاء المياه الشاسع مثل سمكتين ذهبيتين شفافتين، أشياء كثيرة اختفت في عالمهم الجديد ليس هناك زمن ولا سرعة ولا جهد ولا مقاومة، كل ماهناك فضاء واسع من المياه الممتلئ بالأسماك التي تسبح باستمرار دون توقف، وجدا هناك عوالم من الجبال والممرات والتلال والنبات والكهوف، وهناك غابةً شاسعةً تحت الماء.

أثناء ما كانا يسبحان في فضائهما الجديد، الذي ليس له بداية ولا نهاية، ابتلعتهما دوامة مائية مظلمة بسرعة شديدة، حتى اوصلتهما الى منطقة اكثر هدوء ومياهها اكثر صفاء استوقفهما عدد هائل من الاسماك، التي تدور بشكل دائري ومنتظم حول مياه واقفة بشكل عمودي، مثل شاشة كبيرة تحتوي على متاهات كثيرة ومعقدة، في بداية كل متاهة هناك رمز أو صورة سمكة، اقتربا أكثر، ليبصرا بلقيس جالسة على عرش كبير من الماء تتوسط المكان، تجلس مثنية ساقيها مغمضة العينين وهي تلف يديها بحركة دائرية، واخذت القلادة التي في صدر عادل تضيء واصبحت تزداد اشعاعا، لتتوقف بلقيس عن الحركة، ثم فتحت عينيها وهي تبتسم لهما فاتحة يديها، ثم شرعت تتحدث دون ان يكون لها

صوت، وهناك فقاعات من الهواء تخرج من فمها مع حروف تطفو في الماء ثم تلتصق جنب بعضها لتكون اسطراً مترادفة، شرعا يقرآن، ترشدهما كلمات بلغة غريبة إلى معرفة ما تتحدث به عن مستقبل من لازالوا تحت الغرق:

- فادي: يعود للوطن يحمل آلة الكمان بعد أن أصبح عازفا لكنه ينصدم بموت والدته التي انصهر جسدها قرب كابسة النفايات المفخخة في البتاوين، فاصبح كلما سمع بانفجار يذهب ليعزف قربه، إلّا أنه عاد خائبا لوطنه البديل هولندا، بعد أن قام مجموعة من المسلحين بتحطيم آلته واهانته وضربه.
- فارس: يصبح وزيرا للتعليم العالي والبحث العلمي.
- يعرب أو(أبو احمد الحلي) ودكتور يوسف سلوم أو (الامير يوسف سلوم) وشيخ فتحي أو (أبو تبارك البصري): يتصالحون مع الدولة ويصبحون من رجالها بانضمامهم إلى مجالس الصحوات مقابل حصولهم على أموال كبيرة من الدولة، ثم يستخدمونها في تمويل الجهات الارهابية التي تمثلهم بشكل سري، يرشحون في الانتخابات ضمن قائمة واحدة ليفوزوا أعضاءَ في البرلمان، ويستخدمون نفوذهم في سرقة أموال الدولة لتمويل مجاميعهم الإرهابية واختراق الأماكن المحصنة أمنيا.
- رعد: يصبح منجما وعالما روحانيا مشهورا يتوافد عليه الملايين من كل مكان، حتى يتخذ له مكتباً في سوريا ويكثر ظهوره في القنوات الفضائية.
- فلورا: بعد موت جنينها في بطنها، يراودها كابوس والدها يأتيها

كلما اغمضت عينيها، يمد يديه إلى رقبتها، فتهاجر إلى ولاية ديترويت الأمريكية مع والدتها التي أصبحت ملازمةً لها من البيت إلى طبيبها النفسي، حتى تنتحر في ليلة باردة.

- ايشو وريتا والعائلة: يهاجرون إلى استراليا حيث الاقارب.
- كَولستان: تعيش حياة طبيعية كموظفة استقبال في إحدى فنادق أربيل.
- سهام: يصيبها مرض السرطان في الاثني عشري لكن والدتها تصر على أن هناك من وضع لها السحر، ولازالت مصرة على مراجعة بيوت الروحانيين وأخذها للمزارات، وترفض مراجعة الاطباء، فيضوي جسدها شيئا فشيئا حتى يضمحل.
- حسن الحوراني: يصبح منشدا حسينيا ويشتهر بلبس دشداشة عربية سوداء، يسافر إلى دول الخليج، يقرأ في حسينياتها ،فيجمع ثروة طائلة وتتسع ثروته حتى يؤسس مؤسسة ضخمة للصوتيات والمرئيات.
- شهد: تعيش حياة مضطربة في أحياء دمشق وأزقتها تنتقل من مكان إلى آخر مع ابنها، تعشق عازف ناي مغربي متصوف وتتزوجه دون علم زوجها وتغادر إلى هولندا.

اشارة

أنا على يقين أن حفار الرفوف سيأتي ليدفن هذه الأوجاع بين آلاف الكتب، لكن ماذا يفعل الضعفاء مثلي ممن لا يحملون غير هذه الثرثرة الأليفة، ندون وجع الإنسان على لوحات بيضاء أمام الوان الدم وسخام الرصاص، عليَ أموت كتاباً لأحيا إنساناً، فإنّا للغرق وإنّا إليها راجعون.

تمت في **11 /1 /2017**